

على هامش

التاريخ المصرى القديم

تأليف

عبد القادر حمزه باشا

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبيه الكريم

زرت الأقصر فى سنة ١٩٢٤ لمشاهدة قبر الملك «توت عنخ أمون» الذى كان مستر هوارد كارتر[1]، قد اهتدى إليه وكشف عنه بمساعدة اللورد كارنارفون[2]، فزرت فى الوقت نفسه كثيرا من قبور وادى الملوك ووادى الملكات وزرت الدير البحرى ومعبد الكرنك. وكنت نازلا فى فندق « ونتر پالاس » فمررت بمعبد الأقصر رائحا وغاديا ولكنى لم أجشم نفسى عناء دخوله . ووقع فى يدى وأنا فى الفندق كتاب «طيبة» Thêbes للأستاذ « كابار»[3] وقيل لى إن ثمنه مائتا قرش فترددت فى شرائه، ولكنى اشتريته. ثم عدت إلى القاهرة وفى نفسى من ذلك كله أثر غامض . وقرأت الكتاب فخيل لى أن الآثار التى مررت بها مرور الطير أخذت تتجسم أمام ناظرى رويدا رويدا، وأن الحياة أخذت تدب فيها ، فتحدثنى عن مجد عجبت من أننى لم أجد فى مدارس الحكومة التى تلقيت فيها تعليمى فى جميع درجاته ما يرشد إليه أو يبعث فى الذهن فكرة عنه .

وحفزنى ذلك إلى زيارة الأقصر مرة أخرى فزرتها فى سنة ١٩٢٦ ، ولكن الزيارة فى هذه المرة لم تكن زيارة مشاهد بريد أن يمتع نظره بمناظر غريبة، بل كانت زيارة مشوق كان قد فهم بعض الشيء من حياة طيبة ، فكان يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار. وعدت من هذه الزيارة وقد ازددت شغفا بمصر القديمة، فأحسست رغبة قوية فى زيارة المتحف المصرى، مع أننى كنت قد زرته من قبل مرتين، فجعلت أزوره من جديد زيارات كان لها فى نفسى معنى جديد .

---

(١) توفى مستر كارتر منذ عامين . (٢) توفى اللورد كارنارفون منذ عدة سنوات .
(٣) J. Capart هو مدير معهد الآثار المصرية فى بروكسل .

وتكررت زياراتى للآثار، وانكببت على المؤلفات التى وضعها علماء المصرولوجيا[١] فكنت كلما أوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر فى عينى وكأنى أمتلئ بذلك زهوا، وأخذتنى الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر هذه لا نعرف عنها هذا الذى يعرفه الأجانب، ولا نعجب بها هذا الاعجاب الذى يبذله لها الأجانب، ولا نغرم بمجدها وتقصى خفاياه هذا الاغرام الذى يقبل عليه و يرتاح له الأجانب .

وكان من الضرورى أن أقرأ هذه المؤلفات، أو بعضها على الأقل، مرة وثانية، بل ثالثة فى بعض الأحيان، فلم أجد فى ذلك كلفة، ولم ينقص التكرار شيئا من متعتى بالقراءة، لأننى كنت أفهم فى الثانية ما يبهم علىّ فى الأولى، وأنفذ فى الثالثة إلى ما يغيب عنى فى الثانية .

وانقضت سنوات وجاءت سنة ١٩٣٤ فكتبت فى «البلاغ» رسائل فى تاريخ مصر القديم كانت لى تجربة أولى، ثم جذبتنى القراءة وشواغلى الصحفية فانصرفت إليهما . ثم حانت فرصة فى سنة ١٩٣٨ فكتبت فى « البلاغ » رسائل أخرى كانت تجربة ثانية . واليوم رأيت أن أخرج كتابى هذا فأجمع فيه بعض ما كتبته من قبل، بعد تعديله وتنقيحه، ثم أضيف إليه بحوثا أخرى .

وتاريخ مصر القديم بحر خضم، لأنه تاريخ أربعة آلاف سنة أو أكثر، فليس يوفى حقه فى كتاب ولا فى كتب . وقد كتب فيه العلماء الأجانب بعد كشف اللغة المصرية فى سنة ١٨٢٢ ميلادية، مئات من الكتب[٢]، وهم إلى اليوم كلما كتب

(١) يجعل العلماء درس الآثار المصرية القديمة والتاريخ المصرى القديم علما مستقلا يسمونه « إيجبتولوجيا » نسبة الى « ايجبت » أى مصر . فكلمة «مصرولوجيا» هى إذن تسمية صحيحة للعلم الخاص بتاريخ مصر القديم .

(٢) أمامى وأنا أكتب هذه الكلمة جدول بالمؤلفات التى وضعت عن مصر القديمة وتاريخها منذ خمسين سنة فقط باللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية يصل العدد فيه إلى ما يقرب من ألف مؤلف . وهذا عن أمهات المؤلفات فكيف بغيرها .

واحد منهم وجد جديدا ، وكلما ضربت فأسه فى أديم مصر خرجت بجديد . فلا مناص من أن أكتفى فى كتابى هذا بأطراف ، وإذا أراد الله فسأتبع هـذه الأطراف بأطراف وأطراف .

*
* *

وقد قصصت قصتى هذه فى انسياقى إلى التاريخ المصرى القديم لأنى أعرف أن شيئا منها يوشك أن يكون صورة لما ينشأ عليه — مع الأسف — جميع المصريين . فهم يجهلون هذا التاريخ لأنهم لم يقرأوا منه وقت تحصيلهم العلم غير أشياء ضئيلة مبهمة ، وهم بعد وقت التحصيل لا يجدون فى هذا التاريخ مؤلفات عربية[1] تجذبهم إليه ، وتسد النقص الذى اعترى تربيتهم الأولى فيه . وهكذا ينشأ المتعلمون منا وكل الذى يعرفونه من تاريخ مصر القديم لا يزيد فى مجموعه على ما يعرفونه عن اليابان فى آسيا أو عن كندا فى أمريكا . وقد يعرفون عن انجلترا أو عن فرنسا فى ماضيها وحاضرها أكثر مما يعرفونه عن مصر . وبهذا تنقطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ، ويمتنع علينا أن نأخذ من أمسنا ليومنا وغدنا ، والانسان الذى يعيش مقطوع الصلة بأمسه كالنبات الغريب ينمو ثم يموت وكأنه لم يوجد .

والآراء متفقة على أن التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب . فاذا كان هذا التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد أمة أخرى ، فهو لأبناء هذا المجد أعظم محي للشعور

---

(١) لا يفوتنى هنا أن أشير إلى المؤلفات التى تركها العالمان أحمد كمال باشا وأحمد نجيب بك وهى مؤلفات نافعة فى ذاتها ولكنها صارت قديمة فصار الانتفاع بها محدودا . ولا يفوتنى أن الدكتور حسن كمال عرب كتاب «تاريخ مصر» للعالم (J. H. Breasted) وهو من الكتب النفيسة فى موضوعه . ولا يفوتنى أخيرا أن بعض الموظفين فى المتحف المصرى أصدروا فى السنين الأخيرة كتبا عالجوا بها نواحى من التاريخ المصرى القديم . ولكن هذا التاريخ محتاج إلى عشرات وعشرات من الكتب لا إلى هذا العدد القليل منها .

بالعزة القومية ، وأقوى ملقن للفضائل الوطنية والاجتماعية . ولعل هذا هو بعينه الذى دفع بالانجليز ، حينما كانوا مسيطرين على التعليم ، إلى أن يخرجوا منــه تاريخ مصر القديم، أو بعبارة أدق إلى أن يحيلوه فيه شبحا بغير روح . ولكن هذه السيطرة رفعت منذ سنين، وصار لنــا أن نضع كما نشاء مناهج التعليم، فحقا إنه لتقصير منــا أننا لم نعن بعد عناية جدية بسد هذا النقص المعيب .

وأنا أعرف أن علم الآثار صار يدرس فى جامعة فؤاد الأول منذ بضع سنين، وأن وزارة المعارف بعثت وقتا ما بعثــة إلى ألمــانيا تخصص أفرادها فيه ، ولكن أين هذا من العناية الواجبة بالتوسع فى تدريس التــاريخ المصرى فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، وأين هــذا من مئات المؤلفات التى يجب أن توجد فى هذا التاريخ باللغة العربية .

إن الناشئ فى انجلترا أو فى فرنسا أو فى ألمــانيا أو فى غيرها من البــلاد الراقية ينشأ وتاريخ بلاده يسايره فى كل سنة من سنى تعليمه . فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطبعت بطابع ما فى هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن، ونتولد رغبة فى محاكاة أبطاله ، وينمو تبعا لذلك الشعور بالقومية، وتربى أو تقوى فضائل الإقدام وسمو النفس ومجالدة المخاطر والميل إلى طيب الأحدوثة . ومن عجيب أمر التاريخ أنه يولد هــذه الفضائل كلها سواء أكان تاريخ مجد وبسطة فى الغنى والسلطان، أم كان تاريخ متاعب ومكاره وآلام . وقد عرفت الأمم الراقية ذلك فجعلت من تاريخها القومى أول عامل فى تربية الفضائل النفسية وإبراز صــفات الرجولة . أما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشئ منا ينشأ وهو لا يرتسم فى ذهنــه عن مصر القديمة غير خيال مبهم ، وإذا اتفق له أن عرف شيئا عنها فليس هذا الشىء سوى صورة مشوهة تختلط فيهــا الخرافات بالأخطاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصرى روحه ، ويتعذر عليه أن يتحدث إلى النفوس حديثا يقومها ويربى الفضائل فيها .



وقد ذكرت الخرافات والأخطاء التي تشوه التاريخ المصرى ، فأذكر هنا أن الخرافات هى الصورة التى يغلب أن ترتسم فى الذهن كلما ذكر المصريون القدماء ، وذلك لأن الكتاب اليونانيين والرومانيين الذين زاروا مصر وكتبوا عنها ، فى ما بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد ، شحنوا كتاباتهم بأشياء لم يفهموها فألبسوها لباس الغرابة والخرافة . مثلهم فى ذلك كمثل الذين يزورون مصر الآن من الأجانب فيدّعون عليها دعاوى لا وجود لها ، لأنهم لم يفهموا ما شاهدوه أو لأنهم يريدون أن يثيروا دهشة قرائهم بما يقصونه عليهم من المبالغات والعجائب . يضاف إلى ذلك أن المصريين أنفسهم كانوا حينما زارهم أولئك الكتاب قد سقطوا فى هوّة الضعف والجهل فصاروا ينظرون إلى أجدادهم السالفين نظرهم إلى حلم بعيد غريب ، وصار من أسهل الأشياء لديهم أن ينسجوا حول هذا الحلم نسيجا من الأوهام والخرافات . وهؤلاء المصريون هم الذين أصغى اليهم أولئك الكتاب ونقلوا أحاديثهم عن عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة، أى عن عصور كان قد مضى على الأولى منها ٣٥٠٠ سنة أو أكثر، وعلى الثانية منها ٢٥٠٠سنة أو أكثر، وعلى الثالثة منها ١٥٠٠ سنة أو أكثر، فكان من الطبيعى أن يختلط بهذه الأحاديث كثير من الأغلاط والخرافات .

وهذه الكتابات التى كتبها الكتاب اليونانيون والرومانيون أمثال هيكاتى دى ميلى وهيرودوت وسترابون وديودور الصقلى وكليان الاسكندرى وبلوترك، كانت المرجع الوحيد لمعرفة مصر القديمة منذ ضاع سر اللغة المصرية إلى أن كشفه شامپوليون الشاب ، أى مدى أربعة عشر قرنا[1] . فلم يكن العالم يعرف مصر القديمة فى مدى

(١) من سنة ٣٩١ بعد الميلاد، وهى السنة التى أصدر فيها الأمبراطور الرومانى تيودوز الأول أمره بإقفال المعابد الوثنية المصرية ومطاردة الكهنة المصريين واللغة المصرية، الى سنة ١٨٢٢ وهى السنة التى كشف فيها شامپوليون الشاب سر اللغة المصرية .

هذه المدة الطويلة إلا من خلال ما تركه أولئك الكتاب . وهكذا علقت بها عنده الخرافات المعزوة إليها ، ثم أضاف الخيال إليها خرافات أخرى ، فصارت صورة مصر لا تخطر على البال إلا خطرت معها مجموعة كبيرة من الخرافات . ولم يزل الأمر كذلك حتى كشف شامبوليون اللغة المصرية وأخذ العلماء يقرأون ما على الآثار فى مصر من النقوش وما فى أوراق البردى من الكتابات ، فيجدون فيها مصرا تختلف عن مصر التى ألف العالم صورتها المشوهة ، أربعة عشر قرنا . وقد قضت بحوث هؤلاء العلماء على جانب من هذه الصورة المشوهة وما زالت فى سبيل القضاء على جانب آخر منها .

وحينما أقول إن بحوث العلماء قضت على جانب من الصورة المشوهة ، أريد صورة مصر عند الأجانب ، لأن هؤلاء الأجانب قرأوا ويقرأون ما كتبه علماء المصرولوجيا الألمانيون والانجليز والأمريكيون والفرنسيون والايطاليون والباجيكيون ، أما مصر عند المصريين فلا تزال صورتها المشوهة على ما هى عليه ، ولا بد أن يمضى وقت قبل أن تزول . ومتى زالت فسيعرف المصريون أن المدنية المصرية التى يجعلها كثير من الباحثين أولى المدنيات جميعا ، والتى عاشت أربعين قرنا أو تزيد ، لم تقم على أساس من الخرافات والعقائد الفاسدة ، بل قامت على أساس علمى وخلق هو الذى اقتبسته منها المدنيات الأخرى بعد ذلك وأخذت تسير فى نوره وتزيد عليه .

وسأعرض لهذا الأساس العلمى والخلق فى بعض بحوث هذا الكتاب . وسأعرض أيضا لبعض ما يدعى على مصر ظلما من الخرافات والعقائد الفاسدة . ولكنى أقول هنا إن المدنية التى بنت الاهرام ، وشيدت معابد الكرنك والأقصر والدير البحرى والرمسيوم ومدينة هابو وإدفو ، ونحتت مقابر سقارة ووادى الملوك ، وخلفت تماثيل من كل نوع ما زالت تعتبر آية فى النحت والتصوير ، وصنعت الزجاج ، وصاغت الذهب والفضة والنحاس ، ووضعت أول أساس علمى

للكيمياء[1] والطب ، وكان فيها بشهادة هيرودوت أطباء متخصصون فى كل نوع من أنواع الأمراض[2] ، ووضعت التقويم الشمسى وكانت أوّل مدنية عرفت علم الهندسة

---

(١) أكثر العلماء على أن المصريين هم أول من عرف علم الكيمياء . ويرون أن كلمة « كيمياء » مشتقة من الكلمة المصرية « كيمى » التى كان المصريون يطلقونها على مصر والتى معناها الأرض السوداء . والمقصود بالأرض السوداء هنا الأرض التى انتزعها النيل من أرض الصحراء الرملية وجعلها بطميه سوداء صالحة للزراعة .

وفى هذا يقول (A. Moret) فى كتابه (Le Nil et la Civilisation) فى صفحة ٥٢٧ ما يأتى :

« إن علم العقاقير يقودنا إلى أعمال التحضير فى المعامل الكيماوية ، وها نجد أنفسنا فى ميدان مصرى محض حتى أن الكيمياء مدينة باسمها لاشتقاقه من كلمة « كيمى » التى معناها الأرض السوداء » .

(٢) نذكر هنا ما كتبه هيرودوت فى هذا . قال :

« الطب عند المصريين مقسم كما يأتى : كل طبيب يعالج مرضا واحدا لاجملة أمراض ، والأطباء يملأون كل مكان . فبعضهم لأمراض العيون ، وبعضهم لأمراض الرأس ، وبعضهم لأمراض الأسنان ، وبعضهم للأمراض الباطنية ، وبعضهم للأمراض التى لا يعرف لها مكان معين » .

وقد نقلنا هذا النص من كتاب هيرودوت عن مصر ، وهو الجزء الثانى من التاريخ العام الذى وضعه . والترجمة التى اعتمدنا عليها هنا والتى سنعتمد عليها فى كل ما سننقله عن هيرودوت فى كتابنا هذا هى الترجمة الفرنسية التى أصدرها فى سنة ١٩٣٦ (Ph. E. Legrand) الأستاذ بجامعة ليون بفرنسا . وهى آخر الترجمات . وقد طبعها صاحبها وطبع الأصل اليونانى معها صفحة فصفحة ليمكن الذين يعرفون اللغة اليونانية القديمة من مقابلة إحداهما بالأخرى .

والفقرة التى عربناها هنا هى الفقرة ٨٤ ص ١٢٠

ويجب أن نقول هنا إن ماسبيرو عرض لهذا الموضوع فى كتابه : (Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient) فأظهر شكه فى أن يكون الطب قد تقدم عند المصريين إلى هذا الحد ولكنه لم يقدم دليلا ينقض به هذه الرواية التى روى بها هيرودوت ما شاهده بعينه . ولعل ماسبيرو بنى شكه هذا على أوراق البردى التى كانت معروفة ومترجمة قبل وفاته ، والتى كانت منها أوراق خاصة بالطب والسحر والتعزيم ، ولم تكن منها الورقة التى سميت « ورقة نيويورك » أو « ورقة إدوين سميث » . ولو أن ماسبيرو عاش حتى اطلع على ترجمة هذه الورقة لاعترف بتقدم الطب عند المصريين ، وبأنه تقدم على أساس علمى كما أثبت ذلك برستيد الذى ترجم تلك الورقة ودرسها درسا مستفيضا بعد وفاة ماسبيرو ببضع سنين .

و برعت فيه[١]، وأوّل مدنية اهتدت الى الكتابة، وأوّل مدنية صنعت الورق وكتبت عليه، أقول إن هذه المدنيــة التى عرفت كل هذا، وعرفت الله والآخرة والثواب والعقاب والجنة والنار، لم يكن لها أن توجد ولا أن تعيش أكثر من أربعين قرنا، وهى قائمة على أساس من الخرافات، بل وجدت وعاشت هــذه القرون الطويله لأنها قامت على أساس علمى وخلقى صحيح .



ويحسن أن أسارع هنا إلى كلمة فى شأن الخرافات والعقائد الفاسدة . فلست أنكر أن هناك آراء وعقائد كان المصريون القــدماء يظنونها صحيحة، والآن — أى بعد بضعة آلاف من السنين تقدّمت فيها خبرة الانسان بالحياة وتقدّمت العلوم — يتضح لنا أنها غير صحيحة . لا أنكر هذا ، وهو لا يعيب مصر القديمة ، وقد وجد أكثر منه فى المدنيات التى عاصرتها ، بل فى المدنيات التى تلتها ، ولا يزال بعضــه موجودا إلى اليوم . والأمة التى تنشئ أوّل حضارة فى العالم هى أمة يبدو العقل فيها فى حالة الطفولة ثم يتدرّج فى النمو خطوة فخطوة . فليس يغض من مصر القــديمة

(١) تكلم هيرودوت فى الفقرة ١٠٩ من الجزء الثانى من تاريخه العـام عن إنشاء الترع والقنوات فى مصر وتقسيم الأراضى الزراعية فيها ثم قال :

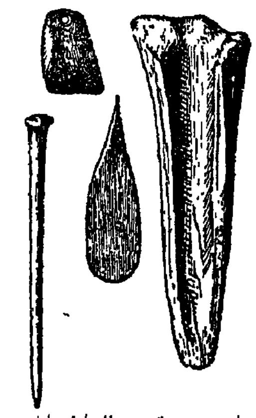
«وهذا فى رأيى هو السبب فى اختراع علم الهندسة الذى نقله اليونانيون إلى بلادهم» . ويؤيد مورى هذا الرأى فى كتابه (Le Nil et la Civilisation) ص ٥١٩ ثم يقول :

«يؤخذ من كلام هيرودوت أن علم الهندســة نشأ فى مصر من الضرورة التى قضت بتقسيم الأراضى الزراعيــة فى مصر تقسيما منظما . وعلى كل حال إن النظام الاجتماعى فى وادى النيــل قضى منذ العصور الأولى بايجاد قواعد ثابتة تكون دعامة للقاسات» .

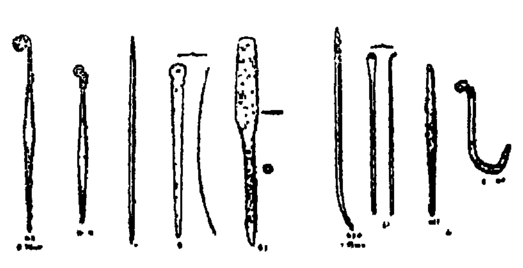
ومن هــذا الرأى أيضا العالم الانجليزى (Griffith) فى بحث قدمه فى ســنة ١٨٩٢ للجمعيــة الأثرية فى لندن .

ومن هذا الرأى أيضا العالم الألمـانى (Brugsh) فى كتابه المصرولوجيه ص ٣٧٠ وعلماء آخرون .

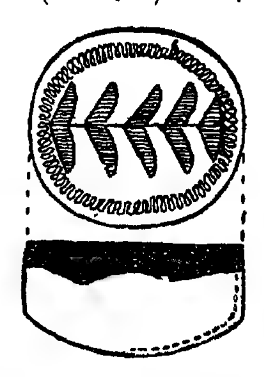
(لوحـــة رقـــم ١)

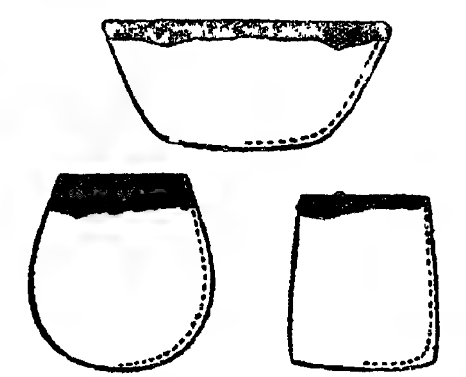


أدوات مصنوعة من عظام الحيوانات وحجمها هنا يعادل $\frac{٢}{٥}$ من حجمها الطبيعي . وقد وجدت في حفائر مرمدة بني سلامة (أنظر ص ٥٤)

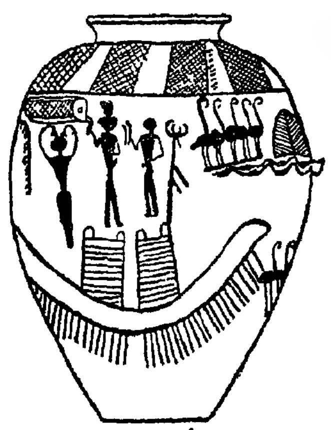


أدوات من النحاس وجدت في مقابر نقادة وترجع إلى ما قبل عصر الأسر . وهي دبابيس و إبر وصنارة (أنظر ص ٥٤ و ٥٥)





أدوات من الفخار ترجع إلى حضارة البداري وحجمها هنا هو سدس حجمها الطبيعي (أنظر ص ٥٤ و ٥٥)



آنية من الفخار ترجع إلى ما قبل عصر الأسر وقد زينت برسوم مختلفة منها طيور وأشخاص ثم رسم سفينة تحمل شارة على ساريتها

أنها مرت بحالة الطفولة ، وإنما يرفعها أنها لم تجمد عليها ولم تقف فيها طويلا ، بل خرجت منها قبل غيرها ، وكانت خطواتها فى هذا الخروج جبارة ، فكانت لذلك هى التى ظهرت فيها التباشير الأولى لتفتح العقل الانسانى ، وكانت هى التى نما فيها هذا العقل بعد ذلك نموّا قويا حتى استطاعت المدنيات التالية أن تأخذ منه وتزيد فى خطواته .

فلمصر القديمة آراء وعقائد يتضح لنا الآن أنها غير صحيحة ، هذا لا شك فيه [1] ، ولكن مما لا شك فيه أيضا أن هذه الآراء والعقائد شىء ومايدعى عليها من الخرافات والأوهام شىء آخر . وبحسبى أن أذكر هنا بعض الأمثلة بايجاز ، وسأعالج أمثلة أخرى فى بحوثى التالية .

---

(١) أكثر ما تظهر فيه هذه الآراء الفاسدة عقائدهم الدينية . ولكن عذرهم فيها أنهم كانوا فى دور الطفولة كما قلنا . وقد اتجهت عقولهم إلى البحث فى الكون وخلقه وخالقه فكان من الضرورى أن يخطئوا فى خلال تلمسهم الحقيقة . وتاريخ الانسان فى بحثه عن الحقائق العلمية يدل على أنه قلما اهتدى إلى واحدة منها دفعة واحدة . وإنما هو يبدأ فيسير فى طريق مظلم فيضل يمينا وشمالا . وقد يعثر فى خلال ضلاله هذا على أطراف من الحقيقة التى يطلبها . ثم لا يزال يواصل البحث إلى أن يستقيم له الطريق ويبين النور فيصل إلى غرضه . وكلما كان هذا الغرض عظيما كان الطريق إليه شاقا وطويلا .

وقد جرت هذه السنة على المصريين فى بحثهم فى الكون وخلقه وخالقه . وكان الطريق أمامهم شديد الظلمة ، وكانت عقولهم لا تزال فى بداية التفتح للبحث العلمى والفلسفى ، فأخطأوا تارة يمينا وتارة شمالا ، ولكنهم اهتدوا فى خلال خطأهم هذا إلى حقائق لا ينكرها عليهم منكر . منها أن روح الانسان باقية بعد الموت وأن جسمه هو الذى يفنى . وقد رتبوا على ذلك أنه يبعث بعد الموت ويحاسب على ما قدّم فى دنياه من خير أو شر ، فيجزى على الخير بالثواب وعلى الشر بالعقاب . وبرغم تعدّد معبوداتهم ، وعبادتهم الأصنام ، وتقديسهم بعض الحيوانات ، وجدت عندهم فكرة الوحدانية . وفى النظرية الدينية التى شرعتها مدرسة عين شمس أو هليوبوليس ما يمكن أن يكون صورة من صور هذه الفكرة . وعبادة أتون التى دعا إليها الملك أمينوفيس الرابع أو أخناتون (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة) هى أيضا صورة من صور هذه الفكرة .

*
* *

نقل هيرودوت عن موظف مصرى فى معبد المعبودة « نيت » فى صا الحجر أن النيل يولد بين « سيين » و « ايلفنتين »(١) وأن شطرا من مائه يجرى إلى مصر والشطر الآخر إلى النوبة(٢) . وقد أخذ بعض المؤرخين هذا القول قضية مسلما بها

= ومن يقرأ نظرية مدرسة هليو بوليس (وكانت تسمى باللغة المصرية اون) فى كيفية خلق الكون لايسعه إلا أن يجد شبها غير قليل بينها و بين ما فى الأصحاحين الأول والثانى من سفر التكوين فى كتاب العهد القديم المسمى بالتوراة .

وفى مسألة الوحدانية يقول أحمد كمال باشا فى كتابه «الحضارة القديمة» ص ١١٠ :

« ... ... قد اجتهدوا لحولوا التسبيع الأصلى إلى تثليث ثم وحدوا كل تثليث اتباعا لمذهب الاشمونيين بأن ضموا الأب إلى ابنه و بالعكس أو ضموه إلى الزوجة فصارا ذاتا واحدة . و بذلك أدخلوا بعض آحاد كل تثليث فى بعض وجعلوها معبودا واحدا حالا فى ثلاثة أقانيم متى أراودا رآسته على التسبيع ... ... وكما حدث فى إدخال التثليث فى التسبيع حدث فى نفس التثليث بأن ضموا المعبودات الثلاثة بعضها لبعض فصارت معبودا واحدا . و بذلك أوجدوا الوحدانية . وعلى هذا نرى أن المصريين كانوا سائرين من طبيعتهم إلى إدراك الوحدانية المقدسة ... ... ومما تقدم يظهر أن علماء اللاهوت اشتغلوا من قديم الزمان بحصر صفات البارى فى معبود واحد بعد أن فرقت أسلافهم بينها » .

ومثل هذا القول قاله ماسبيرو أيضا وقاله كثير من العلماء .

فأنت ترى من ذلك أن علماء اللاهوت المصريين قالوا فى عقيدة التثليث بما يقرب مما يقوله فيها الآن علماء اللاهوت المسيحيون .

غير أن العلماء المصريين لم يجعلوا الوحدانية لاله واحد اعترفوا به جميعا ، بل جعلها كل فريق منهم لمعبوده الذى كان يطلق عليه هذا الوصف . فهليو بوليس جعلته لأتوم رع ، ومنفيس جعلته لبتاح ، وهرمو بوليس جعلته لتوت ، وطيبة جعلته لأمون ، وهكذا . ثم جاء أخناتون فنادى بالوحدانية لمعبوده أتون .

وكان المصريون يعتقدون كما نعتقد نحن الآن أن طريقة الخلق هى أن يقول الله للشىء كن فيكون .

وسيأتى فى الهامش رقم (٢) للصفحة ٢٩ حين ذكر نشيد النيل بيان التسبيع الذى أشير اليه هنا .

(١) سيين كانت ضاحية من ضواحى ايلفنتين . وايلفنتين مدينة قديمة كانت بجانب المكان الذى تقوم فيه الآن مدينة أسوان ، وكانت عاصمة لإقليم يسمى باسمها .

(٢) هذا تعريب ما كتبه هيرودوت فى ذلك نقلا عن موظف مصرى قال إنه كاتب معبد «أتينا» =

وزعموا أنه كان بعض مايعتقده المصريون فى منابع النيل . ومن الواضح مع ذلك أن هذا القول ليس سوى خرافة ما كانت تستحق أن يعنى بها هيرودوت ويثبتها فى كتابه ، وخاصة بعد أن قال هو نفسه « إنه يميل إلى الظن بأن ذلك الموظف الذى نقل عنه هذا القول كان يمزح » . إذ المصريون الذين كانت سيين وايلفنتين من مدنهم كانوا يوقنون من غير شك أن النيل لايجرى شطر منه إلى مصر وشطر منه إلى النوبة ، بل يأتى من النوبة جاريا إلى مصر . وقد أرسل المصريون قوافلهم التجارية وحملاتهم العسكرية وسفنهم التجارية والحربية إلى النوبة ، وإلى ما وراء النوبة ، منذ الدولة القديمة ، ووصلت فتوحاتهم فى عهد الدولة الحديثة إلى ما وراء الشلال الرابع . ولا تزال آثارهم فى هذه المنطقة قائمة يكشف عنها العلماء ويدرسونها . فهم إذن ركبوا النيل إلى ماوراء الشلال الرابع ، فالادعاء عليهم بأنهم كانوا يعتقدون أنه يولد عند أسوان هو ادعاء زور ، والاعتماد فيه على حديث قال هيرودوت إنه سمعه من موظف مصرى هو اعتماد على سند ساقط .

وقد أراد بعض المؤرخين أن يتأولوا هذا الذى رواه هيرودوت فقالوا إن ولادة النيل عند ايلفنتين كانت اعتقادا للمصريين قبل أن يفتحوا النوبة ويركبوا النيل إلى ما وراء الشلال الرابع . ولكن هذا التأويل لا يستقيم ، لأن هيرودوت لم يقدم

= فى صا الحجر . وأتينا هو الاسم الذى يطلقه اليونانيون على المعبودة « نيت » التى كانت تعبد فى صا الحجر وفى إسنا . قال هيرودوت فى الفقرة ٢٨ من كتابه :

« يقال أن بين سيين ، وهى إحدى المدن التابعة لقسم طيبة ، وبين ايلفنتين ، جبلين لكل منهما قمة قائمة كالسن . وأحد هذين الجبلين يسمى كروفى والثانى يسمى سوفى . وهما اللذان يقال إن النيل ينبع من هاويات واقعة بينهما . وشطر من الماء يجرى نحو مصر وريح الشمال بينما الشطر الآخر يجرى نحو إتيوبيا وريح الجنوب .

« ومما قاله لى ذلك الموظف أن الملك بسامتيك أراد أن يعرف عمق هذه الهاويات فصنع حبلا طوله عدة ألوف من الأورييى ثم دلاه فيها فلم يصل إلى قاعها » .

والأورييى مقياس يونانى قديم يعادل مترا و ٨٥ سنتيمترا .

إلى مصر فى مفتتح الحضارة المصرية، بل قدم إليها فى مختتمها، أى بعد أن كان المصريون قد فتحوا النوبة فى عصر الدولة القديمة ووصلوا إلى ما وراء الشلال الرابع فى عصر الدولتين الوسطى والحديثة . فالموظف الذى نقل عنه هيرودوت مانقله لايمكن أن يكون إلا جاهلا أو مخرفا، وهيرودوت لا يدل بنقله هذا التخريف إلا على أنه كان يلتقط كل ما يقال له بغير احتياط ولا تمحيص (١) .



المعبـود النيـل

فى هذه الصورة كانوا يمثلون المعبود النيـل . وهى صورة رجل ممتلئ الجسم تظهر عليـه سيما النيـل والغنى . وثدياه كبيران كأنهما ثديا امرأة . وفى بعض الأحيـان كانوا يرسمون المـاء خارجا منهما . وأمامه مائدة للقرابين علقت فيها أنواع مختلفة من الزهور والأسماك والطيور . ومن خلفه كاهن يقدم له رسوم العبادة (أنظر ص ٢٣) .

---

(١) تدل الآثار على أن المصريين بدأوا يغزون النوبة فى عهد الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة (فى نحو سنة ٢٨٩٠ ق٠م) . ثم غزوها مرة ثانية فى عهد الملك سنفرو أحد ملوك الأسرة الرابعة =

وكل الذى نجح فيه هيرودوت باثباته هذه الخرافة، هو أنه كذب نفسه بنفسه فى غير هذا المكان من كتابه، إذ قال إنه وصل فى تجواله فى مصر إلى ايلفنتين[1]، لأنه لو كان قد وصل إليها وشاهد مجرى النيل عندها لعلم أنه ليس له مجريان متعارضان، أحدهما يتجه إلى مصر والثانى إلى النوبة، و إذن لما عنى بأن يسجل تلك الخرافة التى يعزوها إلى المصريين[2].

على أننا نحب أن نكشف هنا عن المصدر الذى نرجح أن تكون هذه الخرافة قد انبعثت منه، فقد ورد فى بعض النقوش التى وجدت على حوائط

= وعادوا منها بـ ٧٠٠٠ أسير و ٢٠٠٠٠ رأس من الحيوانات . ثم غزاها الملك أوناس أحد ملوك الأسرة الخامسة مرة ثالثة . ثم صارت فى عهد الملك ببى الأوّل أحد ملوك الأسرة السادسة مستعمرة مصرية تصل حدودها إلى ناباتا و إلى مروى بعد الشلال الرابع . فهذه هى فتوحاتهم للنوبة فى عهد الدولة القديمة . أما فى عهد الدولة الوسطى فقد توالت فتوحاتهم لها فى زمن الأسرة الثانية عشرة والأسر التالية لها . وانتقلت إليها الحضارة المصرية فى عهد الدولة الحديثة حتى كان أمون يعبد فى عاصمتها ناباتا كما كان يعبد فى طيبة . و يقول أحمد كمال باشا إن المصريين وصلوا الى الخرطوم (ص ٣٣٧ من كتابه الحضارة القديمة) و إلى ما وراء الخرطوم فى عهد الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة وكوّنوا عند مجمع النيل الأبيض والنيل الأزرق مملكة مصرية . ولكنى لم أجد سندا لأكثر من وصولهم إلى ما وراء الشلال الرابع بقليل، أى إلى قريب مما يسمى الآن بلدة أبى حماد .

وكانت تلى ذلك إلى الجنوب منطقة لم تحتلها الجيوش المصرية، ولكن النفوذ المصرى كان سائدا فيها . وفى عهد الأسرة الثالثة والعشرين (حوالى سنة ٧٣٠ ق . م) كانت مصر قد ضعفت وكانت ناباتا قد صارت مملكة مستقلة قوية فغزت مصر وحكمتها مدة من الزمن .

(١) قال هيرودوت فى الفقرة ٢٩ من كتابه :

« وصلت فى تجوالى إلى مدينة ايلفنتين، فما أكتبه وصفا لمصر، إلى هذه المدينة، رأيته بعينى . أما ما أكتبه وصفا لما وراء ايلفنتين فهو مبنى على السماع وعلى ماوصل إلى من الأخبار» .

(٢) يرى هذا الرأى أيضا ليجران (Ph. E. Legrand) الأستاذ بجامعة ليون ص ٢٥ و ٢٦ من المقدّمة التى وضعها للكتاب الثانى من تاريخ هيرودوت :

الأهرام أناشيد موجهة الى النيل ومنها نشيد يذكر قدوم فيضانه إلى مصر فيقول :

« إن ماء الحياة الذى فى السماء يأتى . إن ماء الحياة الذى فى الأرض يأتى . فالسماء تلتهب (يريد تبرق) من أجلك (يخاطب النيل) . والأرض تزلزل من أجل ولادتك . لقد انفتحت الصخرتان وظهر المعبود . إن المعبود يضع يده على جسمه (يريد أنه يضع يده على أرض مصر) » .

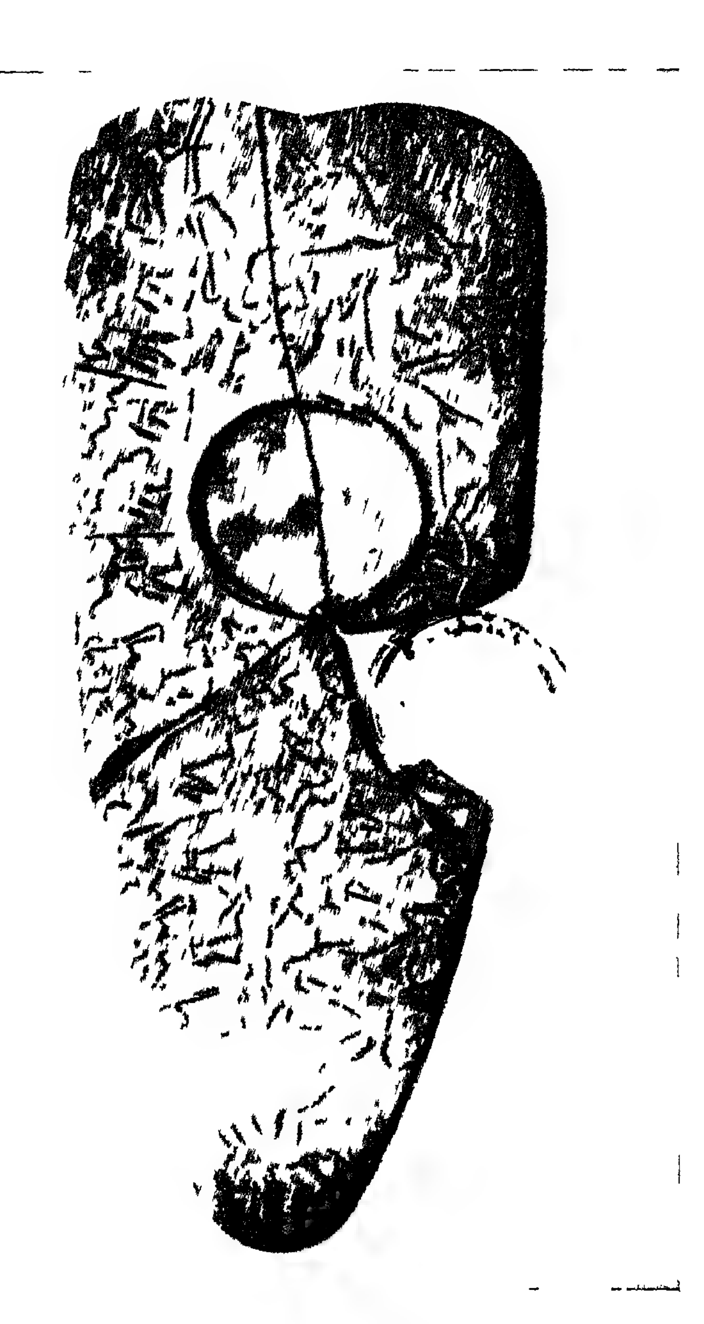
فالصخرتان اللتان يقال هنا إنهما انفتحتا وظهر المعبود من بينهما قائمتان عند ايلفنتين . وأغلب الظن أن مراد الشاعر الذى وضع هذا النشيد أن النيل يدخل حدود مصر عند هاتين الصخرتين فكأنه يولد عندهما بالنسبة لها . وهذا تعبير شعرى جائز . والذين قرأوا كتابات المصريين فى ذلك العهد وما بعده يعرفون أنهم كانوا شغوفين بالمعانى المجازية . فليس يبعد أن يكون ما كتبه الشاعر هنا جاريا هذا المجرى ، والجملة التى نقلناها عنه هنا تدل كل كلمة منها على إمعانه فى هذا الضرب من التخيل .

أما إذا قلنا إن الشاعر لم يرد معنى مجازيا ، وإنما أراد معنى حقيقيا كان المصريون يعتقدونه ، فنلاحظ أولا أن الشاعر اكتفى بأن يقول إن النيل يظهر من بين صخرتين عند ايلفنتين ، ولم يقل شيئا من السخافة التى نقلها هيرودوت وهى أن شطرا منه يجرى إلى مصر وشطرا يجرى إلى النوبة ، ونلاحظ ثانيا أن جميع علماء الآثار المصرية متفقون على أن نقوش الأهرام تسجل أساطير كانت عامة المصريين تعتقدها فيما قبل التاريخ ، أى حينما كانت المدنية المصرية تحبو كما يحبو الطفل ، أما ما ذكره هيرودوت فقد نقله عن موظف فى وقت زيارته مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد . فبين أسطورة الأهرام ورواية هيرودوت خمسة آلاف سنة على الأقل ، وهذه مدة من الزمن تتبدل فيها أعظم الأساطير وتتغير أقوى الآراء والمعتقدات .



ولما زار هيرودوت مصر وطاف فى مدنها كان مما لفت نظره أن للمرأة المصرية من المقام فى الأسرة ، والاحترام فى المجتمع ، والحقوق فى المعاملات ،

(لوحـــة رقـــم ٢)



صـيد الأسـود (اقرأ ص ٢١١)



والحرية فى غشيان الأسـواق وفى البيع والشراء، ما لا مثيل له فى بلاده، فكتب يقول إن الرجل فى مصر يباشر شؤون البيت والمرأة تباشر الشؤون خارج البيت [1] .
ولم يكن هيرودوت صادقا فى هذا ولكنه رأى شيئا لم يألفه فأخطأ فى فهمه وتفسيره .

---

(١) إليك ما كتبه فى ذلك هيرودوت فى الفقرة ٣٥ من كتابه . قال :

« إن المصريين الذين يعيشون فى مناخ لا نظير له ، وحول نهر تختلف طبيعته عن طبيعة الأنهار الأخرى ، جروا فى كل شىء تقريبا على أخلاق وعادات تخالف أخلاق غيرهم من النـاس وعاداتهم . فالمرأة لديهم هى التى تذهب إلى السوق وتشترى الأشياء بينما الرجل يقعد فى البيت و ينسج » .

وقد خلط هيرودوت بعد ذلك أشياء صحيحة بأشياء غير صحيحة فقال :

« وفى البـلاد الأخرى يقيمون الشبكة إلى أعلى لينسجوا ، أما فى مصر فانهم يجعلونها إلى أسفل . والرجال فى مصر يحملون الأحمال على رؤوسهم بينما النسـاء يحملنها على أكتافهن . والمرأة تبـول واقفة . والرجل يبول قاعدا القرفصاء . وهم يتبرزون فى البيوت و يأكلون فى الشوارع . والعـلة عندهم فى ذلك أن الأعمال الضرورية التى تخدش الآداب ينبغى أن تعمـل سرا ، أما الأعمـال التى لا تخدش الآداب فينبغى أن تعمل جهـرا . ولا توجد امرأة تباشر الكهانة لمعبود أو معبودة ، وإنمـا الرجال هم الكهان للمعبودات جميعا . وليس الابن ملزما بأن يعول أبويه ، فله أن يفعل وألا يفعل ، أما البنت فلزمة ولو لم ترد . والكهان فى البـلاد الأخرى يرسلون شعورهم ، ولكنهم فى مصر يحلقونها . ومن عادات الشعوب الأخرى فى الحداد أن يحلق أهـل الميت شعور رؤوسهم أما المصريون فيرسلونها بعد أن كانت محلوقة . وغير المصريين يقيمون بعيـدين عن الحيوانات والمصريون يقيمون معهـا . وغيرهم يعيشون على القمح والشعير وهم يجعلون طعامهم من نبات «الأوليرا» و بعضهم يسميه «ظيا» — (لم يعرف العلماء هذا النوع من النبات وقد ذهب بعضهم إلى أن المقصود به الذرة) — والمصريون يعجنون الخبز بأرجلهم و يعجنون الطين (الذى تصنع منه الأوانى) بأيديهم . وهم يجمعون روث البهائم . والرجال فى جميع الشعوب يتركون أعضاءهم التناسلية على حالتها الطبيعية إلا المصريين والذين تعـلموا منهم فانهم يختتنون . والرجل فى مصر يلبس ثوبين والمرأة تلبس ثوبا واحدا . والعـادة عند جميع الأمم أن تثبت الحلقات والحبال التى لقلوع المراكب فى الظاهر من افريز المركب ، إلا فى مصر فأنهـا تثبت فى باطن الافـريز . والإغريق يكتبون و يرصـون الحصى الذى يستعملونه فى الحساب من الشمال إلى اليمين بينما المصريون يكتبون و يحسبون من اليمين إلى الشمال . وهم يقولون إنهم أصحاب اليمين وغيرهم أصحاب الشمال . ولهم نوعان من الكتابة أحدهما مقدس والثانى شعبى » .

==



وعثر العلماء منذ سنين على ورقة بردى يظن أنها كتبت فى عهد رمسيس الثانى وفيها أن بعض الأيام والساعات ميمون وبعضها الآخر مشؤوم . فيوم ٤ طوبه

= انتهى ما كتبه هيرودوت فى هذا . وكل الذين درسوا التاريخ المصرى القديم، كما دلت عليه النقوش وأوراق البردى، لا كما دلت عليه كتب هيرودوت وغيره من الكتاب اليونانيين والرومانيين، يعرفون إلى أى حد خلط هيرودوت فى أقواله هذه فمزج حقائق قليلة بأخطاء كثيرة . ويكاد هيرودوت لم يقع على حقائق إلا فى قوله إن المصريين يختتنون وإنهم هم الذين علموا غيرهم الاختتان، ثم فى قوله إن كهنتهم يحلقون شعورهم، ثم فى قوله إنهم يرسلون شعورهم فى الحداد، أما فيما عدا ذلك فليس إلا الخطأ الظاهر والخلط البين . ولهذا ولأشياء أخرى قال الذين بحثوا مزاعم هيرودوت هذه إنه لم يدرس ما شاهده فى مصر درسا يمكن الركون إليه . والتمس له بعضهم عذرا فقالوا إنه لم يختلط بالمجتمع المصرى بل رأى بعض السوقة فى الطرق فشاهد من أفرادهم مناظر شاذة فحكم بها على المجموع . مثله فى ذلك كمثل كثير من السياح الذين يفدون إلى مصر فى هذه الأيام .

وما دمنا قد ذكرنا هذا، يحسن أن نذكر كيف تظهر حالة المجتمع المصرى على ضوء الآثار التى خلفها المصريون، لا على ضوء ما كتبه هيرودوت أو غيره ممن لم يفهموهم . ونستند فى هذا إلى شهادة عالم انجليزى هو الأستاذ ارثر ويجل Arthur Weigall أحد كبار الموظفين السابقين فى مصلحة الآثار المصرية، فقد لخص فى كتابه الذى ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان : Histoire de l'Ancienne Egypte. وطبع بباريس فى سنة ١٩٣٥ ص١٥٧ مادلت عليه الآثار من مظاهر الحياة الاجتماعية المصرية فى عهد الأسرة الثامنة عشرة والأسر التى تلتها فقال :

« كانت الحياة فى ذلك العهد ناعمة بالغة حدا بعيدا من التأنق، حتى ليدهشنا ما نراه فيها من أوجه الشبه بالحياة فى عصرنا هذا الحاضر . فقد كان أهل الطبقات العليا ينامون على أسرة ذات أغطية ووسائد محشوة بالريش تشبه أغطيتنا ووسائدنا فى هذا العصر شبها كبيرا . وكانوا يجلسون مثلنا على كراسى محشوة بالشعر . وكانت الغرف تضاء بمصابيح زيتية، تعكس ضوءها حيطان مكسوة بالمرمر الأبيض الشفاف . وكان النساء يضعن الدهان الأحمر فى شفاههن وخدودهن . وكن يتكحلن بالكحل الأسود ويصبغن شعورهن . أما الرجال فكانوا يحلقون شعورهم بأمواس من المعدن . وكان من المألوف أن يعنى الرجال عناية خاصة بتنظيف أظافر أيديهم وأقدامهم ثم بتسويتها . وكان الأطفال يلعبون بالعرائس من القماش، وبالأطواق من المعدن، وبالكرات المختلفة، كما كانوا يلعبون ببهلوانات ذات خيوط تحرك بها أجزاؤها . وفى المدرسة كان هؤلاء الأطفال يتعلمون كما يتعلم أطفالنا الآن القراءة والكتابة والحساب .

« وكان الرجال يلبسون قفازات حين يخرجون من بيوتهم . وكانوا إذا شعروا بالظمأ فى وقت الحر تناولوا مرطبات بواسطة غابة فارغة الجوف كغابة القش التى نشرب بها نحن الآن . وكانوا إذا عادوا إلى بيوتهم غسلوا أيديهم فى أحواض وبأباريق كالتى نستعملها فى عصرنا هذا . =

طيب طيب طيب، وكل شيء نظرته فيـه يكون ميمونا ، وكل من ولد فيه يموت شيخا كبيرا . ويوم ٥ طوبه شؤم شؤم شؤم ، فلا يجتمع فيه بامرأة وقت ظهور

= «وفى الحفلات كان نافخون ينفخون فى نفر طويلة من الفضة . أما المدعوون فكانوا يتمتعون بمشاهدة الرقص وسماع الغناء والاصغاء إلى موسيقى مؤلفة من قيثارات ونايات ونقارات وساجات وطبول . وكانت لهم ألعاب يتسلى بها الرجال والنساء فى البيوت منها الضامة والزهر وألعاب أخرى من ألعاب الاجتماعات الخاصة .

«تلك أمثلة قليلة ذكرناها هنا اتفاقا ، ومن غير أن نفرد للوضوع بحثا خاصا ؛ وهى تكفى لاظهار أن المصريين فى ذلك العصر لم يكونوا على الطباع الغريبة التى نسبها إليهـم بعض الكتاب . نعم إنهم بما كانوا يضعونه على رؤوسهم من الشعور المستعارة ، وبما كانوا يلبسونه من الملابس المختلفة المتداخلة ، ثم بما كانوا يأخذون به أنفسهم من الآداب والتقاليد الجمـة ، بهذا كله يظهرون أمام أعيننا عنـد النظرة الأولى غرباء عنا ، كأنهم صينيون أو يابانيون من أهل الجيل الغـابر ، ولكن النظرة الفاحصة تنطق بأن عاداتهم قريبة كل القرب من عقلنا الغربى ، وان أفكارهم متصلة بأفكارنا إلى حد بعيد فى بعض الأحيان » .

هذه هى شهادة الحق التى كتبها أرثر ويجل ، وهى ترسم صورة للمصريين غير الصورة المزيفة التى رسمها هيرودوت . وقد طعن نفس مترجم هيرودوت من اليونانية الى الفرنسية (Ph. E. Legrand) فى الصورة التى رسمها هيرودوت للمصريين وحكم منها بأنه لم يختلط بالمجتمع المصرى (ص ٣٠ و ٣٥ من مقدمة كتاب هيرودوت) .

وقد ذكر هيرودوت فيما نقلناه عنه أنه «لا توجد امرأة تباشر الكهانة لمعبود أو معبودة وإنما الرجال هم الكهان للمعبودات جميعا» . وهذا خطأ ، فقد دلت الآثار على أن النساء كن يكهن للمعبودتين «نيت» و«هاتور» ولمعبودات أخرى . كما دلت الآثار على أنه كانت توجد فى معبد أمون فى طيبة طوائف من النساء ملحقات به فبعضهن للرقص أمام المعبود فى مواكبه وحفلاته وبعضهن للغناء وبعضهن للضرب على آلات موسيقية وبعضهن للكهانة . وكانت كبيرة الكاهنات تلقب بالرئيسة العليا لسيدات أمون أو بزوجة أمون ، وهى فى الغالب الملكة أو بنت الملك أو زوجة الكاهن الأعلى أو أرملته . وفى عهد الأسرة الثانية والعشرين صارت زوجة أمون حاكمة لطيبة فصارت ذات سلطة إدارية واسعة . واستمر هذا التقليد إلى أن دخل الفرس مصر فى سنة ٥٢٥ ق . م . وكانت زوجة أمون حينذاك بنت بسماتيك الثالث .

على أن من الإنصاف لهيرودوت أن نذكر أنه عاد بعد كلامه الذى أوردناه فقال فى وصف المصريين :

« إن القوم الذين هم أشدّ الناس استمساكا بالعقائد الدينية (يريد المصريين) يتبعون القواعد الآتية :

« فهم جميعا ، لا فريق منهم دون فريق ، يشربون فى أوان من البرنز ينظفونها كل يوم تنظيفا دقيقا . وهم يلبسون ملابس من الكتان يعتنون دائما بغسلها اعتناء كبيرا . وهم يختتنون رغبة فى النظافة لأنهم يرون أن النظافة خير للجسم . وكهنتهم يحلقون أجسامهم مرة كل يومين حتى لا تعلق بهم أية حشرة وهم يخدمون معبوداتهم . ولا يلبس هؤلاء الكهنة غير لباس من الكتان وأحذية مصنوعة من نبات البردى . ومن المحظور عليهم أن يلبسوا ملابس من قماش آخر وأحذية من نوع آخر . وهم يغتسلون بالماء البارد مرتين بالنهار ومرتين بالليل » .

القمر ، وآحترس فيه من وقوعك فى النار التى توقد فى دارك . ويوم ٨ طوبه طيب طيب طيب ، كل ما نظرته فيه عيناك تعطيك إياه المعبودات ، وفيه يشفى المرضى . ومن يولد يوم ٤ أو ٥ أو ٦ بابه يموت بالحمى الاجامية أو بسبب العشق



لوحة محفوظة فى القسم المصرى من متحف برلين

وهى تمثل جنديا سوريا أراد أن يشرب شرابا فأعطاه الخادم المصرى غابة يشرب بها (أطرص ١٨)

أو بسبب السكر . ومن يولد فى ٢٣ كيهك يلدغه ثعبان فيقتله . ومن يولد فى ١٩ أو ٢٩ كيهك يعيش طويلا ويمضى حياته فى لذة وسرور واحترام... الخ[١] .

ولا أمضى إلى أكثر من هذا فى اقتباس مافى ورقة البردى هذه لأنى لا أفتح هنا باب بحث خاص فيها، ولكنى أقول إن كثيرا من الباحثين لم يكادوا يقفون على هذه « التوقيعات » حتى ذهبوا من التخصيص إلى التعميم وحكموا بما فيها على المصريين . وحينئذ لم تبق هذه الخرافات معزوّة إلى كاتبها، بل صارت عقائد كان المصريون يعتقدونها أجمعين . بهذا قال علماء من أمثال ماسبرو[٢] وأحمد كمال باشا[٣] وغيرهما ممن لا ينكر أحد فضلهم فى خدمة التاريخ المصرى وإظهار فضائله . وأنا أخالف أصحاب هذا القول وأرى أنه يكون عجيبا إلى أقصى حدود العجب أن تستمر المدنية المصرية أكثر من ثلاثة آلاف سنة ثم يبقى المصريون على اعتقادهم أن من يولد فى يوم ٤ طوبه يموت شيخا ومن يولد فى يوم ٢٣ كيهك يموت بأنياب تمساح ومن يولد فى يوم ٢٧ كيهك يموت بلدغة ثعبان، وغير ذلك من التقديرات التى تتناول أكثر أيام السنة، كأنما ثلاثة آلاف سنة لم تكف لإقناعهم بأن هذه التقديرات حساب غير صحيح .

والأمر فى هذه التقديرات بعد ذلك هين، فمثلها موجود بيننا فى مصر، وموجود فى أوربا، إلى اليوم . وهاءنذا أفتح تقويم « طوالع الملوك » لسنة ١٩٣٦ فأجد فيه ما يأتى :

الثلاثاء ٥ مايو يوم جيد لمقابلة الحكام .

الخميس ١١ يونيه يوم جيد لتجار البحر .

---

(١) ورقة البردى هذه موجودة فى القسم المصرى من المتحف البريطانى وتسمى ورقة ساليير (Sallier) رقم ٤ . وأول من ترجمها العالم شاباس (Chabas) .

(٢) كتاب (Causeries d'Egypte) من ص ١٤٩ الى ص ١٥٨

(٣) كتاب الحضارة القديمة جزء أول من ص ١١٦ الى ص ١١٨

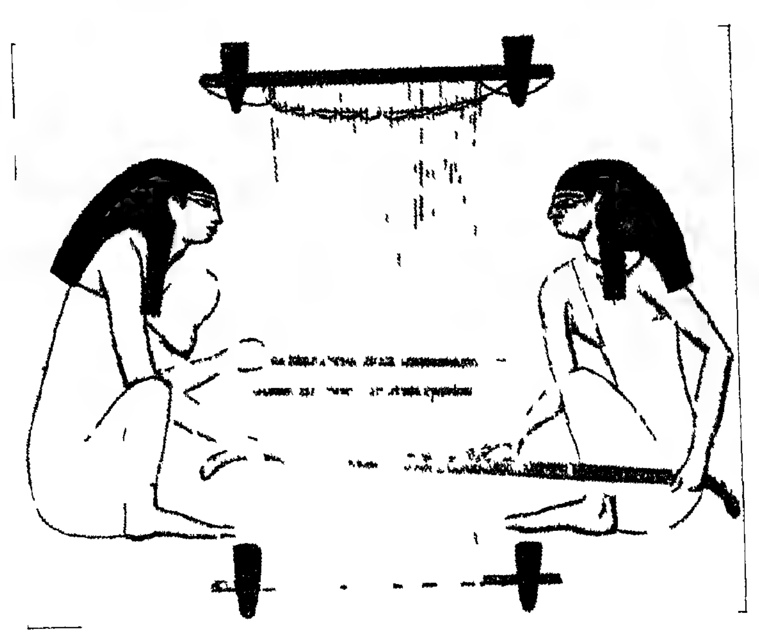
الثلاثاء ٢٣ يونيه يوم يخاف فيه من لبس الجديد .
الأربعاء ٢٤ يونيه يوم سعيد لرفع البناء .
الثلاثاء ٣٠ يونيه يوم سعيد لمقابلة الملوك .
الثلاثاء ٧ يوليه ظهور الحق لذى عينين .
الأحد ١٩ يوليه يستحب دخول الحمام .
الثلاثاء ١١ أغسطس تموت الحية الرقطاء تحت حكم السلاح .
الاثنين ٣١ أغسطس يوم سعيد لقضاء الحوائج .
السبت ٣١ أكتوبر يجتنب الفصد والحجامه .
السبت ١٤ نوفمبر يوم سعيد لحفر الآبار .
الاثنين ١٦ نوفمبر أوان ظهور الملاحم الدموية .

والتقويم مشحون بكثير من أمثال هذه «التوقيعات» . ومثله «تقويم الأسيوطى» لسنة ١٩٣٦ ، وفى أوربا تقاويم من هذا النوع . فهل الذى يقرأ هذه التقاويم يسوغ له أن يحكم بأن المصريين والأوربيين يعتقدون ما فيها ؟ وهل إذا اتفق أن عثر الباحثون بعد ثلاثة آلاف عام على تقويم من هذه التقاويم يسوغ لهم أن يعزوا ما فيه من الخرافات إلى جميع أهل الزمن الذى عاش صاحبه فيه ؟

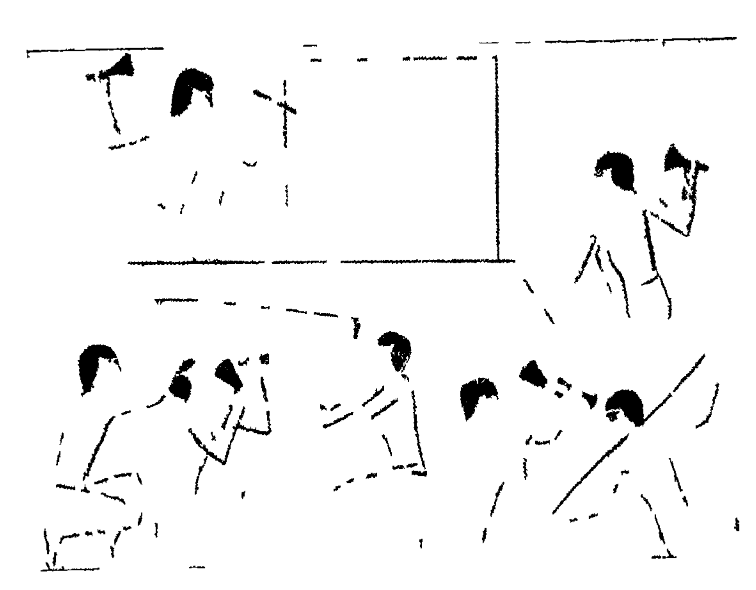
ولاحظ فوق هذا أن الذين يعزون إلى المصريين ما فى ورقة ساليير من الخرافات لا يعزونه إلى المصريين الذين عاصروا كاتبها فحسب ، بل إلى المصريين فى جميع العصور ، أى فى ثلاثة آلاف من السنين ! !

فورقة ساليير لا تزيد قيمتها عندى على قيمة « طوالع الملوك » أو «تقويم الأسيوطى» ، والخرافات التى فيها لا تتعدى صاحبها وجماعة من الجهلة يوجدون فى كل عصر وكل بلد ، فلا يحكم بهم على البلد الذى هم فيه .

(لوحــة رقــم ٣)



امرأتان تنسجان (قبر خنوم حوتب فى بنى حسن)



عمال يشتغلون فى تسوية الأحجار وتسطيحها بعد قطعها من الجبل



*
* *

ومثل آخر من أمثلة الخرافات المكذوبة على المصريين .

زعم المؤرّخون العرب أن للنيل عروسا كان المصريون يقدّمونها له كل سنة فلم يبطلها إلا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

«قال ابن عبد الحكم لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها . فقال لهم وما ذاك . قالوا إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى النيل . فقال لهم عمرو هذا لا يكون فى الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وهو لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء . فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك ، فكتب إليه عمر أن قد أصبت ان الإسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى النيل إذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها : « من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » . فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل . وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا فى ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر» .

تلك هى القصة . وقد ذكر ابن عبد الحكم أن الرسول الذى حمل البطاقة كان يسمى جاحل الصدفى . فالذى يقرأ هذه البيانات المفصلة يظن أوّل وهلة أنها نقلت من سجلات حكومة المدينة أو سجلات حكومة مصر فى عهد عمر وعمرو . وقد شاعت هذه القصة وتناقلها الكتّاب أكثر من ألف سنة ، وهى لا تزيد فى حقيقتها على أن تكون أكذوبة من الأكاذيب المدعاة على المصريين .

نعم هى أكذوبة على الرغم من التفصيلات التى ساقها ابن عبد الحكم ، فقد صار تاريخ مصر القديمة معروفا ، وأنت تقرأه كله فلا تجد فيه أثرا لهذه القصة . وقد دوّن المصريون ، فيما دوّنوه عن النيل ، أنهم رفعوه إلى صف المعبودات وعنوا بفيضانه فجعلوا له مقاييس يقيسونه بها كل سنة كما نقيسه الآن . وكانوا يسجلون

فى سجلات خاصة درجات علوه وانخفاضه فى أوقات معينة من كل سنة كما نسجلها الآن . وقد سجلوا هذه الدرجات على بعض حجارة المعابد . ولا يزال حجر « بالرم » وأعمدة الكرنك وصخور أسوان والنوبة شاهدة بذلك[1] . فلو أنهم كانوا يلقون فيه عروسا كل سنة لكى يفيض لأشاروا إلى هذه العروس حين إشارتهم إلى الفيضان ودرجاته .

أضف إلى ذلك أن فيما دونوه عن النيل ذكرا لسنى جدب ومجاعة رزئت بها مصر بسبب انخفاض الفيضان ، وهم لم يذكروا فى ذلك عروسا قدمت أو كانت تقدّم ، ولو أن هناك عروسا لوجب أن تذكر فى خلال ذكرهم تلك السنين[2] .

(١) حجر بالرم هو حجر يظن أنه بقية من بقايا معبد هليو بوليس . وقد نقش عليه تاريخ ملوك مصر فى العصر السابق على عصر الأسر ثم تاريخ الأسر الخمس الأولى بأن قسم إلى خانات متوالية خصصت كل خانة منها لذكر أهم ما وقع فى كل سنة وأقصى الدرجات التى وصل إليها ارتفاع النيل فى تلك السنة . ولم يوجد من هذا الحجر إلا جزء يظن أنه عشره . وهو موجود الآن فى متحف بالرم فى جزيرة صقلية ولذلك يسمى حجر بالرم . وفى متحف القاهرة أجزاء صغيرة يظن أنها من حجر آخر كان نسخة ثانية لحجر بالرم .

(٢) كان النيل يسمى حابى . وقد وجد منقوشا على لوحة تذكارية من الحجر تعرف عند علماء الآثار باسم « لوحة المجاعة » أن النيل جاء منخفضا سبع سنوات متواليات فى عهد الملك زوسر أحد ملوك الأسرة الثالثة فقال هذا الملك :

« إنى حزين لأن النيل لم يفض فى عهدى سبع سنوات فقلت الغلال وجفت الحقول وهلك كل ما يصلح أن يكون طعاما . وصار الرجل اذا استنجد بجيرانه هربوا منه ولم يأت أحد منهم لإنجاده . وصار الطفل يبكى والشاب يذبل والشيخ يغمى عليه . وصارت سيقانهم جميعا لا تحملهم فهم مطروحون على الأرض وقد ألقوا بأذرعتهم متعارضة على صدورهم » .

ومع أن هذه الأقوال معزوة إلى الملك زوسر فقد عرف أن اللوحة نقشت فى عصر البطالسة وأن كهنة المعبود خنومو (معبود ايلفنتين) هم الذين نقشوها ثم أضافوا اليها أن الملك زوسر استغاث إذ ذاك بالمعبود خنومو فأغاثه وأجرى النيل . وبهذه القصة حصل كهنة خنومو على امتيازات كان المعبد الذى يخدمون فيه قد حرم منها .

ومن هذا يتضح أن القصة مطعون فى صحتها ، ولكن هذا الطعن لا ينقص من قيمتها فى ما نحن بسبيله . إذ من الجلى أنه لو كانت عروس تلق فى النيل كل سنة لأشير إليها ولو مرة واحدة على الأقل فى هذه السنوات السبع التى جاء النيل فيها منخفضا ثم لقيل إن النيل بقى مع ذلك منخفضا حتى أجراه خنومو ، فيكون =



حجـــر بالـــرم

قطعة من حجر بالرم الذى نقشت عليه أسماء الملوك فى عصر ما قبل الأسر ثم فى عصر الأ...

ثم إن فيما تركه لنـا المصريون من الآثار وصفا لاحتفالات دينية كانت تقام للنيل المرفوع إلى صف المعبودات ، وقصائد وجهها إليه الشعراء، وأغانى تغنى به

= ذلك أدل على قدرته وفضله . فخلو القصة من أية إشارة إلى العروس لم يكن إلا لأنه لم تكن هناك عروس . وهذه اللوحة وجدت فى إحدى الجزر بالقرب من أسوان .



وانخفض النيل فى عهد الملك سنخارع متوحتب أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ففشت مجاعة شملت مصر كلها ووصل إلينا خبرها فى كتب كتبها بعضهم إذ ذاك . ومن هذه الكتب كتاب كتبه أحد كبار الملاك فى ذلك العهد إلى أمه ، وكان يقيم فى الوجه البحرى وكانت أمه تقيم فى الوجه القبلى ، فقال فيه :

« كيف أنت . لا تقلق علىّ فانى حى وفى صحة جيدة ، ولكن البلد يموت جوعا . لقــد حصلت لك على كل ما استطعت الحصول عليه من الغذاء .

« ألا يزال النيل شديد الانخفاض ؟ ... ... لا تستائى لقلة ما أبعث به إليك فان نصف الموت خير من الموت » .

ومن تلك الكتب أيضا كتاب كتبه هذا الرجل نفسه إلى ولده يقول فيه :

« عليك أن تغذى رجالى حينما يكونون فى العمل . تذكر ذلك ولا تغفل عنه . وليكن وكذلك أن تجعل إنتـاج أرضى أقصى ما يمكن . احرث الأرض وانصرف إلى العمل بكل ما فيك من قوة . جدّ واجتهــد واذكر أنك تأكل من عيشى وأن من حسن حظك أنى مستطيع أن أقوم بحاجاتك . وإذا عاف أحد من رجالى المأكولات التى تقدّمها لهم فابعث به إلى ليقيم معى ويعيش كما أعيش . وذلك مالا يفعله أحد غيرى » .

وفى هذه الكلمات ما ينم عن شعور انسانى وعن أخلاق كريمة تستحق أن يقف الباحث عندها .

(كتاب Histoire de l'Egypte Ancienne تأليف Arthur Weigall ص ٧١ من الترجمة الفرنسية المطبوعة فى باريس فى سنة ١٩٣٥) .



وقــد توفى الملك سنخارع متوحتب فخلفه الملك نبتاوى رع متوحتب ، وفى عهــده أيضا جاء النيل منخفضا فى بعض السنين فاشتدّت المجاعة وأدت إلى ثورة فقد فيها الملك عرشه وخلفه عليه وزيره امنمحت . وبذلك انتهت الأسرة الحادية عشرة وابتدأت الأسرة الثانية عشرة .



وفى كل هذه المجاعات والثورات الناشئة من انخفاض النيل ، وفى كل الكتب التى بقيت لنا من مخلفات تلك العصور ، لم يرد ذكر لشىء يسمى عروس النيل .

فيها المغنون، وهذه الاحتفالات والقصائد والأغانى خاليـة كلها من أية إشارة إلى إلقاء فتاة فيـه تسمى عروس النيل ، ولو أن قصة هـذه العروس كانت صحيحة لمـا خلت منها (*) .

(*) نشيد النيـــل

ننشر هنـا نشيد النيـل نقلا عن ماسبيرو الذى ترجمـه من النص المصرى فى كتابه

Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique

ص ٤٠ و ٤١ و ٤٢ من الجزء الأوّل . ويجب أن نقول هنا إن لمـاسـبيرو موجزا وضـعه هو لكتابه هذا المؤلف من ثلاثة أجزاء كبيرة ، وهـذا الموجز يقع فى جزء واحد وقد أثبت فيـه نفس هذا النشيد بعد حذف بعض أجزائه ومع تغيير طفيف جدا فى كلمات قليلة منه . وقد اعتمدنا نحن فى الترجمة العربية التى نثبتها هنا على الترجمة الأولى لأنها أوسع وأوفى . وهذا هو النشيد :

« سلام عليك يا حابى . يا من تخرج إلى هذه الأرض وتأتى لتحيى مصر . يا من تخفى فى الظلمات مجيئك (١) . إنك الجنـة تنتشر على الحقول التى يخلقها رع . إنك تعطى الحياة جميـع الظمآنين ، ولكنك ترفض أن تروى الصـحراء من فيض ماء السماء (٢) . ومتى هبطت فان جب إله الأرض يشـغف بالخبز على اختلاف أنواعه ، ونابرى إله الحبوب يقدّم قربانه ، وبتاح (٣) ينشر الرخاء فى دار صناعته .

أنت سيد الأسمـاك ، متى جزت الشـلال (٤) . لم تعد الطيور ترتمى متردية على الحقـول . أنت صـانع القمح والشعير وكاسى المعابد حلل الأعياد .

(١) يرى ماسبيرو أن فى قوله « تخفى فى الظلمـات مجيئك » إشارة إلى أسطورة كانت تقول إن النيل ينبع من نيل فى السماء ، ويجرى فى الظلمات إلى أن يكون النيل الذى على الأرض والذى يروى مصر .

(٢) كان من الأساطير المعروفة عند المصريين ، من قبل عصر الأسر ، إن النيـل مظهر من مظاهر المعبود أوزريس إله الخير والخصب ، وأن الصحراء مظهر من مظاهر سيت إله الشر والجـدب . وكان هذان المعبودان أخوين ولكن سيت قتل أوزريس فانتقم له حوريس ابنه من ايزيس وحارب سيت حتى انتصر عليه . فقول الشاعر هنا إن النيل يرفض أن يروى الصحراء معناه أنه يرفض أن يروى ظمأ إله الشر فى حين انه « يعطى الحياة جميع الظمآنين » .

(٣) كان المعبود بتاح يلقب فى مبدأ أمره برئيس الصناع ورجال النحت والتصوير . وكان يعبد فى منفيس على هـذا المعنى . وحينئذ كانت مصر توصـف عند عابديه بأنها دار صناعته . ثم تطوّر الأمر فصار بتاح معبودا عاما وخالقا للكون مثل رع فى عين شمس وأمون فى طيبة .

(٤) يريد الشلال الأوّل لأن النيل يدخل مصر باجتيازه .

وقد عرضنا هنا للحفلات الدينية التى كانت تقام للنيـل ، فنذكر واحدة منها تمس موضوعنا هذا ، وهى التى كانت تقام كل سنة فى موعد معين لأجل دعوة النيل إلى الفيضان .

= أنت من إذا أضربت عن العمل أصابعه ، أو مرض ، وقع ملايين من الناس فى البؤس . وإذا قل ماؤه فى السماء هلكت الآلهة نفسها ، وهلك الناس ، واستولى الذعر على المواشى ، وصار كل من فى الأرض كبيرا أو صغيرا يعانى العذاب .

أما إذا أجيبت دعوات الناس ، فعلا النيل ، وصار لهـم خنومو (١) . فان الأرض حين ظهوره تصيح ابتهاجا ، وكل بطن يفرح ، وكل ظهر يهتز من الضحك ، وكل سن يقطع .

هو النيل جالب الخيرات ومفيض الكثير من المأكولات . هو موجد جميع الأشياء الطيبة . هو سيد جميع النطف والجرائيم . هو حلو للذين يصطفيهـم . هو موجد العلف للمواشى ، والقرابين لجميع الآلهة . والبخور الذى يأتى منـه أجود من كل بخور غيره . وأنه ليفيض على البـلدين (٢) . فتمتلئ مخازن الحبوب وتزدحم المستودعات وتتوافر حاجات الفقراء .

إنه ليضع نفسه فى خدمة جميع الأمانى فيجيبها من غير أن ينقص شيئا منها . وهو منشئ السفن . وهو فى غنى عن أن تنقش باسمه نصب من الحجارة أو أن تنحت له تمـاثيل يوضع له التاجان عليها (٣) . وهو لا يراه الراؤون ، ولا يدفع له الناس ضريبة ، ولا يقدمون له هـدايا ، ولا يفتنـونه بالكلمات ذات الأسرار الخفية ، ولا يعرفون مكانه ، ولا يقفون بالكتابات السحرية على صندوق ذخائره المقدّسة .

وما من بيت يمكن أن تتسع له جوانبك ياحابى ، ولا من إنسان يدخل قلبـك . وأبناؤك وذراريهم يبتهجون بك لأنك تحكم كملك تسرى أوامره على الأرض كلها (٤) ، ويظهر أمام أهل الجنوب وأهل الشمال على السواء ، ويجفف الدموع من جميع العيون ، ويبذل خيراته بغير حساب . =

(١) قوله « فصار لهـم خنومو » معناه انه صار الإله الذى يصـنع بيده من المـاء والطمى الخـير للناس . وخنومو هو معبود ايلفنتين وكان يقال إنه هو الذى صنع بيده الكون ويصنع بيده النـاس حين يولدون ويصنع جميع الأشياء .

(٢) المراد بالبلدين الوجه القبلى والوجه البحرى من مصر .

(٣) التاجان هما تاجا الوجه القبلى والوجه البحرى .

(٤) المراد بالأرض كلها مصر بقسميها .

كانت هـذه الحفلة تقام فى منطقة جبل السلسلة (بين الأقصر وأسوان) . وكان يحضرها الملك فى كثير من الأحيان فاذا لم يستطع حضرها مندوب عنه . وقد وجدت ثلاث لوحات واحدة لرمسيس الثانى ، والثانية لمرنفتاح ، والثالثة

= وأينما يوجد الألم فانت تحوله إلى فرح . وحينئذ يبتهج كل قلب ، و يقفز سوفكو ، التمساح ابن نيت(١) من الطرب . لأن التسيع الألهى(٢) الذى يرافقك ينظم كل شيء . فالفيضان الكافى يروى الحقول و يبعث النشاط فى الرجال ، و إذ ذاك يرتوى كل رجل بعمل أخيه من غير أن يحاكم معه إلى القضاء(٣) .

و إذا كنت تدخل فى خلال الأغانى ، وتخرج فى خلال الابتهاج(٤) ، ثم إذا كان الناس يرقصون طربا =

(١) نيت هـذه (Nit) غير نيت (Neith) معبودة صا الحجر . وتقول الأساطير إنها عجلة ولدت فى الماء الأول الذى خلق منه الكون ، ولها طفلان هما تمساحان .

(٢) التسيع الألهى موجود فى نظرية هليو بوليس عن كيفية خلق العالم . فقد كانت هـذه النظرية تقول إن الخالق الأول هو أتوم رع ، وقد بدأ نخلق من نفسه شو (أى الفضاء) و زوجتـه تفنيت . ثم جب (أى الأرض) ونويت (أى السماء) . ثم أوزريس (إله الخـير والخصب) وزوجتـه إيزيس (وهى أخت أوزريس) وسيت (إله الشر والجدب) وزوجتـه نفتيس . فالمجموع تسـعة آلهة . وقد اقتبست المدن الكبيرة نفس هذا التسيع بعد أن حولته إلى معبودها الأكبر . فمدينة منفيس أخذته ولكنها وضعت معبودها بتاح بدل أتوم رع . ومدينة طيبة وضعت معبودها أمون مكان أتوم رع . ولكن لما كان أمون فى أول نشأته معبودا خامل الذكر فقد ضمت طيبة إليه رع فسمته أمون رع ليفيد من هذه الإضافة . على أنها لم يفتها حينئذ أن تقرر أنه ملك الآلهة وأن تصفه بجميع الأوصاف التى كانت هليو بوليس تصف بها أتوم رع . ومدينة هرمو بوليس (الأشمونين) كان لها تسيع آخر قرى رئيسه توت .

(٣) يرى ماسبيرو أن فى هذه الجملة إشارة إلى المنازعات والقضايا التى كانت تنشأ من توزيع المياه على الحقول حينما يكون النيل واطئا والفيضان قليلا ، أما حينما يكون الفيضان كافيا فلا يبقى محل لمنازعات ولا لقضايا .

(٤) علق ماسـبيرو على هـذه الجملة فقال إن النص المصرى فيها مضطرب غير واضح ، و إنه جعلها فى هذه الصـيغة قياسا على كتابات من هـذا النوع موجودة فى متحف اللوفـر كان يقال فيها إن فلانا صاحب المقام الكبير يمثل أمام الملك بين كلمات الثناء و يخرج بين الأغانى . وذلك أنه كانت توجد فى البلاط الفرعونى كما كانت توجد فى بلاط بيزانس صـيغ مختلفة الدرجات من الأغانى والكلمات لمقابلات الكبراء للملوك . فكأن النيل واحد من هؤلاء الكبراء يستقبل بالغناء و يودع بالابتهاج .

لرمسيس الثالث . وفى كل واحدة وصف واسع لهذه الحفلة ، وأن الملك حضرها بنفسه . وفى هذا الوصف أنه كان يذبح على سبيل القربان للنيل عجل أبيض وأوز وطيور أخرى ثم كان يلقى فيه قرطاس من البردى يدعى فيه النيل إلى أن يفيض .

= حينما تخرج من العالم المجهول ، فذلك لأن تثاقلك اضمحلال وفساد . وإذ ذاك يجتمع للابتهال إليك والحصول على مائك السنوى ، أهل طيبة جنبا إلى جنب مع أهل الشمال ، وكل واحد منهم يحمل آلات مهنته ، وليس فيهم من يتأخر عن جاره ، ولا من يلبس ملابس الأعياد التى كان قد تعودها . وأبناء توت ، إله الغنى ، لا يتجملون بالحلى . ومثلهم التسبيع الإلهى . والليل عام شامل [1] . ولكن متى بسطت فيضانك تحلى الكل وتعطروا .

أيها المعطى الخيرات الحقيقية ، ومن تتجه إليه رغبة الخلق ، ها هى ذى كلمات مزوقة لكى تجيب [2] ، فإن أنت أجبت وأعطيت أمواج الاقيانوس السماوى ، فإن نابرى إله الحبوب يقدّم قربانه ، والآلهة جميعا يعبدونك ، والطيور لا تتردى على الجبل .

لو أن ما تعجنه يداك كان ذهبا ، أو قوالب من الفضة ، لما أكله الناس ، لأنهم لا يأكلون ذهبا ولا فضة ولا لازورد ، وإنما يأكلون قمحا هو أفضل من الحجارة الكريمة .

لقد بدأوا ينشدون باسمك على القيثارة ، مستلهمين صدى التصفيق بالأيدى . وهؤلاء هم ذرارى أبنائك يفرحون بك ، ويمطرونك برسائل الثناء عليك . ولا عجب فإن إله الغنى هو الذى يزين الأرض ويبسط الخير للسفن ، ويبعث الحياة فى قلوب النساء الحاملات ، ويحب أن يتكاثر عدد القطعان .

حينما ظهرت فى مدينة الملك شبع الغنى ، ولم يعد الصغير يعبأ بزهور اللوتس ، وصار كل شىء ثابتا ومن

إنه النيل ، لابنائه جميع النباتات ، وإذا هو لم يطعم الناس ، هجر النعيم المساكن وأصيبت الأرض بالاضمحلال » .

(١) يصف الشاعر هنا ماذا يفعل أهل مصر حينما يكون النيل متثاقلا أى قليل الفيضان . فيلاحظ أنه ليس فى هذا الوصف أية إشارة لفتاة تلقى فى النيل .

(٢) كان من الأساطير الفاشية إذ ذاك أن الآلهة يمكن التسلط عليها بالوعود المزوقة ولو كانت مما لا يمكن تحقيقه ، وأن الآلهة تنخدع بهذه الوعود فتجيب صاحبها إلى ما يطلبه منها . فالمراد بقوله «ها هى ذى كلمات مزوقة لكى تجيب» أن الشاعر يزف إلى النيل كلمات مزوقة لكى يفيض .

وهذا القرطاس هو كل ما كان يلقى فيه . وكان الكهنة يزعمون أن للكتابة التى فيه قوة سحرية .

فهذه كما رأيت ثلاث لوحات مختلفة، لثلاثة ملوك مختلفين، فى عصور مختلفة، وصفت كل منها الحفلة التى كانت تقام لدعوة النيل إلى الفيضان . وظاهر أنه لو كانت هناك عادة جارية بتقديم عروس لوجب أن تقدّم فى هذه الحفلة . ولكن واحدة من اللوحات الثلاث لم تشر إلى شيء يسمى عروسا تلقى أو لا تلقى، وإنما أشارت إلى القرطاس من البردى . ومن البديهى أن إلقاء عروس أهم بكثير من ذبح عجل وأوز وإلقاء قرطاس ، فاشارة اللوحات إلى هذه الأشياء وسكوتها عن شيء يسمى عروسا قاطع فى الدلالة على أنه لم تكن هناك عروس .

على أن كلمة « عروس النيل » ليست اختراعا محضا ، بل هى كلمة كان المصريون يقولونها ويريدون منها « أرض مصر » وكان معناها عندهم أن النيل متى فاض دخل على أرض مصر كما يدخل الرجل على عروسه . ولا يبعد أن يكون هذا المعنى المجازى هو الذى أدّى مع الزمن إلى توهم أن هناك عروسا كانت تلقى .

هذا هو التمحيص التاريخى يثبت ألا وجود لعروس كانت تلقى فى النيل ، فاذا نحن تركنا هذا التمحيص جانبا وانتقلنا إلى التمحيص العقلى وجدناه يدل على أن رواية ابن عبد الحكم لا تستقيم ولا يمكن أن تقبل . أفلا تراه يقول إن النيل بقى « لا يجرى قليلا ولا كثيرا ثلاثة أشهر هى بؤنة وأبيب ومسرى » فهل يمكن أن يبقى فى مصر أثر للحياة إذا جف ماء النيل فلم يجر قليلا ولا كثيرا ثلاثة أشهر متوالية؟ وهل من المعقول أن يجرى النيل بعد ذلك دفعة واحدة، وفى ليلة واحدة، على أثر إلقاء البطاقة، ستة عشر ذراعا بعد أن كان جافا لا يجرى قليلا ولا كثيرا ؟

(١) كتاب Histoire de la Nation Egyptienne جزء ثان ص ١٢ لمؤلفه A. Moret وكتاب L'Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique جزء أول ص ٢٩ لمؤلفه G. Maspero .

وقد فات ابن عبد الحكم أنه جعل قصته هذه فى عهد عمر بن الخطاب وعمرو ابن العاص، وأن مصر فى ذلك العهد كانت مسيحية ولم يكن قد بقى فيها شىء من الوثنية، بل لقد كان الرومان طاردوا الوثنية وكهنتها وأنصارها حتى انقرضت اللغة المصرية . وكان قد مضى على هذا كله بضع مئات من السنين . وقد تحمس المصريون للمسيحية حينما اعتنقوها حتى كان منهم « الشهداء » الذين يعرفهم التاريخ . فاذا قيل — والقول غير صحيح — إن العقيدة الوثنيـة كانت تبيح تقديم عروس للنيـل ، فكيف يمكن أن يقال إن العقيدة المسيحية والحكومة المسيحية أقرتا تقديم هـذه العروس ؟

لا شك فى أن القصة مخترعة وأن ابن عبد الحكم لم يزنها حينما رواها .

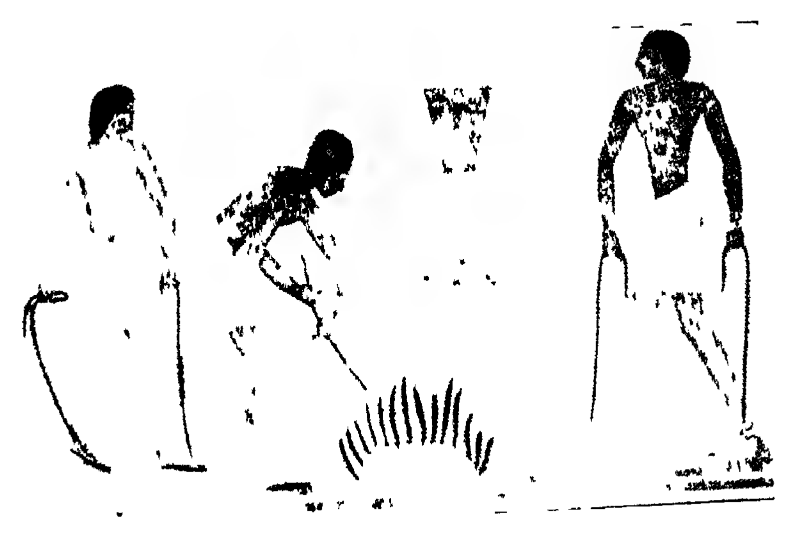


فأنت ترى مما تقدّم أن الخرافات المختلقة على مصر القديمة كثيرة ، وأن الأسباب التى دعت إلى اختلاقها كثيرة أيضا ، وإذن لم تقم المدنية المصرية على هـذه الخـرافات التى لم يكن لهـا وجود ، كلا ولم تقم على الآراء التى كان المصريون يعتقدونها والتى يظهر لنـا الآن أنها فاسدة ، وإنما قامت على أسس علمية وخلقية سليمة ، ولهذا استطاعت أن تعيش أكثر من ثلاثة آلاف عام ، وأن تخطو بالانسان إلى الأمام .

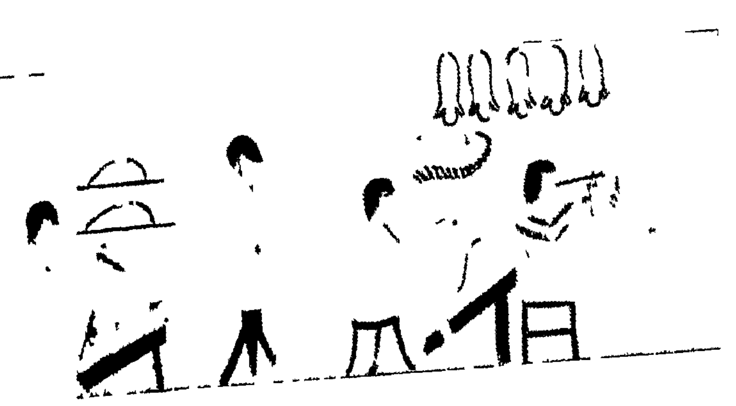
فاذا تيسر لكتابى هذا أن يساهم ، ولو بنصيب ضئيل ، فى جلاء هذه الحقيقة ، فذلك ما أغتبط به ، وهو كل ما أبغى .

مارس سنة ١٩٤٠ — عبد القادر حمزه

(لوحــة رقــم ٤)



حدّادان واقفان على منفاخين متصلين بموقد النار يستعمل لصهر الحديد . وفى يد كل من الحدّادين حبلان يحرك بهما منفاخه بينما زميل لهما يحرك النار فى الموقد (قبر ريكمارا فى طيبة)



مصنع لصنع أحذية من الجلد . ويرى فيه أربعة من الرجال يعملون فى هذه الصناعة . وترى بعض أحذية تم صنعها فعلقت فى أعلى المكان (قبر ريكمارا فى طيبة)

المدنية المصرية

هل نبتت في مصر ؟

أو طرأت عليها من الكلدان

كان الاعتقاد السائد عند العلماء إلى سنة ١٨٦٨ م أن المدنية المصرية تبتدئ فجأة بالأسرة الأولى التى أسسها الملك منا، أو قبلها بقليل . وكانوا يقولون إن هذه المدنية بدأت فجأة لأنها لم تترب فى مصر بل طرأت عليها مع وافدين غزوها غزوا حربيا أو سلميا، فعلموها الكتابة وصناعة المعادن وتشييد المبانى وأدخلوا إليها دياناتهم وكانوا هم الذين أقاموا فيها نظام الحكم على النحو الذى عرف عن الفراعنة . ومن نسل هؤلاء الغزاة كان الملك منا وخلفاؤه [١] .

وتساءل العلماء من يكون هؤلاء الغزاة، فلم يختلفوا كثيرا، بل قالوا إنهم من الجنس السامى، ومن أمة الكلدان .

وتساءل العلماء بعد ذلك أى طريق سلك هؤلاء الغزاة ، فاختلفوا لأن جماعة منهم قالوا إن الطريق بلاد اليمن فالبحر الأحمر فالصومال فالنوبة فمصر العليا ، بينما جماعة آخرون قالوا إن الطريق فلسطين فصحراء سيناء فدلتا مصر . فالأولون رأوا أن مصر غزيت من الجنوب إلى الشمال، والآخرون رأوا أنها غزيت من الشمال إلى الجنوب . ولكل من الفريقين أدلة لا ندخل هنا فيها .

ولكننا إذ ندع هذه الأدلة على غزو مصر من الشمال أو غزوها من الجنوب لا يسعنا إلا أن نشير بإيجاز إلى أهم الأدلة التى كان العلماء يستندون اليها ، والتى ما زال بعضهم يستند اليها ، ليقولوا إن غزاة من الكلدان غزوا مصر فكانوا هم الذين جلبوا لها المدنية وأسسوا فيها الأسرة الأولى .

---

(١) لولا أن جماعة من كبار العلماء هم الذين رفعوا وما زالوا يرفعون إلى اليوم راية هذا الرأى لما عنينا هنا عناية خاصة بشرحه وتفنيده . فمن العلماء السابقين الذى قالوا به ماريت باشا وماسبيرو ولبسيوس وناڤيل وشوينفورت ومورجان . ومن العلماء الذين ما زالوا يقولون به فلندرز بيترى .



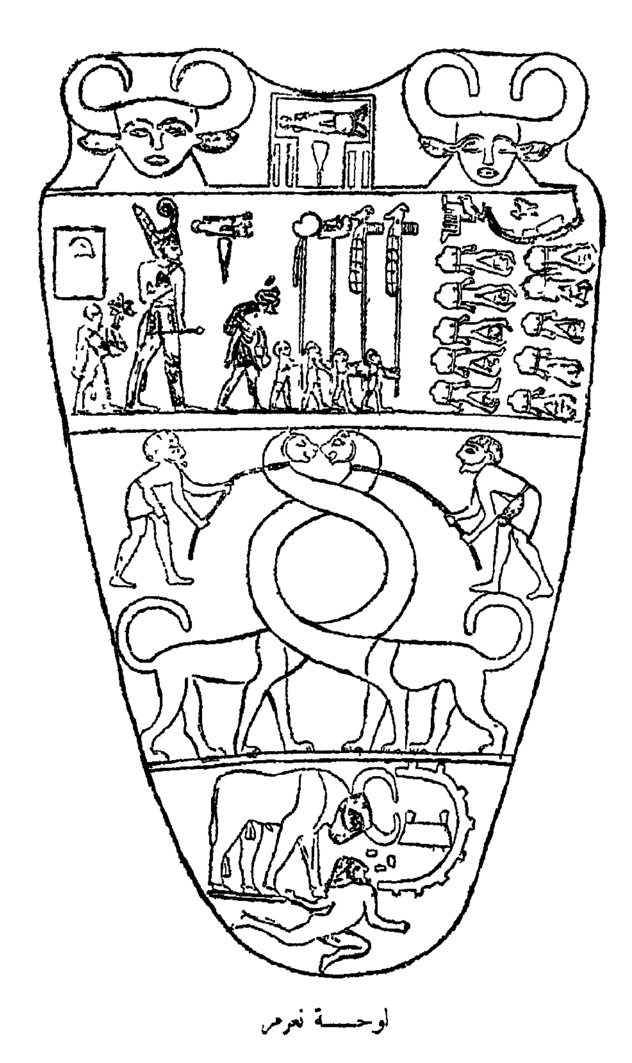
لوحـــــة نعرمر

هذه اللوحة مصنوعة من حجر الشيست . وهـذا أحد وجهيها . ويرى بعض العلماء (ومنهم برستيد) أن الملك نعرمر واحد من ملوك الأسرة الأولى ويرى الآخرون (ومنهم مورى) أنه سابق عليها .

وفى هذا الوجه من اللوحة يرى فى وسط الخانة العليا اسم الملك . وفى الخانة التى تليها يرى الملك قابضا بيده اليسرى على شعر رأس أسير جاث أمامه من أهالى الاقليم السابع من أقاليم الوجه البحرى . ويحمل الملك فى يده اليمنى مضربا يهم بأن يضرب به هذا الأسير . وأمامه الصقر آتيا إليه وإحدى قدميه تقبض بمخلبها على رأس أسير أسيوى . ومن فوق هذا الأسير ستة سيقان من النبات كل واحد منها يمثل ألف أسير . فالمجموع ستة آلاف أسير .

وكان الصقر معبود مدينة الكاب التى كانت عاصمة للملوك الحوريين أتباع حوريس .

والملك يضع على رأسه التاج الأبيض ، تاج الوجه القبلى .



لوحـــــة نعرمر

الوجه الثانى منها . فى هذا الوجه من اللوحة يرى فى الخانة العليا اسم الملك كما هو فى الوجه الأوّل . ويرى فى الخانة الثانيــة الملك لابسا التاج الأحمر، تاج الوجه البحرى، وهــو يسير وأمامه رجال يحملون أربع شارات هى من شارات الحور يين . ثم عشرة أجسام قطعت رؤوسهـا ووضعت بين أقـدامها . فعنى ذلك أن الملك ذاهب إلى احتفال قطعت أو ستقطع فيه رؤوس الأسرى .

وفى الخانة الثالثة رسم حيوانين خرافيين لهما عنقان طويلان . وهذا النوع من الرسم هــو الذى يقول بعض العلمـاء إنه منقول عن الكلدان . (أنظر ص ٣٨) .

وفى الخانة الرابعة ملك فى شكل ثور كبير يهدم برأسه حصنا ويدوس بقدمه أسيرا أسيويا ، أى شعبا أسـيويا .

فالدليل الأول استعمال معدن النحاس فى صناعة السكاكين والدبابيس والمسامير ورؤوس الحراب ، واستعمال الذهب فى الأسلحة والحلى وغيرها . وقد قال أصحاب هذا الدليل إن النحاس والذهب لم يستعملا فى مصر إلا فى عصر ما قبل الأسر بقليل ، وكان استعمالها فيها بغأة ، وهذا يفسر انتقال المصريين بغأة من حالة إلى حالة . ولم يذكر أصحاب هذا الرأى الحديد لأنه دخل مصر فى عصر الأسر .

والدليل الثانى استخدام الضمائر فى اللغة المصرية على نحو شبيه بالذى تستخدم به فى اللغات السامية . ثم شيوع كتابة أسماء الرؤساء والملوك داخل إطارات مستطيلة ، تسمى الآن «خراطيش» ، قبيل عصر الأسر ثم فى عصر الأسر . وهذه العادة كانت توجد عند الكلدان فى ذلك الوقت نفسه .

والدليل الثالث أن المبانى التى وجدت لملوك الأسرة الأولى فى نقادة ، وبخاصة للملك « محا » ، ذات واجهات مزينة بأشكال مخروطية خارجة وداخلة . وهذا النوع من البناء له شبيه فى مبانى الملوك فى الكلدان .

والدليل الرابع أنه وجدت على بعض الأوانى المخلفة عن عصر ما قبل الأسر رسوم حيوانات خرافية ذات أعناق طويلة (انظر الوجه الثانى من لوحة نعرمر فى الصفحة ٣٧) . وقد وجد مثل هذا النوع من الزخرفة على بعض الأوانى فى الكلدان .

والدليل الخامس وجود قصة منقوشة على معبد إدفو لقوم يسمون «أتباع حوريس» فسرت بما معناه أن هؤلاء الأتباع وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها . وحوريس واحد من المعبودات الأولى التى عبدها المصريون .

تلك هى الأدلة ، وقد ذكرناها لأننا سنعود إليها فيما بعد لنثبت أنها واهية لا يمكن أن يبنى عليها افتراض حادث تاريخى جسيم كغزو الكلدانيين مصر ونقلهم المدنية إليها .

* * *

كان هذا إذن هو الاعتقاد السائد عند العلماء الى سنة ١٨٦٨ م، وكانوا لهذا يقولون إن مصر لم تعرف العصر الحجرى[١] بالترتيب الذى عرفته به أمم أوربا ، بل كانوا يقولون إن من العبث البحث فيها عن عصور ما قبل التاريخ . ففى تلك السنة دعا المغفور له خديوى مصر اسماعيل باشا ملوك أوربا وعلماءها للاحتفال بافتتاح قنال السويس، وكان من بينهم العالم الجيولوجى أرسلين[٢]، فجاب مصر صعودا وهبوطا فاستوقفت نظره أدوات من الحجارة وجدها بالقرب من منطقة الأهرام تشبه الأدوات الحجرية التى وجدت فى أوربا ، ثم لما بحث فى الأقصر وجد فى وادى الملوك أدوات وأسلحة حجرية مصقولة .

وبعد ذلك بسنتين وجد العالمان هامى[٣] ولينرمان[٤] فى الأقصر مجموعة أخرى من الأدوات والأسلحة الحجرية المصقولة وغير المصقولة .

وعندئذ فتح أمام المجمع العلمى المصرى[٥] باب البحث فى هل العصر الحجرى يوجد فى مصر كما يوجد فى أوربا أولا ، فرفض العلماء المصرولوجيون أن يقولوا بوجوده، ومنهم ثلاثة كانوا فى ذلك الوقت من زعماء المصرولوجيا وهم ماريت باشا[٦]

---

(١) العصر الحجرى هو العصر الذى كانت فيه أدوات الانسان وأسلحته من الحجر . وهو ينقسم إلى عصرين كبيرين : أحدهما عصر الحجر غير المصقول، والثانى عصر الحجر المصقول . وذلك أن الانسان حينما بدأ يتخذ من الحجر أدواته وأسلحته لم يكن يعرف كيف يصقلها ، ثم جاء عصر استطاع فيه صقلها ، وبعد ذلك بدأ ينتقل إلى عصر استعمال المعادن . فباستعمال المعادن ، ولا سيما النحاس والذهب والبرنز ، يبدأ العصر التاريخى لأن الانسان بدأ فيه يكتب ويقيم المبانى التى تحدثنا الآن آثارها الباقية بأخباره . والعصور السابقة على استعمال المعادن تسمى كلها عصور ما قبل التاريخ .

(٢) (Arcelin) .

(٣) (Hamy) .

(٤) (Lenormant) .

(٥) (Institut Egyptien) .

(٦) (Mariette Pacha) وكان مديرا لمصلحة الآثار المصرية .

ولبسيوس[١] وشاباس[٢] فانهزم القائلون بوجود العصر الحجرى . وكانت أعظم حجة لهؤلاء الرافضين أن الأدوات والأسلحة الحجرية توجد فى بعض قبور الدولة القديمة، أى فى الوقت الذى كان المصريون فيه يصنعون المعادن صناعة راقية . فالعصر الحجرى مختلط عندهم إذن بعصر المعادن ولا يمكن فصل أحدهما من الآخر .

قالوا : وسبب هذا أن المدنية طرأت على مصر فجأة من الخارج بينما كان أهلها لا يزالون فى الحالة البدائية، وبذلك اختلطت عندهم المدنية بالبدائية، وكان الأثر الملموس لهذا وجود الأسلحة والأدوات الحجرية فى قبور الدولة القديمة إلى جانب الأسلحة والأدوات المعدنية .

وكانت هذه الهزيمة قاسية ولكنها لم تثن من همة الباحثين عن العصر الحجرى فى مصر، فتوالت بحوثهم، وتوالت معها كشوفهم . ولا نستطيع هنا أن نخوض فى هذه وتلك لأن للخوض فيها كتبا خاصة ، فيكفينا أن نقول إن البحوث والكشوف استمرت بغير انقطاع وإنها ما زالت مستمرة إلى الآن . وقد ساهم فيها كثير من كبار العلماء ، نذكر منهم ديلانو[٣] فى سنة ١٨٧٢ وكان محل بحثه إسنا وأسوان ، والدكتور ريل[٤] فى السنة نفسها وكان محل بحثه حلوان ، والسير جون لوبوك[٥] فى سنة ١٨٧٣ ، والدكتور شوينفورت[٦] البحاثة النمساوى الذى استمر يدرس أرض مصر وأعالى النيل نحو أربعين سنة ، وفلندرز بترى[٧] وجاك دى مورجان[٨] فى سنتى ١٨٩٦ و ١٨٩٧ ، وإليه وإلى مساعديه ليجرين[٩] ودارسى[١٠] وجيكيير[١١] الذين

(١) (Lepsius) وهو من كبار المصرولوجيين الألمانيين .

(٢) (Chabas) وهو من خلفاء شامبليون الشاب فى خدمة المصرولوجية .

(٣) (Delanoue) .

(٤) (Dr Reil) .

(٥) (Sir J. Lubbock) .

(٦) (Schweinfurth) .

(٧) (Flinders Petrie) وهو من المصرولوجيين الانجليز المعروفين فى العصر الحاضر .

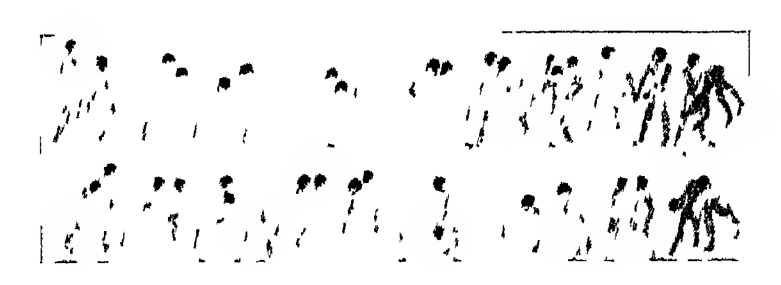
(٨) (J. de Morgan) وكان مديرا لمصلحة الآثار المصرية .

(٩) (Legrain) .

(١٠) (Daressy) .

(١١) (Jequier) .

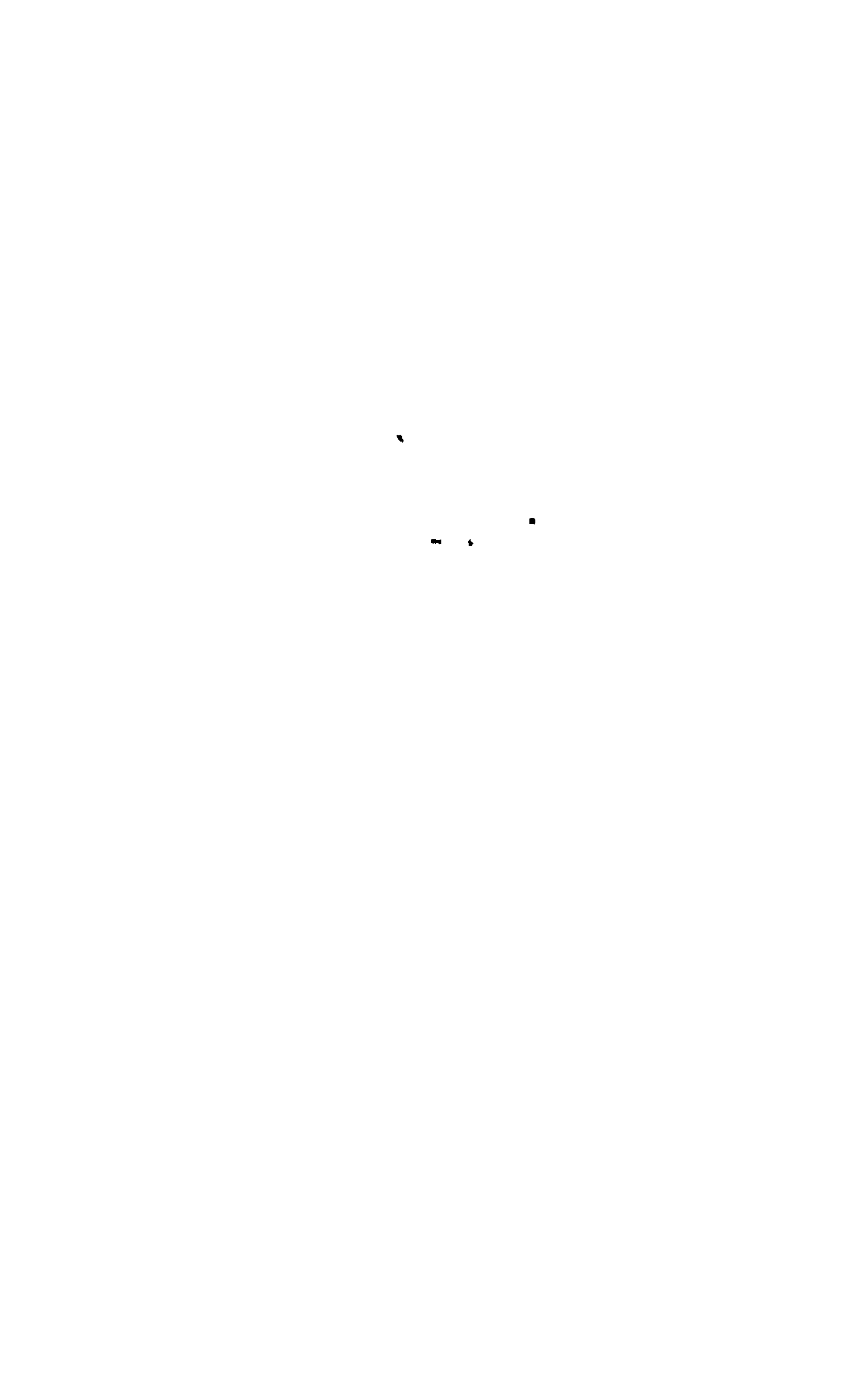
(لوحة رقم ٥)



بعض الألعاب الرياضية للجنود المصريين (مقبرة آمونى — أمونمحايت فى بنى حسن)



رقص حربى يرقصه الجنود المصريون قبل المعركة . وترى فى أيديهم القسى والسهام (مقبرة حتى فى بنى حسن) .
والصورة تمثل جنود إقليم كان يسمى « إقليم الغزالة »



كانوا موظفين تحت رياسته فى مصلحة الآثار المصرية يرجع كثير من الفضل فى تأييد الرأى القائل بوجود العصر الحجرى فى مصر[1]. ثم أميلينو[2] فى سنة ١٨٩٥ وسنين تالية . ثم العالم الأمريكى برستيد[3] الذى توفى منذ ثلاث سنوات . ثم العالم البلجيكى كابار[4]، وهو الآن رئيس المعهد الأثرى المصرى فى بروكسل .

ويطيب لنا هنا أن نذكر أن بعض المصريين اشتغلوا بهذا البحث وانصرفوا إليه انصرافا علميا صحيحا فحصلوا فيه على نتائج قدّرها لهم العلماء . ومن هؤلاء المصريين المغفور له الأمير كمال الدين حسين وكان أكثر بحوثه فى الواحات والصحراء . ثم المغفور له أمين العمرى وقد كشف منذ بضع سنوات فى شمالى حلوان عن قرية كاملة من قرى العصر الحجرى ثم توفى بعد كشفها بقليل فسماها العلماء باسمه اعترافا بفضله . ثم الأستاذ مصطفى عامر وهو يعمل الآن لحساب الجامعة المصرية فى منطقة المعادى وقد كشف هو أيضا عن قرية من قرى العصر الحجرى .

وهذه الأسماء وحدها — ونحن لم نذكر غير البارز منها — تدل على مقدار الجهود التى اتجهت إلى البحث فى عصور ما قبل التاريخ فى مصر، وقد أدت كلها إلى نتيجة واحدة لم يبق الآن شك فيها ، وهى أن عصور ما قبل التاريخ توجد فى مصر كما توجد فى أوربا ، وبالترتيب نفسه . ففيها عصر الحجر غير المصقول بأقسامه الفرعية ، وفيها عصر الحجر المصقول بأقسامه الفرعية أيضا ، وفيها أخيرا عصر الانتقال رويدا رويدا من الحجر المصقول إلى المعدن .

ولكن هناك مع ذلك فارقا بين المصرى والأوربى فى العصر الحجرى ، أو بعبارة أصح بين المصرى وغيره من جميع أمم العالم . وهذا الفارق هو أن المصرى اجتاز عصور الحجر

---

(١) من أعجب ما يقال هنا أن إثبات وجود العصر الحجرى فى مصر كان من الأدلة القوية التى هدمت نظرية طروء المدنية على مصر بواسطة غزاة من الكلدان ومع ذلك كان چاك دى مورجان من القائلين بها وقال بها أيضا فلندرز بترى .

(٢) (Amelineau) .

(٣) (J. H. Breasted) .

(٤) (J. Capart) .

بسرعة بينما الأمم الأخرى تأخرت فلم تخرج منها إلا بعد المصرى بأزمنة تتفاوت بتفاوت استعداد كل منها، فهى عند البعض مئات وعند البعض الآخر ألوف من السنين .

والشعب الوحيد الذى يشترك مع الشعب المصرى فى هذه الميزة هو الشعب الكلدانى، لأن الطبيعة هيأت له من الأسباب فى وادى دجلة والفرات مثل ما هيأته للشعب المصرى فى وادى النيل(1) . وإنما الذى يجب أن نسجله هنا هو أن وجود العصور الحجرية فى مصر هدم جانبا من النظرية القائلة بأن المدنية المصرية ليس لها جذور قديمة فى مصر وإنما طرأت على يد غزاة من الكلدان غزوا مصر غزوا حربيا أو سلميا .



إذن توجد فى أرض مصر مخلفات لعصور ما قبل التاريخ، وإذن يستطيع العلم أن يرشد إلى الحالة التى كانت عليها مصر وكان عليها سكانها منذ أقدم هذه العصور، فيحسن أن نقول فى هذا كلمة .

قال العلماء إن الانسان انتشر فى عدّة نقط فى أوربا وأفريقيا وآسيا فى عصر واحد تقريبا . ولكن الأرض التى كانت الأسباب الطبيعية المجتمعة فيها إذ ذاك تجعلها أصلح للحياة من غيرها هى أرض وادى النيل وأرض ما بين النهرين (دجلة والفرات) . ولهذا ظهرت المدنية المصرية والمدنية الكلدانية حينما كانت كل أمم العالم الأخرى لا تزال على الحالة البدائية .

والمراد بصلاحية أرض وادى النيل وأرض ما بين النهرين للحياة أكثر من غيرهما أن أوربا وآسيا كانتا فى ذلك الوقت تهاجمهما سيول من الثلج تلجئ الانسان

(١) دلت كشوف حديثة على أن هناك واديا ثالثا اشترك مع وادى النيل ووادى الفرات ودجلة فى هذه الميزة وفى نتائجها . وهذا الوادى هو وادى نهر الهندوس فى الهند . ويرى كثير من العلماء أن الكلدانيين الذين أنشأوا أوّل حضارة فى الكلدان كانوا من أهل هذا الوادى الهندى نزحوا إلى دجلة والفرات وهم السومريون المعروفون فى تاريخ الكلدان .

فيهما إلى أن يعيش فى مغارات الجبال وتمنعه من أن يفارق الحالة الوحشية؛ ويقال إن عدد السيول التى هاجمت أوربا أربعة وإن مدّتها تستغرق ألوفا من السنين . وكانت الأرض الوحيدة التى انقطعت منها هذه السيول هى الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط فى أفريقيا وآسيا .

ولكن هذه الأرض لم تكن كلها فى مستوى واحد من حيث الصلاحية للحياة بل كانت فيها بلاد تمتاز على بلاد . ومن هذه البلاد الممتازة وادى النيل ووادى ما بين النهرين .

قال العلماء أيضا : وكان الوجه البحرى كله غير موجود ، وكانت مياه البحر المتوسط تضرب فى جبل المقطم حيث توجد القاهرة الآن . وكانت الأمطار غزيرة فى صحراء أفريقيا الكبرى، فكانت تجرى فى هذه الصحراء أنهار، وكانت أرضها تزدحم بالغابات والأشجار والحيوانات، وحدث بعد ذلك تحوّل فى الأمطار فجعلت تقل شيئا فشيئا فى الصحراء وتزداد شيئا فشيئا فى وسط أفريقيا، وحينئذ بدأ نهر النيل يوجد ويشق طريقا له من أواسط أفريقيا إلى البحر الأبيض المتوسط .

ولما جرى النيل أخذت جموع من الإنسان تتجمع حوله . ولا يعرف الآن تاريخ صحيح لبدء هذا التجمع ، ولكن من المباحث التى بحثها برستيد أنه حفر فى مدخل الدلتا حتى وصل إلى عمق ٢٠ مترا فى بعض النقط و ٣٠ مترا فى بعضها الاخر، فوجد أوانى من الفخار وقوالب من الطوب، ووجد على مثل هذا العمق بالقرب من دمياط جمجمة إنسان . ولما كانت طبقة الطمى التى يكسو بها النيل أرض الدلتا كل سنة معروفة على وجه التقريب ، فقد حسب برستيد فوجد أن الانسان الذى عاش حيث وجدت تلك الجمجمة وتلك الأوانى والقوالب يرجع إلى ١٦ ألف سنة مضت . ولا يزال باب البحث فى هذا الموضوع مفتوحا ، ولا تزال الكلمة الأخيرة فيه متروكة للمستقبل .

ومر إنسان وادى النيل بالعصر الحجرى فكانت أسلحته التى يقاتل بها ويصطاد الحيوانات، من الحجر غير المصقول ، ثم تقدّمت فصارت من الحجر المصقول . وفى هذا العصر الأخير يشهد العلماء جميعا بأن تقدّم الإنسان فى مصر كان سريعا ، وكان يفوق مثله فى أوربا . فآلات الانسان فى مصر وأسلحته وأدواته تشبه آلات الانسان فى أوربا وأسلحته وأدواته، ولكنها أتقن منه صقلا وأحسن صنعا . وفى هذا الوقت عرف الانسان فى مصر كيف يصنع الفخار الأحمر والأسود، وكيف يصنع منهما أوانى، ثم استطاع أن يزين هذه الأوانى برسوم السفن والحيوانات والنباتات .

وفى هذا يقول مورى[1] فى كتابه (Des Clans Aux Empires) فى الصفحة ١٤٠ :

" لم تجد الطبيعة فى ذلك الوقت على بقعة من بقاع الأرض بالخصائص اللازمة لنمو مجتمع انسانى كما جادت على مصر . ولهذا لا توجد فى أية بقعة من بقاع الأرض صناعة من صناعات عصر الحجر المصقول هى فى إتقان الصناعة التى توجد من هذا النوع فى مصر . على أنه لم يوجد فى ما بين النهرين ، ولا فى سوريا أى أثر للانسان سابق على ٤ آلاف سنة قبل الميلاد ، ما خلا نقطا قليلة فى فلسطين لم يحدّد تاريخها بعد بدقة ، ولكن يظن أنها من عصر الحجر المصقول . وفى هذا الوقت أى فى حدود أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ترى المصريين يدخلون فى العصر التاريخى من عصور المدنية[2] " .

(١) الأستاذ A. Moret كان الرئيس الشرفى لمتحف Guimet فى باريس ومدير مدرسة الدراسات العليا فيها . وهو من كبار المصرولوجيين فى العصر الحاضر وله فيها مؤلفات عدّة . وقد توفى منذ سنتين .

(٢) هذا شاهد من الشواهد التى تهدم نظرية القائلين بأن المدنية طرأت على مصر بفأة على يد غزاة من الكلدان . ولهذا يستمر الأستاذ مورى فى كلمته تلك فيقول :

"يحسن إذن أن نعزو إلى عبقرية سكان مصر الأوّلين، وإلى الخصائص الاستثنائية التى توافرت فى وادى النيل ، تقدّم هؤلاء المصريين المبكر . وليس هناك دليل على أن هذا التقدّم راجع إلى غزاة أجانب كانوا قد نالوا من المدنية أكثر مما ناله المصريون . فان وجود هؤلاء الأجانب ، أو على الأقل وجود مدنيتهم ، أمر يحتاج إلى إثبات" .

ونقول بعد ذلك إن الأستاذ مورى كان من الذين جروا مع نظرية الغزاة الكلدانيين ولكنه عدل عنها فى مؤلفاته الأخيرة .

و يقول برستيد فى الجزء الأوّل من كتابه (A History of Egypt) فى الصفحة ٢٩ من الترجمة الفرنسية المطبوعة فى بروكسل سنة ١٩٢٦ :

"إن الأسلحة والأدوات التى وجدت فى مصر من الحجر الصوان أجمل وأحسن صقلا من جميع الأسلحة والأدوات التى وجدت من هذا النوع فى جميع بلاد العالم" .

و يقول جوستاف جيكيير[(١)] :

"وصل العمل الفنى فى صقل الحجر فى عصر الحجر المصقول فى مصر حدّا من الاتقان والدقة يتعذر أن يوجد له مثيل فى أى بلد آخر . وهذه الدقة لا تلاحظ فى أدوات الذبح فقط ، بل تلاحظ فى الأدوات العادية أيضا" .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر سكاكين ذات حدّين كل منهما يماثل الاخر ، وأساور ، ورؤوس سهام ، كلها من الحجر الصوّان . ويشهد مورجان أنهما " ليست أدوات نافعة فقط ، بل هى أعمال فنية عجيبة أيضا ، تفوق جميع ما خلفه الانسان فى عصر الحجر المصقول فى جميع البلاد الأخرى[(٢)] " .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر عظام وجلود وألواح من العظام عليها رسوم مختلفة . ويرى مورجان[(٣)] أن وجود هذه الأشياء مضافا إليه الرسوم التى وجدت على الألواح العظمية يدلان على أن المصرى إذ ذاك لم يكن يوجه همه إلى صيد الحيوانات ليأكل من لحمها فقط ، بل كان يوجه همه فى صيدها إلى غرض آخر أيضا هو اقتناص ما يمكن استخدامه منها كالكلب والغزال والخروف والثور والحمار .

ووجدت مع هذه المخلفات حبوب من الشعير والذرة والقمح . ووجدت أسلحة محاريث مصنوعة من الحجر الصوّان[(٤)] . فدلت هذه وتلك على أن المصرى

(١) (Gustave Jequier) ص ٥٧ من كتابه (Histoire de la Civilisation Egyptienne) المطبوع فى باريس فى سنة ١٩٣٠ ، والأستاذ جيكيير هو الآن مدرّس علم المصرولوجيا فى جامعة نوشاتل فى فرنسا .

(٢) (J. de Morgan) فى كتابه (L'Humanité Préhistorique) ص ١٠٧

(٣) المصدر السابق من ص ٩٦ الى ص ١٠٠

(٤) سلاح المحراث هو الجزء الأمامى منه الذى يشق الأرض .

فى عصر الحجر المصقول عرف الزراعة واستطاع أن يستخلص منها النباتات الصالحة لغذائه من النباتات الوحشية[١] .

وهنا لا يفوتنا أن نقول إن نباتات الشعير والذرة والقمح لم يجدها الإنسان أوّل الأمر كما هى الآن ، بل وجدها نباتات وحشية فأخذ يعالجها قرونا وقرونا حتى استخلص منها الأنواع الصالحة لغذائه . ويرى كثير من العلماء أن الأدلة كافية على أن الانسان فى مصر هو أوّل من استخلص — على الأقل — القمح المعروف الآن، من القمح الوحشى .

وقد قال شوينفورت الذى تقدّم ذكره إن القمح الوحشى يوجد الآن فى بعض المناطق المرتفعة فى فلسطين وإيران . وعنده أن هذا دليل على أن المدنية المصرية دخلت مصر على يد غزاة من الكلدان كانوا هم الذين حملوا إليها نبات القمح . ولكن برستيد يخالفه فى هذا ويقول إن نبات القمح الوحشى وجد فى وادى النيل كما وجد ولا يزال يوجد فى بلاد أخرى . فوجوده فى فلسطين وإيران ليس دليلا على أن المصريين لم يستخلصوا منه نبات القمح المعروف[٢] .

وتلا هذا أن اخترع الانسان فى مصر الكتابة[٣] وتدل إشاراتها ورموزها على أنها ولدت فى مصر خطوة فخطوة ، وترقت فيها خطوة فخطوة . فهى اختراع مصرى محض . ولم يصل هذا الاختراع إلى اللغة التى كانت معروفة فى عهد الملك منا إلا بعد مئات ومئات من السنين . وبالكتابة يبدأ العصر التاريخى .



وقد قلنا فيما تقدّم إن النيل جمع سكان مصر الأولين حوله ، فهنا نقول إنه لم يجمعهم حوله فقط ، بل رباهم وعلمهم ، حتى أخرجهم من حالة الوحشية

(١) كتاب (J. de Morgan) الذى مر ذكره — الفصل الثانى من الجزء الثانى .

(٢) كتاب (The Origins of Civilisation) المعاد طبعه فى سنة ١٩١٩ ص ٣١٦

(٣) أكثر العلماء على أن الكتابة المصرية هى التى عمد الفنيقيون إليها فاختزلوا إشاراتها واستخلصوا منها الحروف الفينيقية . ومعروف أن هذه الحروف هى الأصل فى الحروف الأوربية .

(لوحة رقم ٦)



المشاة الخفيفة والمشاة الثقيلة من الجيش المصرى فى عهد الأسرة الحادية عشرة . (وجدت هذه الصورة فى مقابر أسيوط وهى الآن فى المتحف المصرى)

إلى حالة المدنية . وذلك أن أولئك السكان رأوا النيل يفيض فى وقت معين من السنة فيغرق مساكنهم ويلجئهم إلى الهرب منه إلى مناطق بعيدة عن الغرق . ثم ينسحب ويقل خطره فيعودون إلى حيث كانوا لأنهم لايستطيعون أن يعيشوا بعيدا عنه . فقادهم ذلك إلى إقامة حواجز بينهم وبينه ثم إلى تقوية جسوره .

وعند ما ينسحب النيل يترك الأرض التى ينحسر عنها مكسوة بالطمى صالحة للزراعة . ولكن الزراعة تحتاج إلى محاريث لشق الأرض ، وإلى قنوات يجرى الماء فيها ، وإلى آلات للرى ، فصنع المصرى المحاريث من الحجر الصوّان وجرها بنفسه فى مبدأ الأمر ثم جرتها الحيوانات المستأنسة . وفى الوقت نفسه شقت القنوات وجرى فيها الماء .

وكان سكان مصر يعيشون قبل الزراعة على صيد الحيوانات والأسماك ثم على الحشائش والنباتات المتوحشة وثمار الأشجار ونباتات البردى واللوتس التى كانت تنبت فى المستنقعات . فلما عرفوا الزراعة وألفوا التغذى بمحصولاتها أدى بهم ذلك ، بعد تجارب استمرت قرونا وقرونا ، إلى استخلاص القمح والذرة والشعير من النباتات الوحشية .

وكان من الضرورى لهم فى حالتهم هذه الجديدة استخدام بعض الحيوانات فاستخدموا الحمار والخروف والثور .

وكان خطر الغرق لا ينفك يهدّدهم كل سنة ، وكان شره لا يقتصر على جماعة منهم دون جماعة ، فقادهم ذلك إلى أن يتعاونوا على دفعه وتنظم مجرى النيل .

وابتدأ هذا التعاون أوّل الأمر فى حدود ضيقة بين كل جماعة تعيش فى منطقة واحدة ، ثم امتدّ من منطقة إلى أخرى . ودعا هذا إلى أن تكون هناك سلطة تنظم التعاون بين أفراد المنطقة الواحدة ثم بين المناطق المتجاورة ، فوجدت الحكومات الأقليمية ، ثم الحكومة الواحدة فى بضعة أقاليم ، ثم الحكومة الواحدة فى كل من

الوجه البحرى والوجه القبلى، ثم الحكومة الواحدة فى الوجهين معا، وصارت مصر بلادا واحدة ومملكة واحدة .

فالنيل على هذا هو الذى علم سكان مصر الأولين تكوين الجماعات، وبث فيهم روح التعاون، فنقلهم من حالة الرجل الهائم على وجهه العائش مع الحيوانات وبين الغابات، إلى حالة الرجل العائش فى وسط الجماعة من أمثاله المتعاون معهم الخاضع لسلطة حاكمة منظمة .

والنيـل هو الذى علم المصريين الزراعة ، حينما كان غيرهم لا يزال يعيش على النباتات الوحشية، وعلى صيد الحيوانات[1] . وهـذا الانتقال من المعيشة على صـيد الحيوانات وعلى النباتات الوحشية إلى المعيشة على الزراعة هو خطوة كبيرة فى تاريخ المدنية فى العالم . وهو الأساس الأول فى وجود المدنية المصرية .

وبهذا يعترف مورى فيقول إن المجهودات العجيبة المنظمة التى بذلها المصرى فى هاتيك القرون « هى التى هيأت للدنية أن تظهر لأول مرة على وجه الأرض[2] » .

ونحن نضيف إلى ذلك أن النيل هو الذى قاد المصرى فى مجهوداته هذه وغذاه بالعناصر الأساسية للدنية، فالمدنية على هذا لم تطرأ على مصر من الخارج، بل هى بنت النيل ، بنت مصر .



والآن نظن أن الحقائق العلمية التى مرت هدمت جانبا كبيرا من الفكرة القائلة بطروء المدنية على مصر مع غزاة من الكلدان ، ودلت على أن هذه المدنية نشأت

---

(١) يرى پـيرى (M. Perry) فى كتابه : (The Growth of Civilization) ص ٣٠ أن مصر هى المهد الأول للزراعة لأن فيضان النيـل وطميه المخصب كانا كافيين لإنبات البـذور التى تلق على الأرض من غير أى عمل يعمله الانسان .

قال : " ولقد كان يكفى حينئذ أن يوجد العبقرى الذى يشق قنوات تجرى فيها مياه النيل لكى تنتشر هذه وتنتشر معها الزراعة فى سطح أوسع " .

(٢) كتاب (Des Clans Aux Empires) ص ١٤٥

فى مصر ، وخطت فيها خطواتها واحدة بعد أخرى ، من العصر الحجرى إلى عصر التاريخ . وظاهر أن على الذين يقولون بالغزو أن يقدّموا دليلا تاريخيا ، و إلا كانوا يبنون قولهم على قرائن هى أدخل فى باب الأمور الفرضية منها فى باب الحقائق العلمية . والدليل التاريخى الوحيد الذى يلجأون إليه هو — كما تقدّم — وجود قصة منقوشة على معبد إدفو لقوم يسمون « أتباع حوريس » فسرت بأن هؤلاء الأتباع وفدوا على مصر من جنوبها وغزوها . وحوريس واحد من المعبودات الأولى التى عبدها المصريون . هذا هو دليلهم التاريخى الوحيد، ومن الذين يقيمون له وزنا كبيرا ماسبيرو وأحمد كمال باشا[1] . ولكن هذا الدليل يسقط بقليل من التأمل، لأن كل ما فيه — إذا أخذ على علاته وسيأتى أنه معلول — هو أن أتباع حوريس وفدوا على مصر من جنوبها ، وجنوب مصر قد يكون بلاد النوبة، أو قد يكون أعالى النيل ، كما قد يكون إقليما من الأقاليم المصرية الجنوبية مثل وادى حلفا أو أسوان، ولكنه لا يمكن أن يكون بلاد الكلدان ولا بلاد اليمن .

ثم إن قصة أتباع حوريس مطعون فى قيمتها التاريخية لأنها لم تنقش على معبد إدفو فى العصر الأول من عصور المدنية المصرية ليمكن أن يقال إنها ترديد لحادث تاريخى وقع قبل عصر الأسر، ثم لما جاء هذا العصر كان أثره لا يزال ماثلا فى الأذهان . بل نقشت القصة فى عصر البطالسة ، لأن المعبد نفسه بنى فى هذا العصر على أنقاض معبد قديم، فبين الوقت الذى نقشت فيه القصة والوقت الذى يعزى فيه إلى أتباع حوريس أنهم وفدوا على مصر أكثر من ستة آلاف سنة أو سبعة آلاف على الأقل .

(١) كتاب « الحضارة القديمة » من ص ٣٣ الى ص ٥٢ . ولكن كمال باشا يقول إن أتباع حوريس هم قوم وفدوا من جنوب بلاد العرب ولا يذكر الكلدان . ولا نعرف نحن أية مدنية كانت فى جنوب بلاد العرب فى العصر الحجرى فنقلها أصحابها إلى مصر .

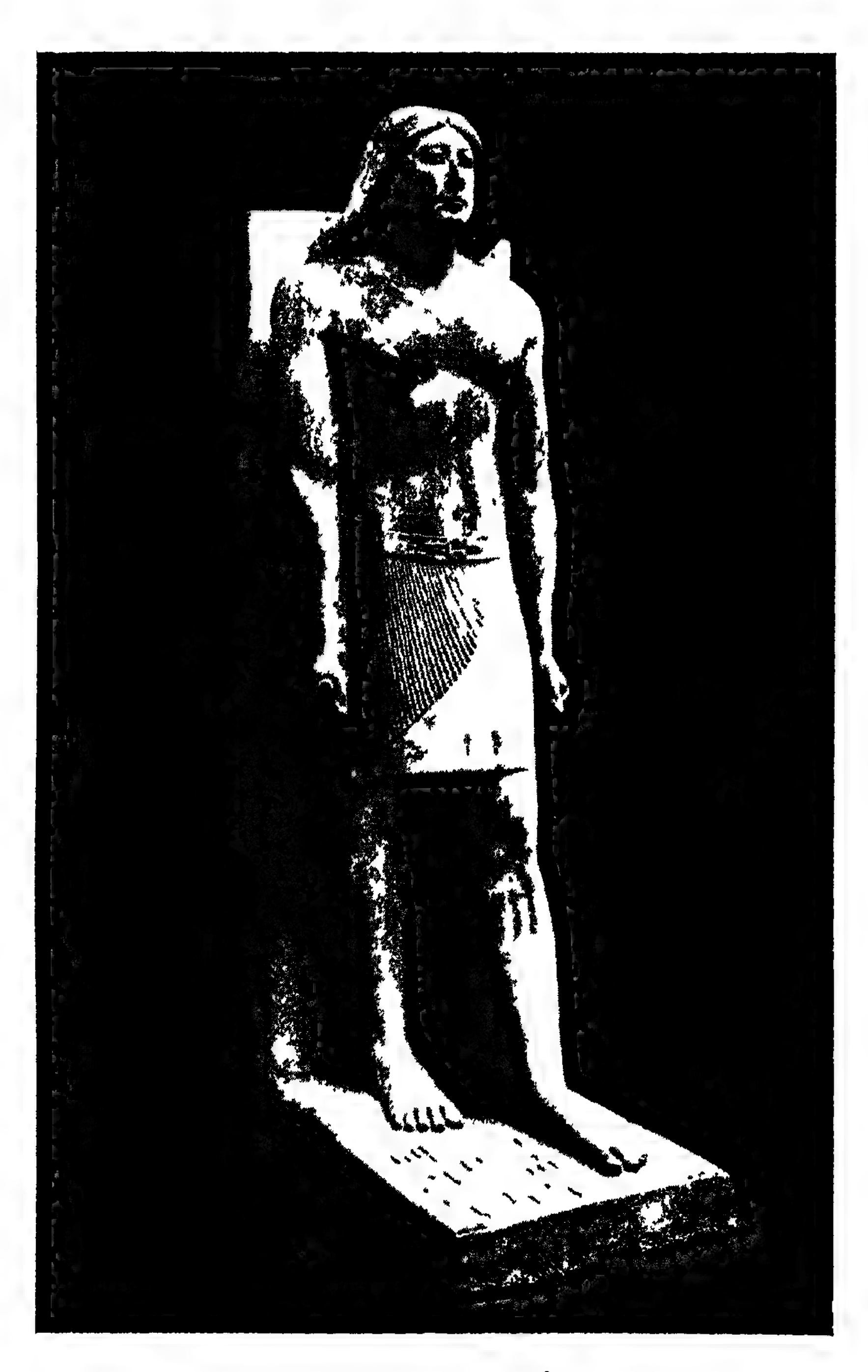
وقد يقال مع ذلك إن البطالسة حينما جدّدوا معبد إدفو نقشوا عليه تلك القصة نقلا عن المعبد القديم . وهذا غير بعيد، ونحن لا نجادل فيــه ، وخاصة لأن كلمتى « أتباع حوريس » وردتا فى بعض نصوص الأهرام التى شيدت فى عهد الأسرة الخامسة . ولكن مورى أثبت(١) أن حوريس المعنى بهذه القصه ليس حوريس إدفو القديم وإنمـا هو حوريس بن إيزيس، وهما معبودان مختلفان . ونصوص القصة تدل على ذلك دلالة صريحة . وهذه القصة تذكر حوريس على أنه لقب ملكى ، وعلى أنه مندمج مع رع، لا على أنه معبــود وثنى . وحوريس لم يصر كذلك إلا فى نهاية الأسرة الثانيــة . وإذن ليس المعنى بالقصة حوريس إدفو الذى لا محــل للشك فى وجوده قبــل وجود الأسر، وإنمـا المعنى حوريس اخر، هو حوريس بن إيزيس الذى خرجت قصته من الوجه البحرى وسرت عبادته إلى الوجه القبلى ثم اندمجت فى عبادة رع وصار الملوك — منذ الأسرة الثانية — كلما ارتقوا العرش حملوا أسماء مشتقة من اسمه بجانب أسمائهم الأصلية .

وقال مورى إن السبب فى هــذا الخطأ راجع إلى أن ماسبيرو أخطأ فى قراءته إحدى كلمات القصة ، وهى كلمــة (mesentiou) فذهب إلى أن المــراد بها قبيلة كانت تسمى « قبيــلة الحدّادين » كانت تقيم فى أعالى النيــل، لأن الكلمة تؤدى هذا المعنى فى اللغة المصرية . ثم استنتج ماسبيرو من دلك أن هذه القبيلة هى التى وفدت على مصر بقيادة حوريس . وقد أرشد مورى إلى هذا الخطأ فأثبت الكلمة على صحتها وهى (mesenou) ومعناها « حملة الخطاطيف » أى أهل الإقليم السابع من أقاليم الدلتا ، وكانوا يلقبون بذلك لأنهم كانوا معروفين بصــيد عجول البحر من البحيرات المجاورة لهم بالخطاطيف . ولهــذا كان الخطاف رمزا قديما لإقليمهم . وإذن تكون القصــة منصرفة إلى حوريس بن إيزيس ، وإلى زحفــه من الوجه

---

(١) كتاب (Le Nil et la Civilisation) ص ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧

(لوحة رقم ٧)



الكاهن رع — نوفر (فى عصر الأسرة الخامسة) ويعتبر تمثاله هذا من روائع الفن فى العهد الممفيسى

البحرى الذى نشأ فيــه ، ثم إلى حروبه ضد سيت عدوّ أبيــه أوزريس ، بعكس ما ذهب إليه ماسبيرو .

وغزو الوجه البحرى للوجه القبلى فى العصر الذى يسمى «عصر ما قبيل الأسر» ، وهو الذى سبق عصر الملك مينا ببضع مئات من السنين ، صار الآن من الأمور التى يسلم بها أغلب العلماء . ولهم على ذلك أدلة قوية لا محل هنا للافاضة فيها .



هذا هو الدليل التاريخى الوحيــد ، أو الشبيه بالتاريخى ، قد انهــدم من جميع نواحيه ، فبقيت الأدلة الأخرى وهى استعمال معدنى النحاس والذهب ، واستخدام الضمائر فى اللغــة المصرية على النحو الذى تستخدمها به الشعوب الساميــة ، وشىء من الشــبه بين المبانى فى عهــد الأسرة الأولى والمبانى فى الكلدان ، وزخرفة بعض الأدوات برسوم حيوانات خرافيــة ذات أعناق طويلة ، واستعمال « الخرطوش » فى كتابة أسمــاء الملوك ، فسنرد هنا على هــذه الأدلة جملة وسنقف عند ما يستحق الوقوف منها .

لم تكن مصر حين بدأت تباشير المدنيــة تظهر فيها ، منعزلة عن الأمم المجاورة لهــا ، بل كانت على صلات مستمرة بها ، تجارية وغير تجارية . فكانت معاملاتها لا تنقطع مع قبائل النوبة جنوبا والشــعوب الليبية غربا والبلاد الأســيوية شرقا وسكان جزائر البحر الأبيض شمالا . وكانت تأخذ من هذه الأمم المواد الأوّلية التى تنقصها وتعطيها مصنوعاتها ومنتجاتها . وكانت هــذه الأمم نفسها تعرف أن مصر سبقتها فى الزراعة والصناعة والإنتاج وأنها صارت بفضل الزراعة بلاداً غنيــة تدر الخــير على أهلهــا ، فكانت تلتمس عندها بعض هذا الخير من طريق المبادلات أو من طريق السطو على حدودها ونهب ما تصل إليه أيديها . ولم يحل دون هذا الاتصال وجود صحراء ليبيا وصحراء سيناء فى حدود مصر الغربية والشرقية ، كما لم يحل

دونه وجود البحر الأبيض فى حدودها الشمالية . وقد ظن بعض العلماء إلى زمن قريب أن وجود هاتين الصحراوين والبحر الأبيض جعل مصر تعيش فى عصر ما قبل الأسر منعزلة عن العالم ، كأنها فى صندوق مقفل ، إلى أن اتصلت بالأمم المجاورة لها فى عصر الأسر وأخذت تفكر فى الغزو والفتوحات . وأصحاب هذا الرأى هم الذين يستغربون وجود شبه بين المبانى وزخرفة الأدوات فى مصر والمبانى وزخرفة الأدوات فى الكلدان . وهم كذلك الذين يستغربون استخدام الضمائر فى اللغة المصرية على النحو الذى تستخدم به عند الشعوب السامية . ولا تفسير عندهم لهذا التشابه غير الذهاب الى بعيد ، والقول بأن قبائل كلدانية غزت مصر وعلمتها أسباب المدنية ، فى حين أن التفسير الصحيح هو اتصال مصر بجاراتها واتصال هذه الجارات بها ثم تأثر كل منهما بالأخرى . وقد أصبح هذا الاتصال الآن حقيقة مسلما بها لأن الأدلة المادية قامت عليه فلا حاجة لأن نتوسع فيه .

وفى هذا الاتصال لا بد أن تكون مصر قد نقلت أشياء عن الكلدان ، كما لا بد أن تكون الكلدان قد نقلت أشياء عن مصر . وهذا النقل إما أن يكون بطريق مباشر ، أو بواسطة القبائل السامية التى كانت هائمة إذ ذاك فى سوريا وفلسطين وكانت على علاقات دائمة بالبلدين معا ، أو بواسطة جزائر قبرص ورودس وكريت التى صار من الثابت الآن أنها كانت فى عصر ما قبل الأسر على صلات مستمرة بمصر من ناحية وبالكلدان من ناحية أخرى . أو ربما كان الأصح أن هذه العوامل كلها كانت تعمل معا فى سبيل النقل بين البلدين .

---

(١) كان المصريون يسمونه الأخضر الكبير لأن واضعى أسطورة أوزريس قالوا إنه لما قتله أخوه سيت ثم وضعه فى صندوق وألقاه فى البحر سار الصندوق إلى البحر الأبيض المتوسط وعام فيه متجها إلى ميناء بيلوس (هو جبيل الآن) . وحينئذ اخضر لون الجثة ثم اسود . ومن هنا سمى هذا البحر الأخضر الكبير (راجع فى ذلك ص ٩٦ من كتاب (La réligion des Eg.) تأليف أدولف إرمان (Adolf Erman) الذى كان أستاذا للمصرولوجية فى جامعة برلين وتوفى منذ بضع سنين . وقد نقل كتابه هذا من اللغة الألمانية إلى اللغة الفرنسية (Henri Wild) وطبعه فى باريس فى سنة ١٩٣٧ تحت العنوان الذى تقدم ذكره .

ولم تتصل مصر بالساميين والكلدانيين فقط ، بل اتصلت بالقبائل الأفريقية أيضا وأخذت منها، فظهر أثر لغاتها فى اللغة المصرية . وقد عرف العلماء هذا الأثر فى السنين الأخيرة [1] حتى لقد قالوا إن صلة اللغة المصرية باللغات الأفريقية أقوى من صلتها باللغات السامية . وبذلك يسقط البرهان المأخوذ من تشابه استعمال الضمائر فى اللغة المصرية واللغات السامية .



والآن لم يبق من الأدلة غير استعمال معدنى النحاس والذهب . والرأى عند أصحاب هذا الدليل أن الكلدانيين عرفوا استعمال النحاس والذهب قبل المصريين، وأن الغزاة الذين غزوا مصر منهم هم الذين علموا أهلها هذا الاستعمال، فننظر هل هذا صحيح . ويجب فى بحثنا هذا أن يكون ماثلا فى أذهاننا أن الغرض الذى دعا إلى الأخذ بهذا الدليل هو القول الفاسد بأن المدنية وجدت فى مصر فجأة، وفى عصر سابق على عصر الأسر بقليل، فهى لم تترب جذورها فيها، وإنما انتقلت اليها على يد قوم مغيرين . وقد بينا فى كل ما مضى فساد هذا القول وأثبتنا أن عناصر المدنية تربت كلها فى مصر وأخذت تنمو فيها شيئا فشيئا منذ العصر الحجرى ، وكان يحق لنا أن نكتفى بذلك، لأن استعمال النحاس والذهب ليس أهم فى بناء المدنية من الزراعة ، ولا من استخلاص النباتات الصالحة لغذاء الانسان من النباتات الوحشية، ولا أهم من التعاون على تنظيم مجرى النيل، ولا من إيجاد المناطق الاقليمية والحكومات الاقليمية ثم الحكومة الواحدة، نقول ليس استعمال النحاس والذهب بأهم فى بناء المدنية من هذه الأسس، بل هو دونها، ولكننا لا ندع هذا الدليل من غير تفنيد، لأنه ليس من الحق فى شىء أن يقال إن المصريين لم يعرفوا استعمال النحاس والذهب إلا على يد غزاة من الكلدانيين، وقبل عصر الأسر بقليل .

---

(١) راجع فى ذلك كتاب (Les Peuples de l'Orient Méditerranéen) تأليف (Et. Drioton) مدير مصلحة الآثار المصرية و (Jaques Vendier) ص ٤ و ٥ طبعة باريس فى سنة ١٩٣٨

لا يزال العلماء يواصلون البحث فى عصر ما قبل الأسر فمن المجازفة أن يقول قائل إن الكلمة الأخيرة قد قيلت فيه . ولكن هناك حقائق دلت عليها الحفائر فى مناطق مختلفة عرف أن بعضا منها خلفه المصرى حينما كان قريبا من الحالة الوحشية وكان يعيش على صيد الحيوانات أكثر من عيشه على الزراعة، و بعضا آخر حينما صار أكثر عيشه على الزراعة و بدأ يستخدم الحيوانات، و بعضا ثالثا حينما خطا خطوة إلى الأمام بعد ذلك، و بعضا رابعا حينما خطا خطوة أوسع وأخذ يمهد لعصر الأسر .

فالحالة الأولى تمثلها حفائر دير تاسا ويسمى عصرها عصر تاسا أو حضارة تاسا . والثانية تمثلها حفائر البدارى ونقادة وتسمى حضارة البدارى . والثالثة تمثلها حضارة العمرة . والرابعة تمثلها حضارة جرزة . وهذه المناطق كلها قائمة فى الوجه القبلى . أما فى الوجه البحرى فقد وجدت حفائر مرمدة بنى سلامة وحفائر المعادى وهما أرقى من حضارة البدارى، ولكن لم توجد حفائر يمكن ترتيبها على النحو الذى رتبت به الحفائر فى الوجه القبلى، لسبب ظاهر هو أن الأرض فى الوجه البحرى رخوة فالنيل وطميه يجعلانها أقل من أرض الوجه القبلى احتفاظا بما فيها .

ففى حضارة البدارى، أى عند الدرجة الثانية من درجات سلم الصعود إلى المدنية المصرية، عرف المصريون النحاس واستعملوه . وقد وجدت أدوات منه فى قبورهم . وفى ذلك يقول جوردن شيلد[١] بعد أن تكلم عن حضارة تاسا ثم شرع يتكلم عن حضارة البدارى .

(١) (V. Gordon Childe) هو أستاذ علم الآثار فى جامعة أدنبره، وقد اشتهر بحفرياته فى الهند والعراق ومصر، ثم بمؤلفاته فى عصور ما قبل التاريخ لهذه البلاد جميعا . ويعتبر كتابه عن «الشرق فى ما قبل التاريخ» زبدة بحوثه هذه . وقد وضعه بالانجليزية ونقله (J. Lévy) الموظف بمتحف (Guimet) بباريس الى اللغة الفرنسية فى سنة ١٩٣٥ تحت عنوان : (L'Orient Préhistorique) . وعن هذه الترجمة ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣ نقلت ما نقلته هنا .

" ... ... وحينئــذ بدأ يشتد البحث عن مواد أولية ، فأدى ذلك إلى استخدام عنصر اقتصادى جديد هو عنصر المعاملات التجارية . ومن المؤكد أن معــدن الدهنج الذى كان يســتعمل إذ ذاك فى تكحيل العيون كان يجلب من سيناء والنوبة . وقد وجدت فى قبور عصر البدارى قواقع كثيرة من البحر الأحمر وقطع من خشب الأرز وخشب الراتنج ، ممـا يفهم منــه وجود علاقات بين مصريى البــدارى وبين سوريا[1] . وفى هذا الوقت عرف البداريون خواص معدن النحاس ، فعرفوا قابليته للطرق ولكنهم لم يهتدوا إلى قابليته للانصهار " .

ويستمر جوردن شيلد فيقول بعد ذلك بقليل :

" كان البــداريون يلبسون ملابس من جلود الحيــوانات ... ... وكانوا يكحلون عيونهم بمعــدن الدهنج[2] ... ... وكانوا يضعون فى أعناقهم وأوساطهم عقودا أو أحزمة فيها قطع من النحاس " .

أما برستيد[3] فقد قال فى كلامه عن مصر البدائية :

" كان المصريون البدائيون يصــنعون ويستعملون أسلحة وأوانى من البرنز . ويمكن وضــع العصر الذى كانوا يعيشون فيه إذ ذاك فى زمان الانتقال بين عصر الحجر وعصر استعمال النحاس . وكانوا يعرفون الذهب والفضة والرصاص ، ولكنهم لم يكونوا يستعملونها إلا قليلا " .

وتكلم دريوتون[4] عن حضارة البدارى فقال :

" ... ... وكان النحاس فى ذلك الوقت قليلا فكان استعماله مقتصرا على الأدوات الصغيرة كالدبابيس التى تستخدم لتعليق الجلود أو كالابر أو أسنان الخطاطيف أو المكاشط أو أزاميل النجارة . وقــد عرف المصريون منــذ ذلك الوقت أنه قابل للانثناء ، وأنه قليل الصدأ ، فكانوا يصنعون منه تلك الأدوات ، ولكنهم كانوا يصنعونها منه وهو على حالته الطبيعية وبطريقة الطرق والصقل " .

ذلك فى حضارة البدارى ، أما فى حضارة العمرة التى تلتها فقد تقدمت صناعة النحاس والذهب وجلب المصريون اللازورد من سوريا .

(١) قلنا فيما تقدم إن المصريين فى عصر ما قبل الأسر كانوا على اتصال بجيرانهم فى فلسطين وسوريا وجزائر البحر الأبيض وليبيا والنوبة فهذا هو بعينه الذى يقوله جوردن شيلد هنا .

(٢) الدهنج هو المعدن الذى يسمى باللغة الفرنسية (malachite) .

(٣) ص ٢٩ من الترجمة الفرنسية لكتابه (A History of Eg.) وقد سبق ذكرها .

(٤) ص ٣٧ من كتاب (Les Peuples de l'Orient Méditerranéen)

هؤلاء إذن هم المصريون عرفوا النحاس والذهب منذ حضارة البداری . ولم يكونوا يجلبونهما من الكلدان ، ولا من بلاد قريبة من الكلدان ، بل كانوا يستخرجونهما من سيناء والنوبة ومن مناجم لهما فى مصر . وبين حضارة البدارى وعصر الأسر بضعة ألوف من السنين عاشت فيها حضارة العمرة ثم حضارة جرزة ، فعلى الذين يزعمون أن المصريين لم يعرفوا النحاس والذهب إلا بعد أن دخل بهما الكلدانيون ، أن يثبتوا أن هؤلاء الكلدانيين جلبوهما قبل عصر الأسر بألوف من السنين ، وليس إلى هذا الإثبات من سبيل .

ويحسن أن ننقل هنا كلمة كتبها فى ذلك مورى ودافى[1] فقد قالا :

"حينما كان المصريون قبل الميلاد بنحو ٤٥٠٠ سنة[2] ، يستخدمون النحاس ويصنعون الأدوات المعدنية ، كان غيرهم من أمم العالم لا يزال يستخدم الأدوات من الحجر ، أو هذا على الأقل هو ما وصلت إليه معلوماتنا إلى الآن . ولذلك تفوق سكان وادى النيل تفوقا لم يكن فى استطاعة الأمم الأخرى أن تقاومه . وفى هذا الوقت نفسه أخذ جيران مصر يظهرون على الآثار المصرية الأولى ، وبهذه الآثار صرنا نستطيع درس العلاقات الأولى التى كانت متبادلة بين أمم الشرق القديم" .

وإليك كلمة أخرى كتبها جوردن شيلد فقال فيها إنه إن كانت توجد وجوه من الشبه بين مصر والكلدان فليس معنى ذلك أن الكلدانيين جلبوا المدنية إلى مصر ، ولا أن مصر أخذت منهم ، وإنما قد يكون معناه الأصح أن الكلدان وبلادا أخرى هى التى أخذت من المدنية المصرية . قال بعد أن فرغ من شرح الحضارات المختلفة فى عصر ما قبل الأسر[3] :

"... ... إلى هنا كان من الممكن تفسير التقدّم الذى تقدّمته المدنية فى وادى النيل بعوامل متواصلة مستقلة عن الخارج . ومع أن هناك أكثر من عنصر عالمى كان له أثر فى هذا التقدّم ، ومع أننا نستطيع

(١) (A. Moret, G. Davy) فى كتابهما : (Des Clans Aux Empires) ص ١٩٣

(٢) يلاحظ هنا أن مورى ودافى يأخذان بالتاريخ القصير الذى يجعل الملك منا فى نحو سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد .

(٣) ص ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ من الترجمة الفرنسية التى مر ذكرها .

تمييز حضارتين ، فان جميع الكشوف والمخترعات ذات الأهمية هى بنت حوض النيل . نعم إن حضارة جرزة تحتوى على مظاهر شبه بينها وبين آسيا ، ولكن ليس هناك ما يدل على أن مصر مدينة لآسيا فى هذه المظاهر . ومن الممكن ، نظريا على الأقل ، تفسير مظاهر الشبه هذه بين مصر وبلاد النهرين (يريد الكلدان) بأنها نتيجة تيار من المدنية صادر من مصر" .

ثم استمر جورد شيلدن فأخذ يثبت أن جميع العوامل الطبيعية كانت تجعل من وادى النيل أرضا صالحة للزراعة منذ أقدم العصور، وأن المصريين عرفوا فى حضارة البدارى وحضارة العمرة صنع السفن قبل أن يعرفه سواهم ، وأنهم شرعوا حينذاك يعرفون مبادئ الكتابة ، وأنهم اتصلوا بالبلاد المجاورة لهم فجلبوا منها الخشب ومواد أولية أخرى . ثم قال إن المخلفات التى وجدت فى قبور المصريين فى حضارة البدارى وحضارة جرزه "تدل على أنهم كانت لهم علاقات تجارية تمتد إلى بلاد العجم وأرمينيا وسوريا الشمالية . ومن هذا الاتصال وجدت الفرصة لاحتذاء مثال الكشوف والمخترعات المصرية فى هضاب إيران ، وفى آسيا الصغرى ، وفى جزيرة كريت" .

فنظن بعد ذلك أن ما كان باقيا من نظرية جلب المدنية إلى مصر على يد الكلدانيين قد انهدم . ونظن أيضا أنه صار واضحا أن المدنية المصرية بنت مصر لا بنت بلد آخر، فى مصر تكونت عناصرها الأولى، وفى مصر نمت وتطورت حتى صارت نورا يرسل أشعته إلى القريبين والبعيدين من الأمم .

(لوحة رقم ٨)

قبيلة من كنعان تفد إلى مصر



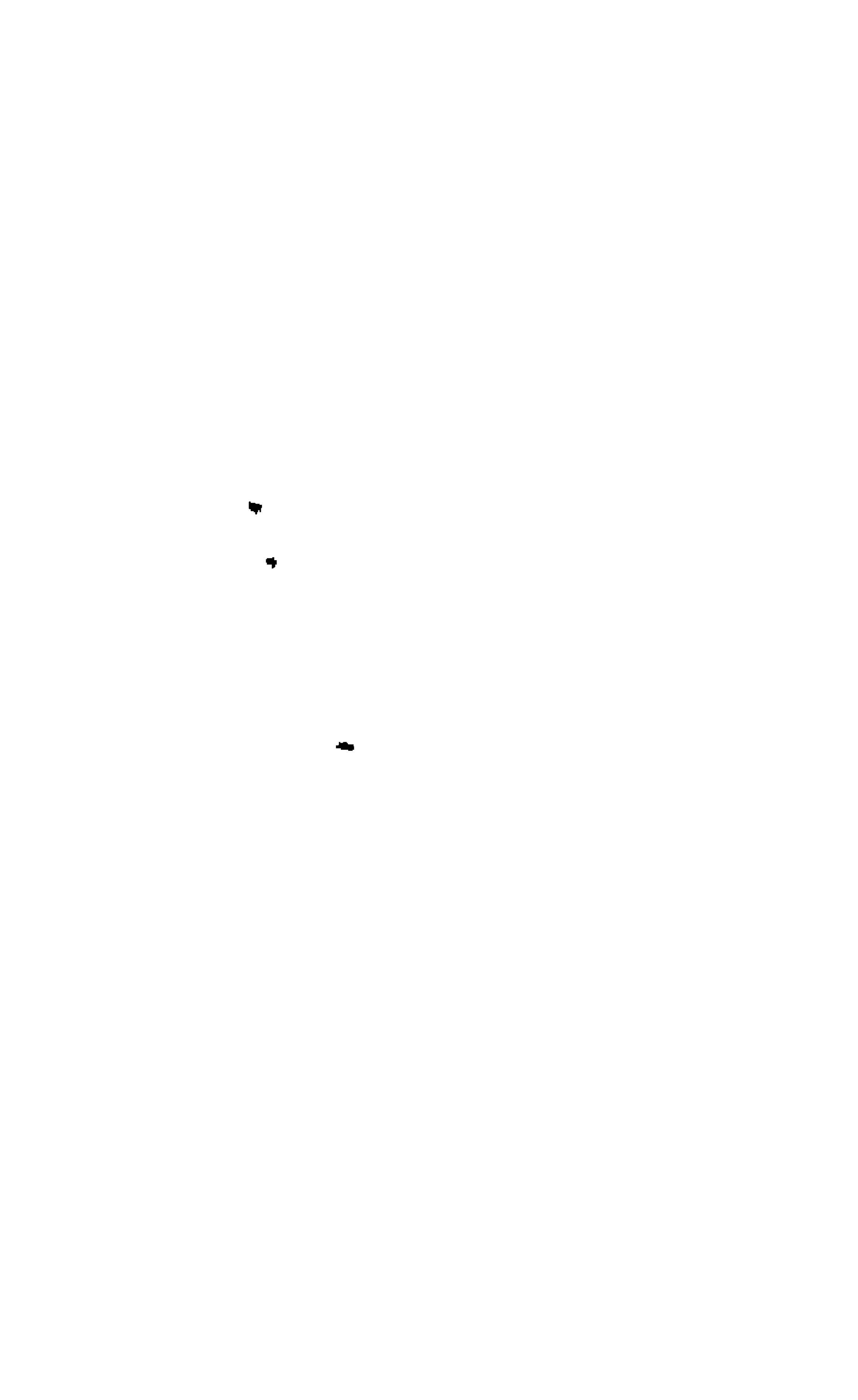
رئيس القبيلة (إلى اليسار) يتقدمه موظفان مصريان

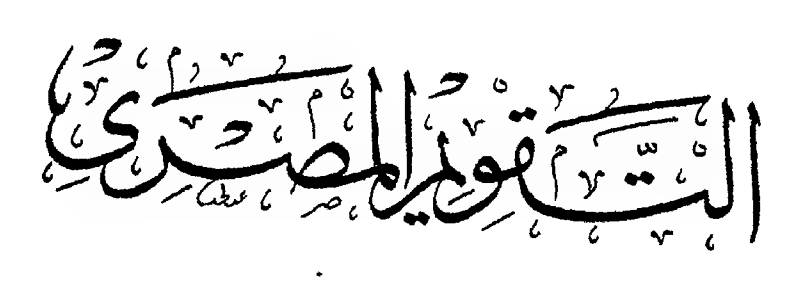


بعض رجال القبيلة



بعض سيدات القبيلة (اقرأ تفسير هذه الصور الثلاث فى ص ٢١٢)




التقويم المصري

حينما بدأ المصريون يقسمون الزمن كان من البديهى أن يعتمدوا فى تقسيمه على القمر، لأنه يبـدو فى أول ظهوره صغيرا، ثم ينمو ليلة فليلة حتى يصير بدرا، ثم يتضاءل ليـلة فليلة حتى يبلغ المحـاق . فهو علامة بارزة كان من الضروى أن يلتفت الانسان إليها وأن يجعلها قبل غيرها قاعدته فى تقسيم الزمن . ومن هنا وجد الشهر القمرى ووجدت الشهور القمرية .

وقد وجد التقـويم القمرى فى مصر، كما وجد فى البـلاد الأخرى ، ثم أخذ المصريون يدركون ما فيـه من العيوب، وأغلب الظن أن البلاد الأخرى أدركت هذه العيوب أيضا ، ولكن المصريين وحدهم هم الذين استطاعوا أن يخرجوا منها إلى تقويم آخر يصلحها ، ليس الحساب فيه قائما على الدورة القمرية، بل على الدورة الشمسية، وهذا التقويم هو الذى وجده يوليوس قيصر حينما جاء مصر فحمله منها إلى روما، وهو بعينه الذى يستعمله العالم الآن باسم التقويم الجريجورى بعد تعديل طفيف فيـه .

أما كيف اهتدى المصريون إلى هذا التقويم الشمسى ، فذلك أنهم لاحظوا أن الشهور القمرية التى تقع فى إحدى السـنين فى زمن الفيضـان ، أو زمن بذر الحبوب فى الأرض ، أو زمن حصـاد الزرع ، تقع بعـد سنين قليـلة فى أزمنة أخرى، فقام البرهان المـادى لديهم على أن هـذه الشهور لا يمكن التعـويل عليها فى ضبط مواسم الزراعة، وهم قوم كانت الزراعة همهم الأول، وكان ضبط أزمنتها ومواعيدها ضرورة لهم قصوى . ففكروا فى إيجاد تقويم يضبط لهم هـذه الأزمنة والمواعيد . وكانوا قد لاحظوا أن كوكب الشعرى اليمانية يسـطع فى الأفق قبيل شروق الشمس فى يوم معين من السنة — هو يوم ١٥ يونيه فى التقويم الجريجورى

المستعمل الآن — ثم يمضى حول كامل حتى تعود الشعرى اليمانية إلى الظهور قبيل شروق الشمس . فحسبوا هذا الحول فوجدوه ٣٦٥ يوما ، فجعلوه سنتهم ، وقسموه إلى ١٢ شهرا ، كل شهر منها ٣٠ يوما . ثم أضافوا إليها خمسة أيام هى التى سميت بعد ذلك أيام النسيء[1] .

وقسموا السنة إلى ثلاثة فصول هى فصل الفيضان وفصل البذر وفصل الحصاد ، كل واحد منها أربعة أشهر .

وقسموا الشهر إلى ثلاثة أثلاث ، كل ثلث منها عشرة أيام . وقسموا اليوم إلى ٢٤ ساعة نصفها لليل ونصفها للنهار .

أما الأشهر فهى بعينها الأشهر القبطية المعروفة الآن وهى توت وبابه وهاتور وكيهك وطوبه وأمشير وبرمهات وبرموده وبشنس وبؤنه وأبيب ومسرى .

وحينما وضعوا هذا التقويم ، اتفق أن وصل فيضان النيل إلى ايلفنتين فى اليوم الذى ظهرت فيه الشعرى اليمانية قبيل شروق الشمس ، فجعلوا هذا اليوم أول سنتهم ، أى أول شهر توت ، لأنه اليوم الذى اجتمعت لهم فيه ظاهرتان : ظهور الشعرى اليمانية قبيل شروق الشمس ووصول الفيضان إلى ايلفنتين .

وكان حسابهم هذا صحيحا ، لا يدخله غير خطأ طفيف مقدره ٦ ساعات وبضع دقائق فى السنة ، فى حين كانت الشهور القمرية تختلف عن الدورة الشمسية

(١) صاغ المصريون حول هذه الأيام الخمسة اسطورة مؤداها أن المعبود جب أى الأرض بنى بالمعبودة نويت أو نوت أى السماء على غير رغبة الأله الأعظم رع . ثم حملت نوت فصنع لها رع طلسما يمنعهما من التناسل فى أى شهر من شهور السنة . ولكن المعبود توت كان يحب نوت فلعب بالزهر مع القمر فكسب منه الجزء المتمم لكل ستين يوما من أيام السنة فتكونت من ذلك خمسة أيام زائدة على شهور السنة ، وفيها استطاعت نوت أن تضع معبودا فى كل يوم . وهذه المعبودات الخمسة هى أوزريس وسيت وإيزيس ونفتيس وحارويريس . وحارويريس هذا هو حوريس الكبير وقد سمى بذلك تمييزا له عن حوريس بن إيزيس . وكان يعبد فى مدينة ليتوبوليس على أنه إله للحرب .

بما لا يقل عن أحد عشر يوما فى السنة ، ولذلك كان اهتداؤهم إلى هذا التقويم القائم على دورة الشعرى اليمانية بالنسبة للشمس عملا بارزا جليلا .

وظهر فى السنين الأولى من وضع هذا التقويم أن الفصول ومواعيد الزراعة تقع فى شهور هى بعينها فى كل سنة . ولكن ذلك الفارق القليل بين التقويم ودورة الشعرى اليمانية أخذ يحدث أثره على مر السنين ، فصارت سنة التقويم تنقص عن دورة الشعرى يوما فى كل أربع سنوات . ثم توالت السنون فصار الفرق يزداد ، وصارت الفصول ومواعيد الزراعة تقع فى شهور غير التى قدرت لها .

ولم يخف هذا الفرق على المصريين ، بل أدركوه وعرفوا أنه ربع يوم فى السنة ، ولكنهم تركوا التقويم على ما هو عليه ، واكتفوا بأن يسجلوا الفرق كلما حانت فرصة لتسجيله (١) .

وبما أن السنة تنقص ربع يوم فمن البديهى أن يتوالى هذا النقص بمقدار أيام السنة مضروبة فى أربعة ، أى ٣٦٥ × ٤ = ١٤٦٠ تضاف إليها السنة التى نقصت فى هذه المدة فيكون المجموع ١٤٦١ ، ومعنى هذا أنه كلما مضت ١٤٦١ سنة اعتدل الحساب من جديد ، وعادت الشعرى اليمانية تظهر قبيل شروق الشمس فى أول توت . ولكنها لا تظهر فيه إلا لمدة اربع سنوات ثم تنقص السنة يوما .



ويستطيع الفلكيون الآن أن يعرفوا دورات الشعرى اليمانية ودورات الشمس فى الماضى كما يعرفونهما فى الحاضر والمستقبل . فهم يعرفون جميع السنين التى

(١) من الكتابات الطريفة التى وصلت الينا خاصة باختلاف الفصول عن الشهور التى قدرت لها فى التقويم كلمات دعابة كتبها طالب علم فى زمن الأسرة التاسعة عشرة فى كراس تمرينه على الكتابة والإنشاء ، هذا تعريبها :

« إلى يا أمون . انقذنى من السنة المختلة . فالشمس لا تسطع ، والشتاء يأتى فى وقت الصيف . والشهور تمشى القهقرى » .

ويؤخذ من قوله «فالشمس لا تسطع» أنه كتب كلماته هذه فى يوم غيم فى فصل الشتاء .

ظهرت فيها الشعرى اليمـانية فى أفق مصر قبيل شروق الشمس ، و يعرفون أيضا أنها لا تظهر كذلك إلا فى منطقة تقع فى الدرجة الـ ٣٠ من خطوط الطول ، وهذه المنطقة هى منطقة الوجه البحرى حيث كانت مدينتا منفيس وهليو بوليس . و بما أن منفيس لم تكن قد أنشئت حينما وضع التقويم المصرى ، فلا بد أن يكون أساس الحساب ظهو ر الشعرى اليمانية فى أفق هليو بوليس ، ويغلب على الظن أن يكون علماء هـذه المدينة ، أى كهنتهـا ، هم الذين وضـعوا التقويم . وهـذا يتفق مع المعروف عن هذه المدينة ، إذ الأدلة قائمة على أنها كانت فى عصر ماقبل الأسر ذات نفوذ علمى ودينى واسع . وقد استمر نفوذها هذا فى عصور الأسر ، واستمرت عبادة معبودها رع إلى أن انتهت المدنية المصرية .

ومما اشتهرت به هليو بوليس (وتسمى فى اللغة المصرية أون) على وجه خاص أن كهنتهـا كانوا فى كل وقت يعنون برصـد الشمس والنجوم . وكانوا يدوّنون نتـائج مشاهداتهم سنة بعد أخرى ، ولهذا أطلق على رئيس كهنتها لقب « المبصر الأعظم » أو «رئيس الذين يبصرون الشمس ، والوحيد الذى يراها وجها لوجه»[1] .



ونتتقل بعد ذلك إلى ما تركه لنـا المصريون عن الفروق بين التقويم ودورة الشعرى اليمانية .

كان المصريون يجعلون للشعرى اليمانية مقاما دينيا ، وكانوا يقيمون لها احتفالا حين ظهورها كل سنة ، ففى عهد تحوتمس الثالث (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة) نقشوا على أحد الصخور فى ايلفنتين أن الشـعرى ظهرت قبيـل شروق الشمس

(١) وجدت لوحة لأحد رؤساء الكهنة وصف نفسه فيها كما يأتى : « القـارئ الذى يعرف وجه السماء ، والمبصر الأعظم فى قصر الأمير » . وقد ترك المصريون عدّة خرائط محفورة على الحجر لأجزاء من السماء . منها خريطة فى معبد الرمسيوم فى الأقصر . وخريطة فى معبد دندره . وسيأتى بحث خاص بها و بالضجة التى أثارها نقلها إلى باريس . وخريطة فى مقبرة سيتى الأوّل .

فى يوم ٢٨ من شهر أبيب بدل اليوم الأول من شهر توت . وهذه البيانات تكفى علماء الفلك فى وقتنا هذا لكى يعرفوا أن ذلك الفارق وقع فى المدة من سنة ١٤٧٤ إلى سنة ١٤٧١ ق م . ومن الضرورى أن نذكر هنا أربع سنوات لأن الفرق فى السنة الواحدة ربع يوم كما تقدم، فلا بد أن تكون الشعرى قد ظهرت فى يوم ٢٨ أبيب أربع سنوات متواليات . وليس من المعروف أى يوم من هذه الأيام الأربعة هو الذى أريد بما نقش على صخرة ايلفنتين فى عهد تحوتمس الثالث . وإذن تبين أن تحوتمس الثالث كان جالسا على عرش مصر فى الوقت الذى سلفت الإشارة اليه .

وجاء فى ورقة من أوراق البردى الطبية تسمى « ورقة ايبرس[1] » أنه فى السنة التاسعة من حكم الملك أمينوفيس الأول (ثانى ملوك الأسرة الثامنة عشرة) ظهرت الشعرى قبيل شروق الشمس فى يوم ٩ أبيب . فعلماء الفلك يعرفون أن هذا الحادث لا بد أن يكون قد وقع فى المدّة من سنة ١٥٥٠ إلى سنة ١٥٤٧ ق م . ومن هنا يمكن أن يقال إن الأسرة الثامنة عشرة جلست على العرش فى نحو سنة ١٥٨٠ ق م .

وفى ورقة من البردى تعرف باسم ورقة اللاهون أنه فى عهد الملك سنوسريت الثالث (أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة)، وفى السنة السابعة من حكمه، ظهرت الشعرى فى ١٦ برموده بدلا من أول توت . فعلماء الفلك يعرفون أن هذا الحادث

(١) (Georg Ebers) هو عالم ألمانى ولد فى سنة ١٨٣٧ وتوفى فى سنة ١٨٩٨ وقد شغف بعلم الآثار المصرية فانصرف إليها أغلب أيام حياته وزار مصر عدّة مرات واشترى فيها ورقة من أوراق البردى وترجمها فاتضح أنها تبحث فى الطب عند المصريين، فذاعت شهرتها عند علماء الآثار المصرية . ووضع إيبرس كتبا عدّة عن مصر بعضها بحوث علمية وبعضها الآخر روايات تخيلها وجعل موضوعاتها تدور حول مصر القديمة .

وقع فى المــدّة من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٧٩ ق م . ومن هــذا يؤخذ أن ابتداء جلوس الأسرة الثانية عشرة على العرش يقع حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م (١) .



وهنا سؤال لا بد منه ، وهو هل ترشدنا هذه البيانات إلى الوقت الذى وضع المصريون فيه تقويمهم هذا ؟ .

فعــلى هذا السـؤال يجيب علمــاء الفلك فيقولون إن التقويم ابتــدأ فى يوم ظهرت فيه الشعرى فى أوّل توت ، والحساب الفلكى يدل على أن هــذا الحادث وقع قبل سنة ٢٠٠٠ (التى تقدّم أن الأسرة الثانية عشرة جلست فيها على العــرش) فى المدّة من سنة ٢٧٨١ إلى سنة ٢٧٧٨، ثم قبل ذلك بـ ١٤٦١ سنة أى فى المدّة من ٤٢٤١ إلى ٤٢٣٨ . فالتقويم لا بد أن يكون قد وضع فى إحدى هاتين المدّتين أو قبلهما . فأمّا المدّة الأولى فيجب طرحها جانبا ، لأن نقوش أهرام سقارة تذكر، فيما تذكره ، الأيام الخمسة التى تضاف إلى الشهور الاثنى عشر لتكملة الســنة، فمعنى ذلك أن التقويم كان مستعملا فى وقت بنــاء الأهرام ، ومعناه أيضــا أن الفرق بين ابتــداء الأسرة الثــانية عشرة وهذه المدّة، وهو نحو ٧٨١ ســنة، لا يمكن أن يكون كافيا للأسر التى حكمت مصر من وقت بناء أهرام سقارة إلى وقت ارتقاء الأسرة الثانية عشرة إلى عرش الحكم .

وإذن لا بدّ من الرجوع إلى المــدّة الثانية، وهى كما قلنا من ســنة ٤٢٤١ إلى سنة ٤٢٣٨ . وإذن تكون هذه المدّة أقرب زمن يمكن أن يقال إن التقويم كان موجودا فيه . أما وضع التقويم فلا يعرف زمنه . ومن المرجح أن يكون قبل هذه المدّة .

(١) يرى بعض العلمــاء فى المصرولوجيا أن هــذا الحساب ينقص دورة كاملة من الدورات التى يعتدل بها التقويم . وعلى هذا فالأسرة الثانية عشرة عندهم تبتدئ فى سنة ٣٥٧٩ ق م . والأسرة الأولى تبتدئ فى سنة ٥٥٤٦ ق م . وهذا هو ما يسمى عند العلماء بالتاريخ الطويل . أما التاريخ القصير الذى يأخذ به أغلب العلماء فى الوقت الحاضر فانه يجعل ابتداء الأسرة الثانية عشرة فى سنة ٢٠٠٠ ق م . وابتداء الأسرة الأولى فى نحو سنة ٣٢٠٠ أو ٣٤٠٠ ق م .

فاذا نحن أخذنا بالتاريخ القصير الذى يقول إن الملك مينا حكم فى نحو سنة ٣٢٠٠ق م . فالتقويم المصرى كان موجودا قبل هذا الملك بأكثر من ألف سنة . ومن البديهى أن المدنية المصرية لم تستطع وضع هذا التقويم إلا بعد أن كانت قد وصلت إلى درجة من الحضارة مكنتها من رصد دورة الشمس ودورة الشعرى اليمانية وجعلهما أساسا للسنة .

ولا نختم هذه الكلمة قبل أن نذكر أن برستيد كان من المعجبين بقدرة المصريين على وضع هذا التقويم فى ذلك الزمن القديم فقال (١) :

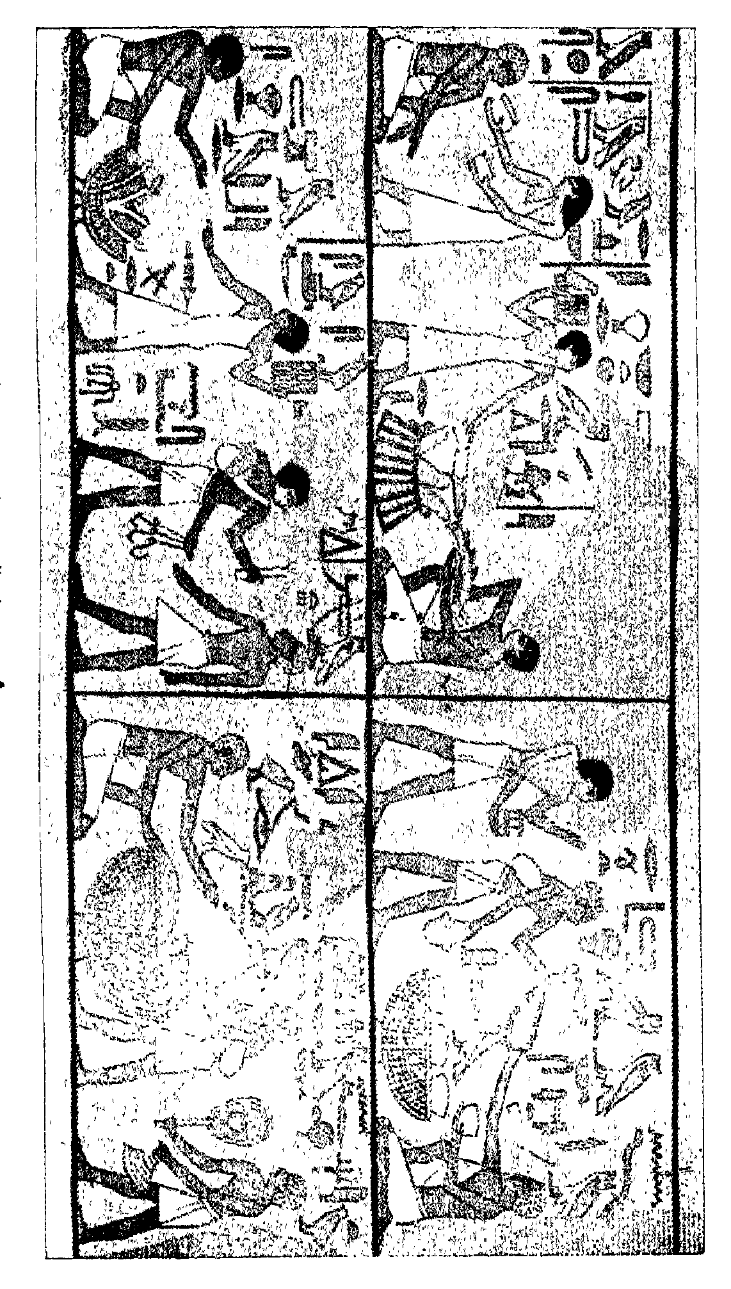
« إن هذا التقويم العظيم الذى كان يستعمل فى عصر بعيد ، هو بعينه الذى يستعمل فى أيامنا هذه . فقد حمله يوليوس قيصر من مصر إلى روما فاستعمل فيها على أنه أفضل تقويم . ثم ورثناه نحن عنها . وبذلك يكون قد استعمل بغير انقطاع أكثر من ستة آلاف سنة . وقد كان المصريون من أهل الوجه البحرى ، الذى عاشوا فى نحو القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، هم أصحاب الفضل علينا فيه . ومن المهم أن نلاحظ أنه خرج من أيدى واضعيه الأولين ، بشهوره الاثنى عشر ، والتى كان كل شهر منها ثلاثين يوما ، أفضل مما صار إليه بعد أن عدّله الرومانيون » .

وقد كان الذى فعله يوليوس قيصر أنه لما جاء إلى الاسكندرية وجد فيها التقويم المصرى ، وكانت روما لا تزال تستعمل التقويم القمرى ، فلما عاد إليها حمله معه ، فأخذه الرومانيون وأضافوا إليه يوما كل أربع سنوات ، فتكون كل سنة من السنوات الثلاث الأولى ٣٦٥ يوما ثم تكون السنة الرابعة ٣٦٦ يوما ، وسموا الثلاث السنوات الأولى بسيطة والسنة الرابعة كبيسة .

وفى سنة ١٥٨٢ قرر مجمع الكرادلة برياسة البابا جريجوار الثالث عشر إدخال تعديل طفيف على التقويم الرومانى ، فسمى تقويمه التقويم الجريجورى ، وهو الذى يستعمله العالم الآن ، وهو التقويم المصرى معدّلا تعديلا طفيفا .

(١) ص ٣٥ من الترجمة الفرنسية لكتابه عن تاريخ مصر . وقد مرت الاشارة إليها

(لوحـة رقـم ٩)



فى سوق البيع والشراء (اقرأ تفسير هذه الصورة فى ص ٢١٥)



بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية

قامت بين سنة ١٧٩٣ وسنة ١٨٨٠ معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية شغلت بها أوربا فى هذه المدّة الطويلة . وكان منشأها أن الكنيسة وقسسها وقعوا فى خطأ ألبسوه ثوب الدين وجعلوا منه عقيدة من أنكرها خرج على الكنيسة وكفر بالدين . وكان كثير من البحث العلمى فى ذلك الوقت واقعا فى أيدى القسس، فما عرض واحد منهم لهذه العقيدة إلا وهى عنده من الحقائق الثابتة التى لا يرق الشك إليها . وما زالوا كذلك حتى هب عليهم علم الآثار المصرية ، فثار بهبوبه غبار، ثم اشتدّ هـذا الغبار فتحوّل إلى معركة حامية تقف منها الكنيسة وقسسها فى جانب وتقف الآثار المصرية فى جانب آخر، إلى أن انهزمت العقيدة بعد حوالى تسعين سنة، وحينئذ أفاقت الكنيسة وأفاق قسسها فاعترفوا جميعا بأنهم مخطئون وأن الآثار المصرية انتشلتهم من باطل كانوا فيه مخدوعين .



وموضوع هذا الخطأ أن فى التوراة، أو « كتاب العهد القديم »، نصوصا عن خلق العالم وتسلسل الأجيال من آدم (عليه السلام) إلى نوح (عليه السلام) . وقد ذكرت التوراة فى هذا التسلسل أعمار الأشخاص واحدا بعد الآخر، فكان من السهل على الذين يجمعونها أن يحدّدوا الزمن الذى مضى على خلق الانسان . ونذكر هنا شيئا من نصوص التوراة على سبيل المثال .

ففى « الاصحاح الخامس » من « سفر التكوين » ما نصه :

« هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الانسان على شبه الله ؛ عمله ذكرا وأنثى، خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق . وعاش آدم مئة وثلاثين سنة وولد ولدا على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا . وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثا ثمانى مئة سنة . وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسع مئة وثلاثين سنة ومات .

« وعاش شيث مئة وخمس سنين وولد أنوش . وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانى مئة وسبع سنين وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام شيث تسع مئة واثنتى عشرة سنة ومات ... الخ ... ... الخ » .

وتستمر النصوص على هــذا المنوال حتى تصل إلى نوح ثم إلى إبراهيم . فعلى هذه النصوص استند الذين قدروا عمر الانسان على الأرض . ثم لمـا كانت هــذه النصوص قد اختلفت باختلاف النسخ فقد اختلف تبعا لذلك تاريخ خلق الانسان . وذلك أن هناك ثلاث نسـخ للتوراة كل واحدة منهـا اعتبرتها الكنيسة مقدّسة : نسخة عبرية ونسخة سامرية ونسخة سبعونية . ففى الأولى يبلغ مجموع الأعمار من آدم إلى إبراهيم ٢٠٢٣ سنة . وفى الثانية يبلغ مجموع هذه الأعمار نفسها ٢٣٢٤ سنة . وفى الثالثة يبلغ هذا المجموع ٣٣٨٩ سنة . أما المدّة من إبراهيم إلى عيسى (عليـه السـلام) فهى ٢٢٠٠ سـنة . وبهذا تكون أقصى مدة قدرت من خلق الإنسان إلى رسالة عيسى هى ٥٥٨٩ سنة .

وقد أخذت الكنيسة هذه الأرقام قضية مسلما بها ، وجعلتها إحدى العقائد المقدّسة ، فانتشرت فى المؤلفات الدينية وسرت منها إلى المؤلفات العلمية التى ألفها القسوس . وهذا هو الخطأ الذى أخذ العلم المصرى يصدمه منـذ سنة ١٧٩٣ ، فثارت الكنيسة وثار معها أنصارها فى أوربا كلها على مصر والعلم الذى يأتى منها ، فتغلبوا فى بدء المعركة ، ولكن الصدام استمر ، فكان العلم المصرى ينهض يوما و يكبو يوما ، وبلغ من حمو المعركة أن اشترك فيها أكبر العلماء من الجانبين واشتغل بهـا رجال الدين ورجال العلم ورجال السياسة ، لا بل اشتغل بها البابا ليون الثانى عشر نفسه . وأخيرا انتصر العلم المصرى فقضى على الخطأ واعترف بانتصاره الذين حاربوه .

والآن فلنخض ميدان المعركة ولنتتبع أطوارها واحدا بعد واحد .



فى سنة ١٧٩٣ كان عالم فرنسى يسمى ديپوى (Dupuis) قد درس البروج التى وجدت فى بعض المعابد المصرية فألف كتابا استنتج فيه من علامات فى هذه البروج ومن حساب حسبه أولا أن المصريين هم أول من اخترع رسم هذه البروج،

(١) هذه البروج هى رسوم مستديرة على المبانى تمثل مناطق من السماء والكواكب والبروج الفلكية .

وثانيا أن عمر البروج المصرية يبلغ ١٣ أو ١٥ ألف سنة قبل ميلاد المسيح . ثم قال: « و بما أن شعبا من الشعوب لا يستطيع أن يخترع هذه البروج فى مستهل حضارته فالحضارة المصرية ترجع إلى أبعد من ١٥ ألف سنة » .

وكان ديپوى ذا سلطان بين العلماء فدوت كلمته هذه عندهم ورأى كل واحد منهم فيها تحديا لنصوص التوراة وللعقيدة التى قدّستها الكنيسة ، ولكنهم تركوها تمرّ كما تمرّ الأشياء التى تستحق الإهمال .

و بعد ذلك ببضع سنوات ، أى فى سنة ١٧٩٨ ، غزا نابليون بونابرت مصر وزار العلماء الذين كانوا يرافقونه الصعيد فشاهدوا برجين فى سقوف معبد دندرة و برجين آخرين فى معبدين بالقرب من إسنا . ولاحظوا أن قواعد التقسيم فى هذ البروج كلها واحدة ولكن العلامات ومناطق الكواكب مختلفة ، ففى إسنا تبتدئ البروج بالعذراء وفى دندرة تبتدئ بالأسد ، فاستنتجوا من ذلك أن الغرض هو الدلالة على الوقت الذى بنيت المعابد فيه ، وأن معبدى إسنا بنيا حينما كانت الشمس فى فلك العذراء وأن معبد دندرة بنى حينما كانت الشمس فى فلك الأسد . وهذا معناه أن معبدى إسنا يرجعان إلى ٧ آلاف سنة وأن معبد دندرة يرجع إلى ٤ آلاف سنة .

ونشرت جريدة المونيتور (Moniteur) التى كانت الحملة الفرنسية تصدرها فى القاهرة هذا الخبر فى عددها الصادر فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٠٠ ، وقالت إن معابد إسنا ودندرة تعتبر مع ذلك من أحدث المعابد المصرية . ووصل هذا الخبر ، ووصلت جريدة المونيتور ، إلى دوائر أوربا الدينية والعلمية ، فأحدثا فيها رجة ، وأخذ المتسائلون يتساءلون: ماذا ؟ ٤ آلاف سنة و٧ آلاف سنة ؟ ! ... ومعابد إسنا أحدث المعابد ؟ ! ... والبلاد التى تعرف بروجا كهذه البروج وترسمها بهذه الدقة الفلكية يجب أن تكون حضارتها قد استمرت قبل ذلك ألوفا أخرى من السنين ؟ ! ... فالمصريون الذين هم أهل هذه البلاد متى وجدوا ، وكم من الزمن قطعوا

حتى خرجوا من الهمجية إلى المدنيـة ؟ ! .. وهـل يصح حينئذ قول ديپوى إن الحضارة المصرية ترجع إلى أكثر من ١٥ ألف سـنة ... ؟ ! وأى شىء يبقى من نصوص التوراة إذا كانت الحضارة المصرية والآثار المصرية فى هذا القدم ؟ ! ... ولكن لا ، ثم لا ، فان التوراة مقدّسة ، فهى صادقة ، أما مصر وآثارها والريح التى جاءت تهب من ناحيتها ، فهى كلها زور وخداع .

تلك هى الضجة التى ثارت فى الدوائر العلمية والدينية على أثر ديوع الخـبر عن بروج إسنا ودندرة . وحينئذ انقسم العلماء فريقين ، فريقا يقول إن الآثار المصرية تثبت أن خلق الانسان أقدم من الزمن الذى حدّدته له التوراة ، وفريقا يتمسـك بالتوراة ويدافع عنها . فمن الفـريق الأوّل ديپوى الذى مر ذكره ، وبورخارت (Bourckhardt) وريمى ريج (Remi Raige) وفوريي (Forrier) وجولوا (Jollois) وديڤليرز (Devilliers) . أما الفريق الثـانى فكانت تقوده الكنيسة وكان يتولى زعامته الأب تيستا (Testa) سكرتير البـابا فى روما ويعاونه ڤيسكونتى (Visconti) والأب جريبو (Greppo) والقسيس هالمـا (Halma) وليـترون (Letronne) وغيرهم .

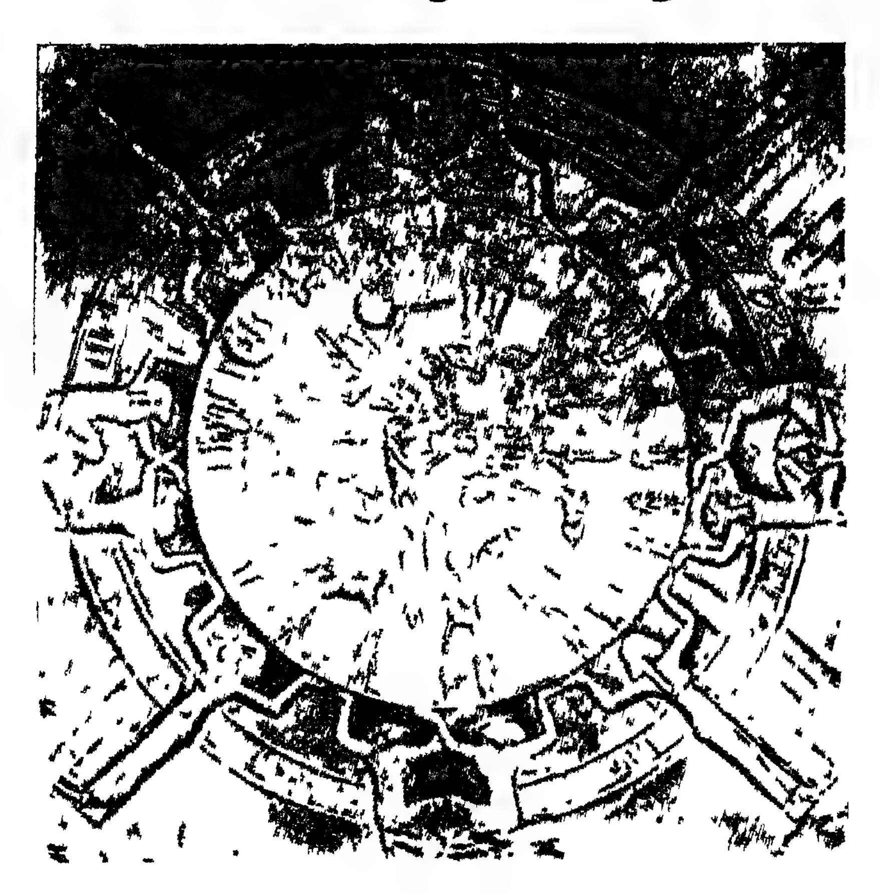
وحميت المعركة بين هدين الفريقين من العلماء ، وكانت نظرية الفريق الثانى أن البروج التى وجدت فى إسنا ودندرة لا ترجع إلى أكثر من القرن الثالث قبل الميلاد وأنها لذلك لا تقدح فى التوراة . وإنمـا نادى الفريق الثانى بهذه النظرية لأنه رأى أن التشبث بأرقام التوراة من غير الطعن فى قدم البروج المصرية لا يفيد .

واستمرت المعركة على هـذا المنوال ٢٥ سـنة أخرج فيها كل واحد من هؤلاء العلماء عدّة كتب كان موضوعها كلها البروج المصرية والحضارة المصرية .

***

وبينما المعركة عند هذا الحد إذا بقائل يقول إن برج دندرة وصل إلى مرسيليا ، فسرى الخبر مسرى البرق ، ووقع فى النفوس كما تقع الأعجوبة . وكان الخبر صحيحا ،

وكانت حليته أن ابن أحد أعضاء مجلس النواب فى فرنسا أخذته نشوة المعركة الناشبة حول البروج المصرية فذهب بنفسه إلى دندرة واستطاع أن ينزع برجها من مكانه وأن ينقله إلى فرنسا بعد أن اتخذ جميع المعدات لصونه من أن يصاب بسوء . فلما وصل البرج إلى مرسيليا فى يناير سنة ١٨٢٢ لم تبق فى أوربا كلها جريدة لم تنشر خبر وصوله . وكانت للذى جلبه — وهو يسمى ليلورين — ولأصدقائه الذين ساعدوه مصلحة شخصية فى أن يدقوا حول البرج طبولا ضخمة فدقوا منها ما شاءوا وكيفما شاءوا . وكان الناس مستعدين لأن يسمعوا هذه الطبول فأقبلوا عليها وجعلوا يتمثلون حول البرج المصرى ، والحضارة المصرية ، والعلوم المصرية ، ما لا يتسع له إلا الخيال الواسع .



البرج الذى نزع من معبد دندرة ونقل إلى باريس

ولحظ رجال الكنيسة هذا الأثر فى الناس فانزعجوا ، ولحظه خصومهم الذين كانوا فى ميدان المعركة فتشجعوا واغتبطوا .

ونقل البرج إلى باريس ، واخترق شوارعها فى موكب كموكب الغازى المنتصر ، وضن به أصحابه عن أن يبتذل ، فلم يعرضوه للجمهور ، ولم يقبلوا أن يدخل عليه إلا العظماء . وكتب كاتب فرنسى هو كاميل لاچي (Camille Lagier) يصف شغف باريس حينئذ بالبرج فقال :

«إن هذا البرج الذى كان يظهر و يختفى فى آن واحد صار معبود المتحدثين فى الصالونات ، وفى أماكن الرياضة ، وفى كل مكان . فما كنت تسمع غير سيدة تقول لصاحبتها : «أرأيت البرج ياعزيزتى» . أو رجل يقول لصاحبه : «ما رأيك يا أخى فى البرج» . أو ما يجرى هذا المجرى من الحديث» [1] .

وأذاعت الصحف على أثر ذلك أن الحكومة الفرنسية ألفت لجنة من ثلاثة من العلماء لفحص البرج ، وهل هو زائف أو ذو قيمة علمية . ثم فحصته اللجنة فقررت أنه غير زائف . وكان أصحابه ينتظرون هذا التقرير ، فلما قدّم إلى الحكومة كتبوا إليها يطلبون أن تشتريه منهم ، ويقولون إن دولة أجنبية دفعت لهم فيه ٢٠٠ ألف فرنك فرفضوا لأنهم يؤثرون أن لا يفوت بلادهم الاحتفاظ بذخيرة مثله . واشترته حكومة لويس الثامن عشر ودفعت فيه ١٥٠ ألف فرنك (أى نحو ستة آلاف جنيه) ووضعته فى متحف اللوفر وسمحت للجمهور بأن يراه فيه .

واشتدّ فى هذا الوقت حنق رجال الكنيسة ، واشتدّ معه حنق المؤمنين الغيورين على نصوص التوراة ، فكانوا جميعا "يلعنون الحجر الأسود الحقير" [2] بينما كان بعض أعضاء مجلس النواب فى فرنسا يثيرون الثوائر عليه لأنه "أداة لبث الألحاد و إنكار الدين" [3] وهذه الكلمات كافية للدلالة على أن المعركة وصلت فى هذا الدور إلى أقصى شدّتها . وبعد ذلك يأتى الدور الثالث وفيه انقلب الأمر فانهزمت البروج وانتصرت الكنيسة .

(١) صفحة ٣٠ من كتاب (Autour de la Pierre de Rosette)

(٢ و٣) صفحة ٣٢ من المصدر السابق ذكره .

(لوحــة رقــم ١٠)



الملك خفرع ومن خلف رأسه حوريس فى شكل صقر يبسط جناحيه حول عنقه إشارة إلى أنه يحميه . وهذا التمثال مصنوع من حجر الديوريت الذى هو من أصلب الأحجار حتى لقد قال العلماء إنهم لا يستطيعون أن يعرفوا أية آلات هى التى استخدمها المصريون فى نحته . وصنع هذا التمثال بهذه الدقة يعتبر دليلا على أن فن النحت بلغ الذروة فى العهد المنفيسى



بقى الأب تيستا يناضل نضالا عنيفا، وجعل أساس نضاله أن يدرس البروج نفسها ليهدمها . وكان العلماء الذين رافقوا حملة نابليون بونابرت قد عادوا إلى فرنسا ونشروا الرسوم والصور التى جلبوها معهم لكثير من الآثار المصرية، ومنها معابد إسنا ودندرة . وكانوا قد نشروا أيضا أوصاف هذه المعابد فى مؤلفهم العلمى الذى سموه "وصف مصر" (Description de l'Egypte) فلاحظ الأب تيستا ولاحظ معه فيسكونتى أن على معابد إسنا ودندره كتابات يونانية فقالا إن هذه الكتابات سترشد على الأرجح إلى التاريخ الصحيح لهذه المعابد وللبروج التى وجدت فيها .

وتتبع ليترون هذه الفكرة فلاحظ أن اسمى الامبراطورين الرومانيين أنطونين وادريان موجودان على معبد إسنا . وقرأ على معبد دندرة عبارة باللغة اليونانية كتبت تكريما للامبراطور تيبير بن الامبراطور أغسطس .

وفى هذا الوقت كان شامپوليون الشاب قد فك حروف الخط الهيروغليفى فاطلع على جميع الأوصاف والرسوم الخاصة بمعابد دندرة و إسنا فأثبت أن جزءا من معبد دندرة بنى فى عهد كليوباطرة وابنها قيصرون وأن جزءاً آخر منه بنى فى عهد الامبراطور اغسطس .

أما معبدا إسنا فأثبت أنهما بنيا فى عهد الامبراطور كومود .

وأثبت فى الوقت نفسه أن البروج حديثة وأنها صنعت فى الوقت الذى بنيت فيه المعابد أى فى حكم الرومانيين لمصر .

و بذلك سقطت دعوى قدم البروج وانتصرت الكنيسة .



انهزمت البروج وانتصرت الكنيسة، فكان معنى هذا أن عمر الإنسان على الأرض لا يتجاوز ٣٣٨٩ سنة على أكثر تقدير قبل النبي إبراهيم، وكان المعنى أيضا

ان كل قدم تدّعيه الحضـارة المصرية لنفسها أبعد من هـذا الحدّ زور وخداع . وهذه المدّة التى تحدّدها التوراة هى المدّة التى يجب أن يكون المصريون قد انتقلوا فيها من حالة الوحشية الأولى إلى حالة المدنية، ثم من حالة المدنية إلى الحضـارة الراقيـة، فحضارتهم على هذا لا تتجاوز قرونا تعدّ على الأصابع قبل النبى إبراهيم .

ولكن هذا الحساب فيه تسامح أيضا، لأن من المفروض أن الطوفان جاء على عهـد نوح فأهلك فى مصر — كما أهـلك فى غيرها — كل حى ودمر كل عامر[1] . فالمدّة التى بين آدم ونوح يجب إسقاطها من الحساب . وفى النسخة السبعينية من نسخ التوراة — وهى النسخة التى يزيد رقمها على رقمى النسختين الأخريين — أن المدّة من آدم إلى نوح ٢٢٤٢ سـنة ومن نوح إلى إبراهيم ١١٤٧ سـنة فقط . فهذه المدّة الأخيرة هى وحدها التى يجب أن تكون قاعدة الحساب وهى التى عمرت فيها مصر بالمصريين، ووصل المصريون فيها إلى الحضارة التى وجدهم عليها إبراهيم حينما جاء مصر . فالحضارة المصرية حديثة إذن، وليس لها أن تتيه على حضارات الأمم الأخرى بدعوى القدم .

هذا كان مؤدّى انتصار الكنيسة على البروج المصرية . ولهذا لم يكد الانتصار يتقرّر فى الأذهان حتى بدأت حمـلة عنيفة على مصر وتاريخها، وقاد هـذه الحملة الأب جيرين دى روشى (Guérin du Rochet) وكان قد ألف قبل ذلك ببضع سنين كتابا عنوانه " التـاريخ الصحيح للعصور الخرافية " هاجم فيه مصر وتاريخها وحضارتها ، فأعاد طبعه وزاد عليه . وكان الأب دى روشى من العلماء الواسعى الاطلاع البارعين فى صناعة القلم فاستطاع أن يصوغ كتابه هذا فى شكل يلبس فيه الحق بالباطل . فزعم أن التاريخ المصرى من أوّله إلى آخره، ليس سـوى تخليط

(١) يقول بعض العلماء الآن إن الطوفان لم يعم الأرض كلها بل اقتصر على بلاد الكلدان وأرمينيا، ولكن هذا القول لم يكن شائعا فى الوقت الذى نشبت فيه معركة البروج .

فى الحوادث التى تسردها التوراة . فالملك (منا) الذى يذكره المؤرخ المصرى مانيتون[1] ويقول إنه أوّل ملك حكم مصر ليس سوى نوح . والملوك الذين يعدّهم مانيتون ثلثمائة وثلاثة وثلاثين خلفاء لمنا ، ليسوا سوى أولاد نوح الثلاثة . والفرعون موريس[2] ليس سوى مصرايم حفيد نوح . وما زال الأب دى روشى يمضى فى السلسلة على هذا القياس حتى جرد مصر من تاريخها وحوله كله إلى التوراة والقصص التى فيها . وعنده أن المؤرّخين مانيتون وديودور الصقلى وهيرودوت لم يفعلوا غير أن وضعوا التوراة أمامهم ثم جعلوا يأخذون منها ويخترعون .

وهذا القول يظهر لنا الآن غاية فى السخف ، ولكنه راج فى ذلك الوقت على أنه حقيقة تاريخية ودينية . واستقرّ فى الأذهان أن كل ما وراء إبراهيم من الزمن يجب أن يؤخذ تاريخه من التوراة . فما أثبتته فهو الحق الذى وجد ، وما لم تثبته فهو الباطل الذى لم يوجد .

ولكن هذا الانتصار للكنيسة لم يدم طويلا لأن المعركة عادت تتجدّد فى شكل آخر . وعادت تتجدّد فى هذه المرّة بشىء غير البروج ، وعلى يد عالم هو الذى نصر الكنيسة على البروج ، وهذا العالم هو شامپوليون الشاب الذى تقدّم أنه أثبت من كتابات على معابد دندرة وإسنا أنها هى وبروجها بنيت فى عصر كليوباطرة والرومانيين .

(١) مانيتون (Manéthon) هو أبو التاريخ المصرى بحق . وكان كاهنا مصريا من كبار العلماء ، وكان قد عاش فى زمن حكم البطالسة مصر فطلبوا إليه أن يضع تاريخا لمصر باللغة اليونانية فوضعه وعليه اعتمد جميع المؤرّخين من بعده .

(٢) الفرعون موريس هو الفرعون الذى زعم المؤرّخون اليونانيون والرومانيون ولا سيما المؤرّخ سترابون ، أنه أنشأ بحيرة موريس (بحيرة قارون) فى الفيوم لتكون خزانا للنيل . ولكن الآثار دلت بعد ذلك على أن هذه البحيرة أنشئت فى عهد أمنمحت الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة وأنه لا يوجد فرعون مصرى يسمى موريس .

وذلك أن شامپوليون كان قد كشف الخط الهيروغليفى كما قلنا، وعرف الخطين المصريين الآخرين الديموتيقى والهيراتيقى، فصار فى استطاعته أن يقرأ جميع الكتابات التى تركها المصريون على المعابد وفى أوراق البردى . فبدأت الكنيسة تحس قلقا من هذه الناحية على الرغم من أنها كانت قد ارتاحت لعمل شامپوليون فى هدم قدم البروج . وقد كانت على حق فى هذا القلق ولكن شامپوليون كان سياسيا بارعا فأخذ



شامپليون الشاب كاشف الحروف الهيروغليفية

يهدئ روعها حتى لا تحول بينه و بين بحثه العلمى . فنجح واستنامت له الكنيسة، ثم لم تفق إلا بعد أن صار كل نضال لها فى المعركة لا يفيد .

وكان شامپوليون محتاجا فى أوّل أمره لرعاية ملك فرنسا لويس الثامن عشر فسعى له الدوق دى بلاكاس Duc de Blacas حتى حصل له عليها وعلى إذن بأن يزور متحف تورين والمتاحف الايطالية الأخرى ليدرس مجموعات الآثار وأوراق البردى المصرية فيها . وكان الدوق من أنصار الكنيسة ومن محبي شامپوليون معا . فلما حصل لشامپوليون على الإذن بدراسة الآثار المصرية فى متاحف إيطاليا اعتراه الخوف من أن يكون فى هذه المتاحف ما يخالف التوراة أو الديانة المسيحية، فخلا به ورجا منه أن لا ينشر شيئا يخالفهما إذا آتفق له أن عثر على شيء مخالف . ففعل شامپوليون وأعطى على نفسه عهدا بالذى يطلبه منه الدوق .

وهنا يقول المدافعون عن شامپوليون إنه أعطى هذا العهد، لا لأنه كان ينوى الغش، بل لأنه كان يعتقد بنية حسنة أن جميع الآثار والأوراق العريقة فى القدم دمرت بفعل الزمن أو بفعل المغيرين الذين أغاروا على مصر . ولكنا نحن نرى أن شامپوليون فى غنى عن هذا الدفاع، وأن ليس عليه من حرج فى إعطائه ذلك العهد لأنه لم يؤذ به أحدا ولم يفعل غير أن فتح به الطريق أمامه للبحث العلمى ولتبديد الخرافات من الأذهان .

وسافر شامپوليون إلى تورين وقرأ فيها كثيرا من الكتابات المصرية ولاسيما سلسلة الملوك الذين حكموا مصر . ثم آنتقل إلى روما وفيها قابله الأب تيستا الذى تقدّم ذكره فى معركة البروج فرحب به ترحيبا وصفه شامپوليون نفسه فى أحد كتبه فقال :

« استقبلنى باسطا ذراعيه وهنأنى بأن كنت مرسل الضربة الأخيرة للبروج » .

ثم قابل شامپوليون البابا ليون الثانى عشر ووصف هذه المقابلة فى أحد كتبه أيضا فقال :

« تكرم قداسته بمقابلتى على الرغم من أنه مريض . وكان فى حديثه ظاهر العطف والملاطفة . وقد قال لى بلغة فرنسية فصيحة ثلاث مرات متواليات إننى أديت بكشوفى خدمة جميلة، وكبيرة، وطيبة، للديانة » .

ويرى من هذا أن الكنيسة ورجالها كانوا سعداء حقا بأن تخلصوا من كابوس البروج المصرية . ويرى منه أيضا أن شامپوليون نجح إلى الغاية القصوى فى طمأنتهم من ناحيته .

وبعد هذا النجاح مع الأب تيستا ومع البابا جعل أعيان روما يتسابقون لمعرفة شامپوليون والحديث معه عن مصر والكتابات المصرية . واقترحوا عليه القاء محاضرات فألقاها . وصارت للحديث عن مصر فى صالونات روما ومجالسها لذة لا تعادلها لذة . وأطلق على شامپوليون لقب «المصرى» وتنافس الناس فى تلقيب علماء آخرين فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا وانجلترا بمثل هذا اللقب فلقب العالم جومار «المصرى بمعنى الكلمة» ولقب العالم الانجليزى ينج Young[1] «المصرى بالتراكم» . ولقب العالم جوليونوف «المصرى بالالهام» . ولقب العالم الألمانى سيفارت «المتشبه بالمصرى» .



وبينما شامپوليون يتمتع بكل هذا المجد المصرى فى روما ، وبينما الكنيسة مطمئنة إليه ، إذا بصيحة خطرة ترتفع آتية من مدينة تورين . وكان هذا الصائح أمين المتحف فيها . وكانت صيحته أن « دراسة الآثار والكتابات والعلوم المصرية تهدم الأسس التى تقوم عليها الديانة وتدمر سلطان التوراة» .

وفى الوقت نفسه برز الأب ميشيلانج لانسى فى روما ينذر بأن العلم المصرى الذى يعلمه شامپوليون للناس يخالف التوراة خاصة وتعاليم الكنيسة على العموم . وكان لانسى هذا قد تعلم اللغتين العربية والعبرية وعين أستاذا لهما فى إحدى كليات روما ، فأثرت صيحته بعض التأثير . وتشجع لانسى بذلك فجعل يطبع كراسات يلعن فيها مصر وعلومها لأنها شوشت الأذهان وأوقعت أوربا فى حرب فكرية كانت

(١) العالم الانجليزى ينج عالج كشف الحروف الهيروغليفية قبل شامپوليون بسنوات قليلة فنجح فى أربعة حروف أو خمسة وأخفق فى الباقى . وقد قام فى ذلك جدال بينه وبين شامپوليون . والانجليز يتعصبون له . وقد احتفلوا فى لندن سنة ١٩٣٢ بمرور مائة سنة على وفاته ووصفوه حينئذ بأنه كاشف الحروف الهيروغليفية . وهذا غير صحيح إلا فى أربعة حروف أو خمسة كما تقدم .

فى غنى عنها . ووصف الكتابات المصرية بأنها كاذبة ووصف الطريقة التى وضعها شامپوليون لقراءة الكتابة الهيروغليفية بأنها تلفيق .

ولكن شامپوليون كان ماهرا، وكان حريصا على أن لا يفقد ثقة البابا به و بالعلوم المصرية . وكان البابا لا يستطيع أن ينسى انه هو الذى هدم البروج، فأقنعه شامپوليون بأن صيحة الأب لانسى ناشئة من حسد فى نفسه لكاشف الحروف الهيروغليفية التى أدّى كشفها إلى هدم البروج، وحينئذ أمر البابا بفصل الأب لانسى من منصبه، فتقدّم إليه شامپوليون يطلب العفو عنه ورده إلى منصبه، فأجابه البابا إلى طلبه .

وعلى أثر ذلك كتب سفير فرنسا فى روما إلى و ز ير خارجية الحكومة الفرنسية يصف هذا الفوز الذى فازه شامپوليون فقال :

« لقد شافهنى البابا بأنه يشكر لشامپوليون أعماله لأنها خدمت الديانة خدمة ذات أهمية . ومن قوله لى فى ذلك إن شامپوليون أسقط كبرياء تلك الفلسفة التى كانت تزعم أنهـا عثرت فى برج دندرة على تاريخ لخلق الانسان أقدم من تاريخ الكتب المقدسة » .

ثم إستمرّ السفير فقال :

« وقد استدعى البابا الأب تيستا وعرف منه جميع البراهين التى يثبت بها شامپوليون أوّلا أن برج دندرة صنع فى عهد الامبراطور كاود والامبراطور نيرون .

وثانيا أنه لا يوجد أى أثر مصرى يمكن أن يرجع إلى أبعد من ٢٢٠٠ عام قبل ميلاد المسيح أى قبل عصر إبراهيم . وبهذا يبقى نحو ١٨٠٠ سنة لا يمكن الوصول إلى معرفة شيء عنها إلا من الكتب المقدّسة » .

ومن هذا يستطيع القارئ أن يعرف كيف كانت الكنيسة ترى أن النجدة التى أنجدها بهـا شامپوليون لهدم البروج كانت ذات قيمة كبيرة . ويستطيع القـارئ أن يعرف أيضا أن ممـا كانت تحرص الكنيسة عليـه أن لا يوجد أثر من الآثار المصرية يرجع إلى أبعد من ٢٢٠٠ سنة قبل المسيح لأن هذه هى المدّة التى كانت تقدر للزمن الذى بين المسيح و إبراهيم .



ورحل شامپوليون بعد ذلك إلى مصر ليرى بعينيه ما فيها من الآثار و يقرأ ما على هذه الآثار من الكتابات .

وقبل أن نخوض فى هذه الرحلة يحسن أن نعرف ماذا كان رأيه الداخلى فى اعتقادات الكنيسة . ويكفى بيانا لهذا أن نقول إنه لما قرأ فى متحف تورين بعض الأوراق البردية ، ورأى فيها سلسلة الملوك الذين حكموا مصر ، وعرف من هذه السلسلة أن عدد الملوك الذين سبقوا الأسرة الثامنه عشرة يزيد على المائتين كتب فى سنة ١٨٢٥ إلى أخيه شامپوليون فيجاك (١) كتابا يقول فيه :

« ... لقد قام الدليل القاطع على أن المصريين كانوا فى عصور بعيدة فى القدم يعدون أكثر من مائتى ملك حكموا بلادهم قبل أن تحكمها الأسرة الثامنة عشرة ... ... فهذا هو الدستور الذى يجب تقديمه للجمهور ، ولكن فى قماز ملوّن بلون خاص (٢) » .

فهو إذن لم يكن يقول فى سريرته بقول الكنيسة . وإنما كان يصانعها حتى لا تضع العقبات فى سبيله . وكان يرى أن قدم المدنية المصرية إلى أبعد مما فهمته الكنيسة من التوراة ، هو :

« الدستور الذى يجب تقديمه للجمهور ، ولكن فى قماز ملوّن بلون خاص » .

ومن ألطف ما يذكر من مصانعة شامپوليون للكنيسة أنه لما كان على وشك الرحيل إلى مصر خاف الدوق دى بلاكاس أن تؤدّى رحلته هذه إلى ما ينافى عقيدة الكنيسة ، فكتب إليه فى ٦ يوليه سنة ١٨٢٦ يذكره بأن خصومه ما زالوا يدّعون أن العلوم المصرية تهدم الديانة . قال الدوق :

« حينما أبلغنى الدوق دى دودوفيل القرار الصادر بشأنك لم يخف عنى المعارضة التى كان عليه أن يقاومها لكى يحصل لك على هذا القرار . فسيكون عليك أنت أن تكذب ، بالأدلة المادية لا بالأقوال ، كل ما حاول ذوو النيات السيئة أن يحيطوا به عملك من ناحية والمبادئ السياسية التى تدين بها من ناحية أخرى » .

فرد عليه شامپوليون فى ٢٥ يوليه من السنة نفسها بكتاب قال فيه :

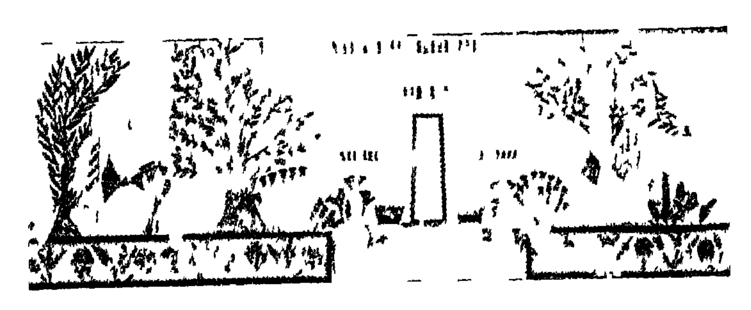
(١) Champollion Figeac

(٢) ص ١٢٨ من كتاب Autour de la Pierre de Rosette

(لوحـــة رقـــم ١١)



الكاتب المصرى وقد تربع ونشر أمامه ملفا من البردى وأهب للقراءة أو الكتابة . وقد وجد هـذا التمثال في مقابر صقارة التى ترجع إلى عهد الأسرة الرابعة وهو يوجد الآن فى المتحف المصرى



فلاحان يرويان حديقة بالشادوف الذى لا يزال مستعملا إلى الآن

« اسمح لى ياسيدى الدوق أن أقول لك إننى سأسارع إلى استخدام كل الوسائل التى ستعرض لى ، لكى أهدم ما حاول ذوو النيات السيئة أن يذيعوه ، لغرض لا أريد أن أبحث فيه ، حول النتائج التى يؤدى اليها كشفى للحروف الهيروغليفية بازاء الديانة ، ثم حول مبادئى السياسية . فأما الحروف الهيروغليفية فأمرها تاريخى محض ولن يكون لها مساس قط بالاعتقاد الدينى . وأما مبادئى السياسية فقد أرشدتنى من تلقاء نفسها إلى ما يجب على احترامه وتأييده ، حتى من قبل أن يقوم فى نفسى شعور الاعتراف بالجميل لمسديه فيجعل ذلك الواجب أعظم قوة وأشد تقديسا . فسأكون دائما عندما يمليه هذا الشعور بلا أدنى تحفظ »[1] .

* *

ونعود بعد ذلك إلى رحلة شامپليون إلى مصر[2] ، فنقول إنه طاف فيها ، وقرأ الكتابات التى على آثارها ، ولا يهمنا هنا أن نعرض لطوافه هذا إلا من ناحية واحدة هى التى تمس الكنيسة وعقيدتها فى عمر الإنسان . فنقول إنه لما طالت تأملاته فى الآثار والكتابات التى عليها ، لم يبق لديه شك فى أنه أمام مئات من البراهين كل واحد منها يهدم عقيدة الكنيسة ، ويثبت أن الحضارة المصرية أقدم من التاريخ الذى ترى الكنيسة أن التوراة حددته لخلق الإنسان ، ولنوح ، ولإبراهيم . ولكنه

---

(١) هذان الكتابان المتبادلان بين الدوق دى بلاكاس وشامپليون فى ص ١٢٦ و١٢٧ من المصدر السابق .

(٢) لما جاء شامپليون إلى مصر كان من الضرورى له أن يستأذن والى مصر إذ ذاك محمد على باشا الكبير فى زيارة آثارها القديمة ، فسعى حتى قابله وأخذ منه الإذن الذى يريده . وقد كتب بعد ذلك إلى أخيه شامپليون فيجاك يصف هذه المقابلة فقال :

« نزلنا فى الدرج الكبير للديوان ، ثم دخلنا قاعة كبيرة مملوءة بالموظفين ، ومنها أدخلنا القاعة التى كان صاحب السمو (يريد محمد على باشا) فيها . وكان جالسا فى إحدى زوايا القاعة ، بين نافذتين ، وفى ملابس بسيطة ، وفى يده « شبق » مطعم بالماس . وقد بدت لى قامته عادية ، وبدا لى فى مجموع مظهره ما يبعث انشراحا يدعو إلى الغرابة من عظيم مثله مشغول بأعمال عظيمة . وعيناه تتقدان ذكاء . ولحيته بيضاء ، جميلة ، تغطى صدره . فبعد أن سألنا عن أحوالنا تكرم فرحب بنا ، ثم سألنى عن خطتى فى رحلتى فشرحتها له بايجاز ، وطلبت الفرمانات التى لا بد لى منها ، فمنحنى إياها فى التو وأعطانى اثنين من قواصيه لمرافقتى فى كل مكان أذهب اليه . وبعد ذلك أمر لنا بالقهوة فشربناها ، ثم استأذنا من سموه فى الانصراف ، فودعنا مسلما علينا بيده ، مظهرا لنا كثيرا من العطف » .

وطلب محمد على باشا من شامپليون أن يقدم له مذكرة عن تاريخ مصر القديم وعن الوسيلة التى يقترحها للمحافظة على الآثار المصرية القديمة فقدمها له .

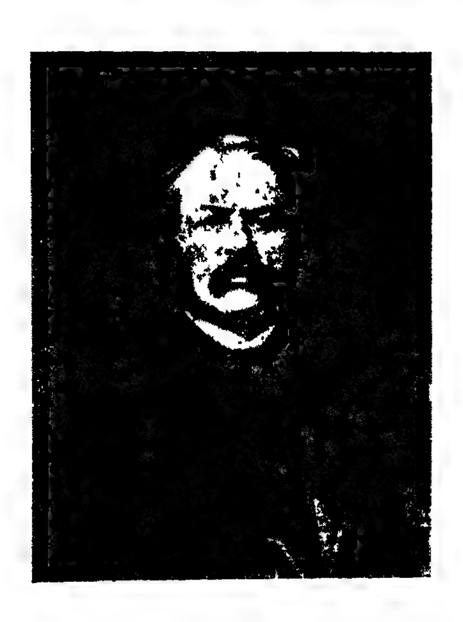
شاور نفسه فى هل يعلن هذه الحقيقة أو يسكت عليها . فرأى بعد كثير من التفكير أن يطوى جوانحه على ما فيها ، وحينئذ كتب إلى أخيه فى ٢٥ مارس سنة١٨٢٩ يقول :

« أقول لك ، فيما بينى و بينـك ، إننى حصلت على نتائج ، هى مربكة لى إلى الحد الأقصى من وجوه عدّة ، ولهذا يجب إبقاؤها فى الكتمان . وهذه النتائج لم تخالف فى شىء ما كنت أتوقعه وما كان يتوقعه معى « فوريى » ، وقد جلت أمامى أشياء أخرى كثيرة كانت تتردّد فى نفسى تردّدا مبهما فصارت الآن عندى من الحقائق التى لا يتطرق الشك إليها » .

ثم عاد شامپوليون إلى فرنسا ، وكان من المنتظر أن يكتب تاريخا لمصر فلم يكتبه ، وعاجله الموت فى سنة ١٨٣٢



و بعد أن مات شامپوليون مضت فترة هدوء ظن فيها كثيرون أن الأسرار التى طواها الموت بطيه لن تعرف . ولكن اسم إيمانويل دى روچى (١) سطع فى سنة ١٨٤٦ عالمـا كبيرا من علماء المصرولوجيا . وكانت الحقائق العلمية قد تقدّمت ، وكانت عقيدة الجماهير فى أرقام الكنيسة قـد بدأت تتزعزع ، فلم يتردّد دى روچى فى أن



إيمـانويل دى روچى

(١) Emmanuel de Rougé .

يذيع فى سنة ١٨٦٣ ترجمة لبعض الأوراق البردية التى فى متحف برلين وأن يجعل بعض عنوانها « قصص منذ ٤ آلاف سنة » . فلمـا ظهرت هـذه الترجمة هاج قسوس الكنيسة وجعل بعضهم يكتبون إليـه يتهمونه بالمروق من الدين فرد على واحد منهم فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٦٣ بكتاب قال فيه :

« لقد وجدت فى الإنجيل أسبابا قوية للاعتقاد بتقديس المسيح ، وهى فى نظرى أسباب كافية ، فلست أجد معها محـلا للبحث عن أسباب أخرى . ولكن العـلم يستطيع أن يسلك طـريقه من غير أن يمس عقيدتى المسيحية » .

وكتب أيضا فقال :

« يستخدم بعضهم كتابات المصريين القدماء من غير أن يفهموها ، وهم لذلك يظنون أنهم واجدون فيها قصصا من التوراة مشوهة تشويها مكشوفا [١] . فالنقد السليم قد قضى منذ زمن طويل على المؤلفات التى من هذا النوع والتى قامت على أساس الرغبة فى مسايرة الأوهام . وهناك غير هؤلاء قوم لا يترددون فى أن ينكروا صراحة قواعد علمنا [٢] و يقولوا إنه وهم أو أقل .

و بعد أن يخلصوا بهـذه الطريقة من هذا العنصر المربك لهم يؤكدون بجرأة أنه لا يوجد فى مصر أى بناء أثرى يمكن أن يكون أقدم من سنة ١٠١٢ ميلادية [٣] . فعلى هؤلاء نرد بالكلمة التى كتبها مصرولوجى انجليزى كبير [٤] وهى : « ما أبعد الجاهل عن سبيل العـذر فى جهله إذا كانت الوسائل لمحو هـذا الجهل فى متناول يده » .

ثم أشار دى روجى إلى الذين يرون بنية حسنة أن أرقام التوراة سور لا يصح تخطيه ، ثم قال :

(١) لعل دى روجى يشـير بذلك إلى الأب جيرين دى روشى الذى تقدم أنه زعم أن الملك منا هو نوح ، وأن ملوك مصر الذين ذكرهم مانيتون هم أولاد نوح الثلاثة ، وأن الفرعون موريس هو مصرايم حفيد نوح .

(٢) يريد بقوله « علمنا » علم الآثار المصرية .

(٣) يشير بذلك إلى كاتب انجليزى كان اسمه كزنوال وكان قد وضع كتابا فى سنة ١٨٦٢ ذهب فيه هذا المذهب .

(٤) يريد لى بيج رينوف (Le Page Renouf) وسيأتى ذكره .

« إن مبادئنا لا تسمح لنا بأن نتهم المسيحية بأنها تتزعزع أركانها من جراء تقدم علم أيا كان . ونحن على تمام اليقين من أن سلسلة التواريخ المصرية ، مهما يكن القدم الذى تنقلنا إليه ، ستأخذ مكانها فى العلم الحديث ، بجانب العلم الذى يبحث فى القوانين الخاصة بسير الكواكب ، وبجانب العلم الذى يبحث فى كيفية تكوين طبقات الأرض ، من غير أن يكون ذلك مسيئا إلى الإيمان المسيحى » .

وبينما كانت هذه الصيحة تدوى فى فرنسا ، كانت صيحة مثلها تدوى فى إنجلترا على يد لى بيج رينوف ، وكان لبسيوس قد حمل علم المصرولوجية فى ألمانيا . ثم ظهر لينورمان فى فرنسا فى سنة ١٨٨٠ فعزز الحملة . وحينئذ لم تقو عقيدة الكنيسة على الثبات فانهارت البقية الباقية منها .



ولما بلغ الأمر هذا الحد عادت الكنيسة إلى التوراة ترجع البصر فيها ، ففكرت وفكرت ، ثم اهتدت بغتة إلى أنها أخطأت فى اعتبارها تلك الأرقام التى فيها مقدسة وفى استخراجها منها الحساب الذى استخرجته . ولا يتسع المقام هنا لشرح جميع الأسباب التى بنت الكنيسة عليها نظريتها فى هذا الخطأ ، فيكفى أن نذكر منها سببين :



لى بيج رينوف

الأوّل : أن كل نسخة من نسـخ التوراة الثلاث اختلفت الأرقام فيهـا عن الأخرى فى جملتها وفى تفصيلاتها ، فهذا الاختلاف وحده يمنع من أن تكون مقدّسة.

والثانى : أن التوراة حينما تقول إن فلانا ولد فلانا لا يكون مرادها أن الثانى ولد للأوّل من غير أن يكون بينهما جيل أو أجيال ، بل المراد فقط أن الثـانى نسل للأوّل بحيث قد يكون حفيدا له أو أبعد من حفيد . وإذن يكون من الخطأ أن تجمع الأرقام التى فى التوراة ليقال إن مجموعها هو الزمن الذى انقضى بين آدم ونوح ، ثم بين نوح وإبراهيم ، ثم بين إبراهيم وعيسى ، ثم ليقال فى النهاية إن هذا هو الزمن الذى انقضى على خلق الانسان .

وبهذا التفسير الأخير خرجت الكنيسة من التصادم مع العلم المصرى . وبه أيضا أعلنت أنهـا كانت على خطأ فى تحديدها السنين التى كانت تحدّدها لخلق الإنسان. وبه أخيرا اعترفت بهزيمتها أمام الآثار المصرية . ولكن اعترافها هذا لم يأت إلا بعد معركة حامية شغلت بها أوربا كما رأيت من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨٨٠ .



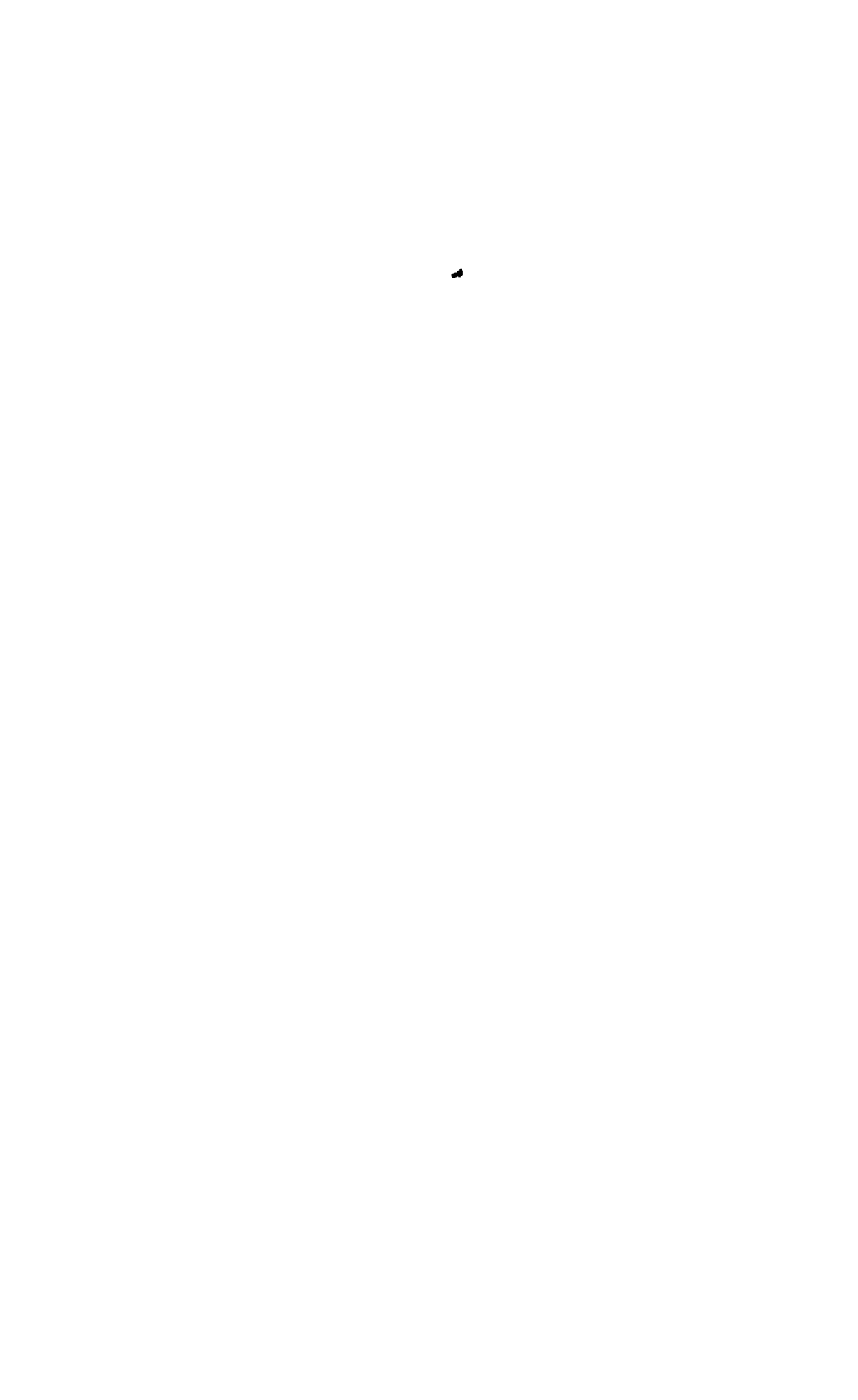
ونقول بعد ذلك إن العلم الحديث دل على أن وجود الإنسان على الأرض يرجع إلى بضع عشرات ألوف من السنين . فبعضهم يقدّر هذه المدّة بنحو أربعين ألف سنة والبعض الآخر يقدّرها بنحو خمسين ألف سنة . وهناك من يقدّرها بأكثر .

(لوحة رقم ١٢)



الكاتب المصرى وقد نشر ورق البردى أمامه وأخذ القلم فى يده وتأهب للكتابة

(متحف اللوفر)



عقيدة
الحساب بعد الموت

هل كان المصريون يعتقدون أن للإنسان روحا ؟

وهل كانوا يعتقدون أن هذا الروح لا يموت بموت الجسم ؟

وهل كانوا يرتبون على ذلك أن الإنسان يحيا بعد موته حياة أخرى يحاسب فيها على أعماله فى الحياة الدنيا، وتوزن فيها حسناته وسيئاته، فمن رجحت حسناته استحق الثواب، ومن رجحت سيئاته استحق العقاب ؟

وماذا كانوا يفهمون من الثواب والعقاب، وكيف كانوا يتخيلون دار النعيم فى الحياة الأخرى للأتقياء الصالحين ودار العذاب للأشرار المفسدين ؟

وهل عرفت أمة أخرى من الأمم ما عرفه المصريون من ذلك كله، فى الوقت الذى عرفوه فيه، أم كانوا هم الذين سبقوا الأمم كلها إليه ؟

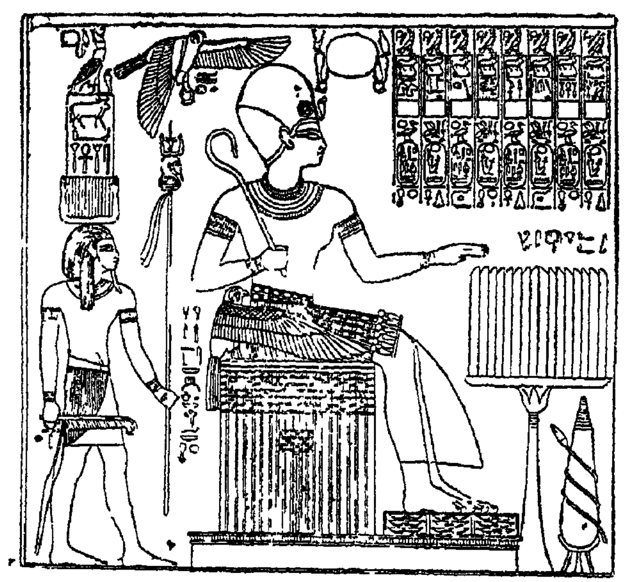
هذه هى الأسئلة التى سنجعل الجواب عليها مدار البحث فى هذا الموضوع .

*
* *

لا ريب فى أن المصريين اعتقدوا منذ أقدم العصور أن للإنسان روحا ، وأن هذا الروح لا يموت بموت الجسم، بل يحيا بعد ذلك حياة أخرى. وقد كان اعتقادهم هذا هو السبب الأول فى أنهم عنوا عنايتهم الكبيرة ببناء القبور المتينة، وتشييد الأهرام الضخمة، وتحنيط الجثة، والإكثار من التماثيل الحجرية مع الميت فى قبره . فقد كان الغرض الأول من هذا كله حفظ الجثة من الفناء لكى يجدها الروح كلما دخل عليها القبر، فاذا تعفنت مع ذلك وأكلها البلى فالتمثال يقوم مقامها ، وإليه يرتاح الروح . وقد يفنى تمثال ويبقى آخر، ولهذا استكثروا من التماثيل فى القبور، حتى إذا فنى بعضها بقى البعض الآخر .

ولا نطيل فى هذا فهو معروف مشهور .

وكانوا يقـولون إن لكل انسان شبيها به، يولد معـه، ولا يرى، ويسـمى «كا» . ويبقى هذا الكا لابسا جسـمه ما دام حيا ، فاذا فارقه مات . ولم يكن الإنسان وحده هو الذى له كا ، بل الآلهة أيضا. وكانوا يرمزون لهذا الكا بذراعين مرفوعين لأنه قيل فى أساطيرهم إن الإله رع حينما بدأ بخلق الإلهين الأوّلين شو وتفنيت وضع ذراعيه خلفهما فمسهما الكا الذى فيه، فسرت فيهما الحياة (١) .



الملك سيتى الأوّل جالسا وأمامه مائدة القرابين ومن خلفـه روحه المسمى كا — وقد وجدت هذه اللوحة فى أبيدوس حيث توجد الآن العرابة المدفونة

وللعلماء بحوث طويلة فى هـذا الكا وطبيعته ، وهم يرون فيـه معانى مختلفة عدّها بعضهم أربعـة عشر (٢) . ومن أبرز خصائصه أن اتصاله بالجسم يعطيه الحياة، وأن انفصاله منه يؤدّى به إلى الموت، وأنه لا يموت بموت الجسم بل يبقى ويتردّد على الميت فى قبره .

---

(١) ص ٢٤٦ من كتاب (La Réligion des Eg.) لأدولف أرمان الذى مر ذكره .

(٢) ص ٢٠٩ من كتاب (Les Mystéres Egyptiens) تأليف (A. Moret) .

هذا نوع أوّل من الروح . وهناك نوع ثان كانوا يسمونه « با » ، وكانوا يعتقدون أنه هو أيضا يفارق الجسم عند الموت ، ويطير فى الجوّ ، ويصعد إلى السماء ، ويمكنه أن يتشكل فى أشكال مختلفة . وكانوا يجعلون له وجه صاحبه وجسم طائر . وهو أيضا لا يموت بموت الجسم بل يبقى ويتردّد على الميت فى قبره .

فقد اعتقد المصريون إذن أن للإنسان نوعين من الروح باقيين بعد موته . ولانخوض هنا فى طبيعة كل منهما ، لأن لذلك بحثا ما زال المتخصصون يعالجونه ، والذى يهمنا نحن فى بحثنا هذا هو أن المصريين لم يجعلوا الإنسان يفنى بموته بل جعلوا له روحين باقيين ، فننتقل بعد ذلك إلى البحث فى هل وقفوا عند هذا الحد أو مضوا إلى نتيجته الضرورية فرتبوا على بقاء الروح حياة أخرى يحياها الإنسان بعد موته ، وفيها يحاسب على أعماله فى دنياه ، فيثاب على الحسنات ويعاقب على السيئات .



فى سنة ١٩٠٠ عثر المصرولوجى الانجليزى جريفث (F. L. L. Griffith) فى المتحف البريطانى على ملف من ملفات البردى المصرية فترجمه إلى اللغة الإنجليزية فاذا هو قصة طويلة تتلخص فى أن فرعونا من فراعنة مصر اسمه أوزيماريس كان له ولد يسمى ساتنى أو ساتمى تفقه فى العلوم حتى كان الملوك يوجهون إلى أبيه أسئلة يطلبون منه الجواب عليها ، فان أجاب فذاك ، وإن عجز كان عجزه دليلا على تفوّق بلادهم على مصر . فكان ساتنى يجيب على هذه الأسئلة ويجعل لمصر التفوّق على جميع البلاد . وتزوّج ساتنى فلم يرزق ولدا فحزن وذهبت امرأته إلى المعبد فصلت ودعت الله أن يرزقها بولد ، ثم نامت ليلتها فى المعبد فرأت فى نومها أن دعوتها ستجاب ، ثم رأت فى ليلة أخرى هاتفا يخبرها بأن ابنها سيكون صاحب كرامات ويطلب منها أن تسميه سينوزيريس .

ثم جاء هذا الولد فحذق علوم الحكمة والسحر وهو لا يزال صبيا . وتطلع ساتنى ذات يوم من أعلى داره فرأى جنازة رجل غنى تسير من ممفيس إلى الجبل فى موكب

حافل بالنادبات والمشيعين ومظاهر التكريم، ثم رأى فى الوقت نفسه جنازة رجل فقير مدرج فى حصير، ولا موكب معه ولا مشيعين، فالتفت إلى ولده وقال إنه يرجو أن يكون له فى الدار الآخرة مصير كمصير ذلك الغنى لا كمصير هذا الفقير . فقال سينو زيريس إنه بالعكس يرجو له مثل مصير الفقير لا مثل مصير الغنى . فامتعض الوالد، ولحظ الولد ذلك فأخذ بيد أبيه ليريه مصير الاثنين . ثم قرأ صيغا سحرية وذهب بأبيه إلى مكان فى جبل ممفيس فنزل به إلى الدار التى يحاسب فيها الأموات(١) فاذا هما بسبع قاعات واسعة مملوءة بناس من جميع الطبقات ، فاجتازا ثلاثا من هذه الدور ثم دخلا الرابعة فاذا ناس يذهبون ويجيئون بينما حميرتأكل من خلفهم ، ثم ناس غيرهم يثبون إلى طعام معلق فوق رؤوسهم فلا يدركونه ، فيثبون ويثبون، بينما حفارون يحفرون تحت أقدامهم ليزيدوا مسافة مابينهم وبينه .

ثم دخلا القاعة السادسة فوجدا أرواحا من الأبرار لكل منها مكان تقيم فيه بينما فى الباب أرواح متهمة فهى واقفة تتضرع . ثم رأيا رجلا منطرحا تحت الباب على ظهره ، ومحور هذا الباب مركز فى عينه اليمنى يدور عليها كلما فتح أو أقفل، وهو لا ينفك يفتح ويقفل، والرجل لا ينفك يصيح من الألم .

ثم دخلا القاعة السابعة فوجدا آلهة الحساب جالسين والمنادين ينادون قضايا الأموات(٢) واحدة بعد أخرى ، والإله الكبير أوزريس جالس على عرش من الذهب متوج بالتاج ذى الريشتين(٣) بينما الإله أنوبيس(٤) واقف إلى يساره والإله

(١) هذه الدار ليس لها اسم معين فى النص المنشور فى كتاب (Les contes populaires de l'ancienne Egypte) أو « القصص الشعبية لمصر القديمة » تأليف ج . ماسبيرو من ص ١٣٠ إلى ص ١٣٨ من الطبعة الثالثة . ولكن هذه الدار تسمى «الجحيم» فى النص الآخر المنشور فى كتاب (Causeries d'Egypte) تأليف ج . ماسبيرو أيضا من ص ٢١٣ الى ص ٢٢١

(٢) هؤلا المنادون يشبهون محضرى المحاكم الآن .

(٣) يقول ماسبيرو فى الحواشى التى وضعها لهذه القصة إن المصريين كانوا يسمون هذا التاج "ياتف أو يوتف" وإنه مكون من قلنسوة بيضاء ومن ريشتين من ريش النعام إحداهما فى الجهة اليمنى والثانية فى الجهة اليسرى .

(٤) أنوبيس هو مدير دفن الأموات ودليلهم فى الدار الآخرة .

(لوحة رقم ١٣)



الملكة نفرتارى زوجة رمسيس الثانى، ترى إلى اليسار جالسة فى قبرها تتسلى بلعب الشطرنج . وأمام القبر روحها المسمى « با » رأسه كرأسها وجسمه جسم طير . وأمام هذا الروح يوجد روحها الثانى المسمى « كا » وقد نفض يديه من لعب الشطرنج وخرج من القبر وركع ليصلى للشمس
(أخذت هذه الصورة بألوانها هذه من قبر الملكة فى وادى الملكات)



توت[1] إلى يمينه، والآلهة الآخرون الذى يتألف منهم مجلس دار الحساب واقفون يمينا ويسارا والميزان منصوب يزن السيئات والحسنات. فمن رجحت سيئاته حسناته ألقى إلى الوحش أمابيت (سيأتى تعريف هذا الوحش) يفترسه، ومن رجحت حسناته سيئاته قيد إلى حيث الآلهة وصعدت روحه إلى السماء، أما من تعادلت حسناته وسيئاته فلا يفترسه الوحش ولا ينضم إلى الآلهة بل يعين للخدمة.

ونظر ساتنى فرأى على مقربة من أوزريس رجلا حسن البزة مرفوع المنزلة. فالتفت إلى أبيه وقال: «أترى هذا الجالس بجانب أوزريس؟ إنه الفقير الذى شاهدته مدرجا فى حصير وليس فى جنازته أحد من المشيعين. لقد جىء به إلى هنا ثم وزنت سيئاته وحسناته فرجحت الثانية الأولى. وكان الإله توت قد سجل له فى سجله أنه لم يتمتع على الأرض بسعادة كافية فأمر أوزريس أن يعطى كل ما كان مجهزا به ذلك الغنى الذى رأيت جنازته مشيعة بمظاهر التكريم وأن ترفع منزلته بين الآلهة، أما الغنى فقد وزنت سيئاته وحسناته فوجدت الأولى ترجح الثانية فقيد إلى الجزاء، وهو الذى رأيت محور الباب يدور على عينه اليمنى وسمعته يصيح من الألم».

وعلى هذه القاعدة، قاعدة وزن الحسنات والسيئات، جعل الولد يفسر لأبيه كل ما رأياه من المناظر ثم أخذ بيده وعاد به إلى وجه الأرض من حيث جاء[2].

(١) توت أو تحوت هو المعروف عند اليونانيين باسم هرمس. وكان المصريون يزعمون أنه هو الذى علمهم الكتابة والقوانين والحكمة وجميع المعارف. وهو الذى يقيد وزن قلب الميت فى محكمة أوزريس ويقدم تقارير عن أعمال الميت إلى قضاة المحكمة.

وهو المعبود الأكبر فى مدينة هرمو بوليس أو الأشمونين.

(٢) ليس ما أثبتناه هنا ترجمة للقصة بل هو تلخيص لها كما قلنا. والقصة طويلة فمن أرادها فليطلبها فى المصدرين اللذين أشرنا إليهما من قبل.

***

وروى ديودور الصقلى فيما رواه عن محاكمة الأموات فى مصر أن المصريين كانوا كلما مات لهم ميت أبلغوا موته ويوم دفنه لأقاربه ومعارفه ولقضاة مكلفين أن يحاكموه ، فاذا جاء يوم الدفن حملت الجثة فى قارب يجتاز بها بحيرة ، وجلس القضاة والمعارف ينتظرونها عند الشاطئ الثانى ، فاذا وصلت إلى المرسى أبيح لكل مدّع على الميت أن يتقدّم للقضاة بدعواه ، فاذا ثبت أن الميت أساء فى حياته حكم القضاة بحرمان جثته من مدفنه ، أما إذا لم يتقدّم أحد أو إذا ثبت أن المدّعى كاذب فأهل الميت يخلعون حدادهم ويثنون على ميتهم ، فيجيب الجمهور بالتصفيق ويتمنى للميت الخلود مع الأبرار . والعقاب الذى ينزله القضاة بكل مدّع كاذب فى هذه الحالة عقاب شديد رادع .



أوزريس الإله الأكبر لمحاكمة الأموا

هكذا روى ديودور ، وهو مخطئ وقد التبس الأمر عليه ، فأخذ ما كان المصريون يعتقدونه حسابا يؤدّيه الميت فى الحياة الأخرى أمام قضاة من الآلهة ، على أنه حساب يؤدّيه أمام قضاة من الأحياء قبل أن يدفن . فما كتبه ديودور فى هذا يجب أن يضاف إلى الأشياء الكثيرة التى أخطأ المؤرّخون اليونانيون والرومانيون فهمها فى ما كتبوه عن المصريين . ولكن خطأ ديودور لا يمنع من أن فى روايته حقيقة بارزة هى أن المصريين كانوا يعتقدون أن الميت محاسب بعد موته على سيئاته وحسناته ، معاقب على الأولى مثاب على الثانية ، وهذه العقيدة هى بعينها التى رأيناها فى قصة ساتنى وابنه سينوزيريس .

*
* *

ونقول بعد ذلك إننا لم نسق هنا قصة ساتنى وولده ، ولا رواية ديودور ، لأنهما الدليل على عقيدة الحساب بعد الموت ، كلا فان الدليل على هذه العقيدة نصوص صريحة وجدت فى قبور المصريين منذ أقدم العصور . وما ذكرنا قصة ساتنى وولده[١] إلا للدلالة على أن هذه العقيدة لم تكن فلسفية يتلقاها الكهنة فى المعابد أو يطلبها طلابها فى مصادرها الخاصة ، بل كانت شائعة فى سواد الشعب تدبج حولها القصص والأحاديث .

فقد وجدت هذه العقيدة فى نصوص الأهرام[٢] التى ترجع إلى الأسرتين الخامسة والسادسة[٣] . وقد اتفق العلماء على أن هذه النصوص تترجم فى الكثير منها عن عقائد وتقاليد تذهب فى قدمها إلى أبعد من هاتين الأسرتين ، بل إلى ما قبل عصر الأسر .

ففى هذه النصوص أن الملك بعد وفاته يصعد إلى السماء ثم يأخذ مكانا له فى سفينة رع[٤] ليجوب السماء معه[٥] ، ولكنه لا يحصل على هذه المرتبة ولا تنفتح أمامه أبواب السماء إلا بعد أن يؤدى حسابا أمام محكمة رع عن أعماله فى الحياة الدنيا ، و بعد أن تصدر المحكمة حكمها بأنه أحسن فى أعماله هذه وصار يستحق الثواب .

(١) هذه القصة وضعت فى العصور الأخيرة للمدنية المصرية فهى حديثة .

(٢) نصوص الأهرام هى التى وجدت فى أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة . والذى وجدها هو ماسبيرو فى سنة ١٨٨١ ثم ترجمها إلى الفرنسية فى سنة ١٨٨٢ . ومن بعده ترجمها إلى الألمانية العالم الألمانى سيت (Sethe) فى سنة ١٩٠٨ . ثم ترجمها أيضا العالم سبليرز (L. Speleers) وعلى هاتين الترجمتين الأخيرتين اعتمد مورى فترجم إلى الفرنسية ما اقتبسه منها . واعتمدت أنا على ترجمة مورى .

(٣) الأسرة الخامسة حكمت من نحو سنة ٢٦٨٠ إلى نحو سنة ٢٥٤٩ ق م (بحساب التاريخ القصير) والأسرة السادسة حكمت من نحو سنة ٢٥٥٠ إلى نحو سنة ٢٣٦٠ ق م .

(٤) سفينة رع هى السفينة التى كانت الأساطير القديمة تقول إن الإله رع (الشمس) يخترق بها السماء كل يوم .

(٥) الفقرة ١١٧١ من نصوص الأهرام فى ص ١٥٣ من الجزء الثانى من كتاب (Histoire de la Nation Eg.) لمورى .

وهنا يقول مورى إن نصوص الأهرام صريحة فى ذلك ، وهـذه هى الفقرة ١٢٣٨ منها :

« إن أتوم يدعو الملك إلى السماء ليحيا فيها ... ... لقد فحصت أعمال الملك فلم يوجد فيها سوء . وهذه شهادة ذات معنى كبير أمام وجهك يا رع » .

ويمضى مورى بعد ذلك فى ذكر النصوص فى هـذا الموضوع ، ومؤدّاها أن الملك أوناس (١) يطلب حكم الآلهة على أعماله فى الدنيا ، فتجتمع المحكمة وتصدر حكمها ، وهو يقضى ، كما تقدم ، بأن « أعمال الملك فحصت فلم يوجد فيها سوء » . وبناء على هذا صار الملك يستحق أن تفتح له أبواب السماء وأن يأخذ مكانا له فى سفينة رع .

وفى الفقرة ٣١٦ من هذه النصوص أنه لما مثل أوناس أمام الوحش الرابض فى المحكمة اعتراه الخوف ، ولكنه خرج بعد ذلك ومعه إلهة الحق والعدل ، ولم يلق فى النيران . فمعنى ذلك أنه لو كانت المحكمة قد حكمت ضدّه لكان العذاب الذى ينتظره أن يترك للوحش يفترسه أو يلقى فى النيران .

فهنالك إذن ، منذ أقدم العصور ، حساب ثم ثواب أو عقاب . وهذا العقاب قد يكون فى عذاب افتراس الوحش أو عذاب النار .



وقد قال بعض الباحثين فى نصوص الأهرام هـذه إنها ذكرت محاسبة الملك على أعماله فى الدنيا وصعوده إلى السماء ، ولكنها لم تذكر شيئا مثل ذلك لأحد غير الملك . فكأن الملك هو وحده الذى يحاسب ويصعد إلى السماء ، أما من عداه من أفراد الرعية فلا . ولكن إرمان أثبت من نصوص الأهرام نفسها أن هذا القول خطأ (٢) ، لأن النصوص تذكر بالعكس فى فقرات منها « الميت الذى يرقد تحت الأرض والتراب والرمل » ، فميت كهذا ليس له ضريح مبنى بالطوب ولا هرم مشيد

(١) الملك أوناس هو آخر ملوك الأسرة الخامسة . وقد ذكر اسمه فى هذه النصوص لأنها منقوشة فى هرمه ، ولأنها نقشت فيه من أجله .

(٢) ص ٢٤٥ من كتاب (La Réligion des Eg.) لإرمان .

بالحجارة ، فهو ليس ملكا . وهناك فوق ذلك فقرة أخرى تذكر من مآثر هذا الميت أنه «لم يسب الملك قط» ، فبديهى أنه لا بدّ أن يكون شخصا غير الملك .

ولهذا يرى إرمان أن عقيدة الحساب كانت تشمل غير الملك .

على أنه فى هذا الوقت نفسه كانت عبادة أوزريس قد أخذت تنتشر وتصير عبادة شعبية تقبل الطبقات كلها عليها . ونقول « فى هذا الوقت نفسه » لأن نصوص الأهرام أشارت إليها ، فدلت بذلك على أن هذه العبادة كانت قد بلغت شأنا رأى معه كهنة هليوبوليس أن من الخير لهم أن يقحموها على عبادة رع وأن يمزجوهما معا .

وعبادة أوزريس ، أساسها الأول أن كل إنسان ، ملكا كان أو فردا عاديا ، مسئول بعد الموت عن أعماله فى الدنيا أمام محكمة إلهية يتولى القضاء فيها أوزريس نفسه ، ويساعده فيها توت وأنوبيس وحوريس ومعات واثنان وأربعون قاضيا . فاذا حكمت هذه المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفئ بالنعيم الخالد وصار مثل أوزريس . أما إذا حكمت المحكمة بأنه أساء فى حياته فجزاؤه أن يفترسه الوحش ، أو أن يلقى فى النار ، أو أن يضرب عليه نوع آخر من أنواع العذاب .

وقد راجت هذه العقيدة وراجت معها عبادة أوزريس فى زمن الدولة الوسطى ، ثم راجتا أكثر فى زمن الدولة الحديثة ، لأن كل أحد صار يرجو أن يكون مثل أوزريس فى الحياة الأخرى . وكان أوزريس قد نشأ فى مدينة بوزريس (وهى الآن بوصير أو أبو صير بمديرية الغربية) فانتقل إلى مدينة أبيدوس (وهى الآن العرابة المدفونة بمديرية جرجا) فاعتبرت عاصمة له ومدينة مقدّسة يرغب الملوك والأمراء وقوّاد الجيش والأعيان وغيرهم من سواد الأمة فى أن يدفنوا فيها للتبرك بترابها ، فاذا لم يجدوا أرضا لهذا الغرض اكتفوا بأن يقيموا لأنفسهم فى مقبرتها لوحة تذكارية من الألواح الحجرية التى تقام على القبور .

وفيما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة أخذ ينتشر ما سمى «بكتاب الموتى» حتى صار من العادات المرعية أن توضع نسخة منه مع كل ميت . وهذا الكتاب

يشتمل على فصول مختلفة بعضها فى خلق الكون ، وبعضها فى بيان الأخطار التى يستهدف لها الميت بعد موته ، وبعضها تعاويذ سحرية كان الذين وضعوها يزعمون أنها تنفع الميت وتنقذه من الأخطار، وبعضها — وهو ما يهمنا فى موضوعنا هذا — فى محاسبة الميت على أعماله فى الدنيا أمام محكمة أوزريس .

وكانوا يجسمون هذه المحاسبة فيضعون لها فى كتاب الموتى ، وعلى التوابيت رسم محكمة ومحاكمة وميزان . وفى هذه المحكمة يجلس أوزريس على عرشه حاملا عصاه وكرباجه، ومعه اثنان وأربعون قاضيا من الآلهة . ويلاحظ هنا أن مصر كانت مقسمة إلى اثنين وأربعين إقليما فكأن كلا من القضاة يمثل إقليما من هذه الأقاليم . فإذا جىء بالميت تسلمه انوبيس وأخذ قلبه فوضعه فى أحد كفتى ميزان . ووضع فى الكفة الأخرى تمثال الإلهة معات (إلهة الحقيقة والعدل) أو ريشتها ثم وقف الإله توت بجانب الميزان وفى يده اليمنى قلم وفى يده اليسرى سجل يدوّن فيه نتيجة الميزان ثم يرفعها إلى أوزريس . ويقف بالقرب من توت الوحش «اماييت» ، وهو وحش له رأس تمساح وجسم أسد، متأهبا لأن يلتهم الميت الذى يصدر الحكم بالتهامه . وفى بعض الرسوم تضاف نيران إلى المحكمة فى مكان خاص منها ، ليلقى فيها المذنبون . والقلب فى الميزان يمثل أعمال الميت فى حياته . وهو الذى يشهد بكل ما فعله صاحبه من خير أو شر .



وكتاب الموتى يدلنا على نوع الأعمال التى كان الميت يحاسب عليها أمام أوزريس ، فقد وجد فى هذا الكتاب تضرع من الميت إلى قلبه حينما يؤخذ منه ليوضع فى الميزان . وهو يقول فيه :

« أيها القلب الذى أخذته من أمى ، وولدت به ، وعشت معه على الأرض ، لا تشهد على . لا تكن خصمى أمام القوى المقدّسة . لا تكن ثقيل الوزن ضدّى » .

ثم وجد فى كتاب الموتى أيضا دفاع يدافع به الميت عن نفسه حينما يأخذ أنوبيس فى وزن أعماله . وهو دفاع فيه معان سامية من معانى الأخلاق الفاضلة المتأثرة بعقيدة الحساب بعد الموت . فى هذا الدفاع يقول الميت كلمات تقديس يوجهها إلى أوزريس والقضاة الذين معه (١) :

« لقد جئت اليك أجلب الحقيقة وأطرد الخطيئة .

« إننى لم أقارف الشر ، ولم أعتد ، ولم أسرق ، ولم أقتل غدرا ، ولم أمس القرابين ، ولم أكذب ، ولم أسل دموع أحد ، ولم أتدنس ، ولم أذبح الحيوانات المقدسة ، ولم أتلف أرضا مزروعة ، ولم أقذف ، ولم أترك الغضب يخرجنى إلى غير الحق ، ولم أزن ، ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل ، ولم أسىء الظن بالملك ولا بأبى ، ولم ألوث الماء ، ولم أحمل سيدا على أن يسىء إلى عبده ، ولم أحلف كاذبا ، ولم أغش فى الميزان ، ولم أمنع اللبن عن أفواه الرضع ، ولم أصد طيور الآلهة ، ولم أرد ماء حين الحاجة إليه ، ولم أسد قناة رى على غيرى ، ولم أطفئ نارا يجب أن تشعل ، ولم يخطر على بالى أن أستخف بالآلهة ، إننى طاهر ، طاهر » (٢) .

وهذا الدفاع يسميه شامپوليون "دفاعا إنكاريا" لأن الميت يعزو فيه لنفسه الحسنات والفضائل فى صورة إنكار للسيئات والرذائل .

(١) ترجمت هذا الدفاع عن كتاب (Le Nil et la Civilisation Eg.) ص ٤٦٥ لمؤلفه مورى . وقد قال مورى إن هذا النص تلخيص وليس ترجمة حرفية . و يوجد فى كتاب (La Réligion des Eg.) ص ٢٦٤ و ٢٦٥ لمؤلفه إرمان نص يماثله ولا يختلف عنه إلا قليلا .

(٢) مما يستحق الملاحظة هنا أن هذه السيئات التى يتبرأ منها الميت تنقسم إلى أنواع . فنوع منها خاص بالآلهة وهو مس القرابين ، وذبح الحيوانات المقدسة ، وصيد طيور الآلهة ، والاستخفاف بالآلهة . ونوع خاص بالملك و بالأب وهو سوء الظن بهما . ونوع خاص بالسلوك مع الناس وهو مقارفة الشر ، والاعتداء ، والسرقة ، والقتل غدرا ، و إسالة الدموع ، و إتلاف الأرض المزروعة ، والقذف ، والزنى ، والامتناع من سماع كلمة العدل ، وتلويث الماء ، وحمل السيد على أن يسيء إلى عبده ، والغش فى الميزان ، ومنع اللبن عن أفواه الرضع ، و رد الماء حين الحاجة إليه ، وسد قناة الرى على الغير ، و إطفاء النار التى يجب أن تشعل . وهناك نوع ثالث خاص بتهذيب النفس قبل أن يكون خاصا بالغير وهو التدنس ، وترك الغضب يخرج الانسان إلى غير الحق ، والكذب ، والحلف كذبا . ويختم الميت دفاعه بكلمة هى جماع الفضائل النفسية وهى قوله « إننى طاهر ، طاهر » .

ثم يخاطب الميت القضاة الاثنين والأربعين فيقول(١) :

" لكم الحمد أيها القضاة . إننى أعرفكم وأعرف أسماءكم . لست أسقط أمام سيفكم . إنكم لا تعلمون شيئا ضدى لهذا الإله الذى أنتم حاشيته . لا شأن لكم بى . إنكم تقولون الحقيقة فى أمرى أمام سيد كل شىء . لأننى اتبعت الحق والعدل فى مصر، ولم أجدف فى حق الإله ، ولم يجد الملك المعاصر لى شيئا يأخذه على . لكم الحمد أيها الآلهة الجالسون فى قاعة الحقيقتين(٢) والذين ليس فيهم أثر من كذب ، وهم يعيشون من الحقيقة أمام حوريس المستقر فى شمسه . أنقذونى من «باباى»(٣) الذى يأكل أحشاء العظماء فى يوم الحساب الكبير . ها كم أنظروا : إننى آت اليكم بلا خطيئة ولا سوء . وقد فعلت مايرضى الناس والآلهة . وأرضيت الإله بما يحبه . وقد أعطيت خبزا للجائع ، وماء للعطشان ، وثيابا للعارى ، وزورقا لمن ليس له مركب . وقد قدّمت قرابين للآلهة ، وهدايا جنائزية للمجدين(٤) .

«انقذونى واحفظونى . إنكم لا تتهموننى أمام الإله العظيم . إننى رجل ذو فم طاهر ، و يدين طاهرتين ، والذين يروننى يقولون لى(٥) : مرحبا بقدومك ، مرحبا بقدومك» .

فذلك الدفاع الإنكارى الذى يدافع به الميت عن نفسه ، وهذا الخطاب الذى يوجهه الميت إلى القضاة ، هما نتيجة مباشرة لعقيدة الحساب ، وفيهما الدليل القاطع على أن الميت يتقدّم إلى الحساب وهو ممتلئ خوفا من أن تكون أعماله فى الدنيا مؤدّية به إلى العقاب . ومن هذا الخوف تكون عقيدة الحساب أساس عمل الخير وتهذيب النفس والاستقامة فى معاملة الغير .



ويحسن هنا أن نعرف كيف كان تأثير هذه العقيدة فى نفوس المصريين ، فلنستعرض شيئا مما كتبوه فى ذلك ، فى قبورهم ، تعريفا بأشخاصهم و بسلوكهم فى الحياة .

(١) هذا الخطاب مترجم من كتاب (La Réligion des Eg.) ص ٢٦٦ و ٢٦٧ لمؤلفه إرمان .

(٢) المراد بالحقيقتين حقيقة للوجه القبلى وحقيقة للوجه البحرى . وكانت محكمة أوزريس تسمى قاعة الحقيقتين . (٣) فسر إرمان كلمة «باباى» هذه فقال إن المراد منها رفيق لإله الشر سيت أو سيت نفسه .

(٤) المجدون هم الأموات الذين كانوا صالحين فى الدنيا و ينالون هذه المنزلة فى الآخرة .

(٥) فى هذا الخطاب فضائل دينية وأخلاقية غير التى مرت فى الدفاع الإنكارى . وهذا يدل على أن هذا الدفاع الإنكارى لم يجمع كل ما كان المصريون يعتبرونه فضيلة وتهذيبا نفسيا . وستأتى شواهد أخرى تؤيد هذه الحقيقة .

ففى عصر الأسرتين الخامسة والسادسة ، أى فى الوقت الذى كانت تنقش فيه نصوص الأهرام، نقش أحد الأعيان على لوحة حجرية نصبها لنفسه :

« لم أسىء إلى أحد فى حياتى ، لأنى أريد أن تسير الأمور كلها سيرا حسنا حينما أكون أمام الإله الكبير » (١) .

وظاهر من رغبته فى أن تسير الأمور كلها سيرا حسنا حينما يكون أمام الإله الكبير، أنه يريد أن تجد محكمة أوزريس أنه لم يذنب فتجعل الثواب نصيبه .

وكتب حاكم إقليم من أقاليم الوجه القبلى يقول :

« أطعمت الجائعين وكسوت العارين ولم أمس قط شيئا لغيرى بحيث لم يشكنى أحد قط إلى إله مدينتى ... ولم يحدث فى عهدى أن شكا أحد إلى الآلهة من اعتداء قوى عليه » (٢) .

وكتب حاكم لإقليم أسيوط يقول :

« كانت عندى غلال وافرة فلما حلت بالبلاد المجاعة وزعت منها على المدينة مكاييل مكاييل . وسمحت لكل إنسان بأن يأتى ليأخذ غلالا من عندى وأعطيت الزوجة والأرملة والولد . وأعفيت الأهالى من جميع الضرائب المتأخرة عليهم والتى كان آبائى قد سجلوها فى دفاترهم » (٣) .

وكتب حاكم لإقليم إدفو يسمى بيبى نيفر قصة حياته فذكر أن أباه أرسله إلى بلاط الملك بيبى الأول ليتربى فيه مع أبناء حكام الأقاليم ثم عينه الملك مرنرع (هو أحد ملوك الأسرة السادسة) أمينا لمحصولات الوجه القبلى ثم مديرا للمعابد فى إقليم إدفو . وبعد ذلك أخذ بيبى نيفر يصف أعماله فى مناصبه وسلوكه فى حياته الشخصية فقال :

« من منتجات هذا الاقليم (إقليم إدفو) أطعمت الجائع ، وكسوت العارى ، ووزعت أقداح اللبن . ومن غلال الأوقاف الأبدية (٤) أعطيت الجائع وأصلحت شأن كل رجل وجدته عائشا من غلال

---

(١) ص ٦٨ من الترجمة الفرنسية لكتاب (A History of Egypt) لمؤلفه برستيد .

(٢) المصدر السابق جزء أول ص ٦٧ من الترجمة الفرنسية .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ .

(٤) الأوقاف الأبدية هى الأملاك التى كانت محبوسة على المعابد والآلهة وغير ذلك من الأغراض الدينية

غيره وجهزت للدفن كل ميت ليس له ولد ... وقد أنقذت الفقير من يد الغنى وأصلحت بين الأخوة المتنازعين[١] » .

كل هذا فى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة . فنطوى الآن هذا العهد وننتقل إلى عهد الأسرة الثانية عشرة (من سنة ٢٠٠٠ إلى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد) .

ففى عصر هـذه الأسرة وفى عهـد الملك أمنمحت الأوّل كان حاكم الإقليم السـادس عشر (حيث توجد الآن قبور بنى حسن فى مديرية المنيـا) أميرا يسمى أمينى . وقد حدّثنا هـذا الحاكم فقال إنه كان قائدا لجيش هـذا الإقليم ثم قائدا لحمـلة حاربت فى النوبة ثم لمـا عاد عين حاكما للإقليم وحينئذ أخذ يحدّثنا بسيرته فى محكوميه فقال :

« بينما كان الأقليم كله فى حركة دائبة تدر الخير العميم ، و بينما كان زمام السلطة فى يدى ، لم أعتد على بنت من بنات الشعب ، ولم أضطهد أرملة ، ولم أرد زارعا ، ولم أحبس راعيا ، ولم يقع قط أن أجبرت عمالا على أن يتركوا عمل سيدهم ليعملوا عندى .

« لم يوجد فى زمنى بائس ولا جائع . وقد كنت فى سنى الجدب أحرث جميع أرض الإقليم إلى حدوده الجنوبية والشمالية وأحرص على أن أجعل أهله يعيشون ، وأسعى فى إيجاد العيش لهم حتى لم يوجد جائع .

« وقد أعطيت الأرملة كما أعطيت المرأة المتزوجة . ولم أحاب كبيرا لأظلم صغيرا فى كل ما أعطيته . وفى السنين التى كان النيل يأتى فيها كبيرا (أى عالى الفيضان) فيحمل للناس المحصولات والغنى لم أطالب بالمتأخرات من الضرائب[٢] » .

وعند هـذا الحدّ من نقل الشواهد نقف ، لأن ما نقلناه منها يكفى للغـرض الذى نرمى إليه . وبحسبنا أن نقول إن هنـاك عشرات من أمثـال ما نقلناه هنا يستطيع من يشاء أن يطلبها فى مصادرها .

(١) كتاب Le Nil et la Civilisation Egyptienne ص ٢٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٨ . وكتاب A History of Eg. لبرستيد ص ١٦٣ من الترجمة الفرنسية مع اختلاف فى كلمات قليلة .

(لوحة رقم ١٤)

محاكمة الأموات في محكمة أوزريس



هذه الصورة مأخوذة من ورقة بردية موجودة في المتحف المصري وهي تصوّر عقيدة الحساب عند المصريين . ويرى فيها الميزان والإله أنوبيس يحرره . وفي إحدى الكفتين قلب الميت وفي الكفة الأخرى ريشة الحق والعدل . ويرى بجانب الميزان الإله توت وفي يده قلم وفي اليد الأخرى لوح أو سجل وهو يقدم لأوزريس تقريرا عن ميت تمت عملية وزن قلبه . وبجانبه الوحش أمايت في جسم كلب ورأس حوت مستعدا لالتهام الروح الذي يصدر الأمر بعقابه . ويرى أوزريس جالسا على عرشه . وفي صور أخرى مماثلة لهذه يرى ٤٢ قاضيا يشهدون المحاكمة

* * *

لم نقصد من هـذه الشواهد أن نقول إن المجتمع المصرى كان فى العصور التى كتبت فيه مجتمع فضيلة كله، بل لم نقصد أن هذه الشواهد نفسها خالية من الرغبة فى الزهو والتمدّح ، لم نقصد هـذا وليس يخطر فى بالنا إلا أن المجتمع المصرى كان كغيره من المجتمعات يعرف الفضيلة والرذيلة ، و يعرف العـدل والظلم ، و يعرف البغى والتقوى، ولكن الذى نقصده، والذى لم يبق فيه ريب بعـد هذه الشواهد هو أن المجتمع المصرى كان يدين بعقيـدة الحساب بعـد الموت ، و يدين بأن من وراء هذا الحساب ثوابا وعقابا ، وكان يتأثر بهذه العقيدة إلى حدّ بعيد ، وفى ذلك يقول برستيد :

« إن هـذا الفهم لقواعد السلوك يبلغ من السمو حدّا بعيـدا . وهو أوّل إبراز للفـكرة القائلة بأن مصيرنا فى الحياة الأخرى متوقف كله على أعمالنا فى الحيـاة الدنيا ...... ومجموع هـذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به لأنه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من الأمم الأخرى . فقد كان البابليون والاسرائيليون (١) فى الوقت الذى اهتدى فيه المصريون إلى هـذه العقيدة ، ينزلون جميع الأموات فى مكان مظلم لا تفريق فيه بين من أحسنوا ومن أساءوا (٢) » .



وننتقل بعد ذلك إلى جانب آخر من جوانب هذا البحث ، وهو مصير الميت بعد محاسبته على أعماله فى الدنيا .

لقد ظهر أن هذا المصـير إما إن يكون الثواب أو العقاب ، فعلى أية صورة من الصور كان المصريون يفهمون الثواب، وعلى أية صورة أخرى كانوا يفهمون العقـاب ؟

---

(١) لعله يقصد أجداد الاسرائيليين .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٦

تقول نصوص الأهرام إن الثواب هو الصعود إلى السماء بعد رحلة جمة المخاطر، للإقامة فيها مع الآلهة، أو للإقامة مع الإله رع فى سفينته . وهؤلاء الذين يثابون بالإقامة فى السماء يسمون «الممجدين» أو «السعداء» . والمكان الذى يقيمون فيه من السماء هو جانبها الشرقى أو جانبها الشرقى البحرى، لأن المصريين كانوا قد لاحظوا فى هذين الجانبين نجوما ثابتة فأطلقوا عليها اسم النجوم الخالدة ، وجعلوا عندها مكان النعيم الخالد للذين يصعدون إلى السماء .

ولم تكتف نصوص الأهرام بهذا الإجمال فى تصوير دار النعيم، بل مضت إلى التفصيل فذكرت أن الممجدين يقيمون فى جزر فى السماء فيها حقل يسمى «حقل الطعام» . ومن هذا الحقل يتناول الممجدون أطعمة شهية مختلفة تتجدّد ولا تنفد . وهناك حقل آخر يسمى « حقل يارو »(١)، وشجرة جميز عالية تسمى « شجرة الحياة » يجلس إليها الآلهة ويأكلون منها، هم والممجدون .

وليس هذا كل مافى النعيم السماوى، بل فيه إلى جانب ذلك أن السماء (نوت) والثعبان الذى يحمى الشمس يعطيان الصاعد إلى السماء حين وصوله إليها ، ثدييهما ليرضع منهما، فمتى رضع عاد صبيا .

وهو يأكل الخبز مع الآلهة ويشرب الخمر . وصحته تزداد تحسنا على مرّ الأيام، فهى اليوم أحسن منها أمس، وتكون غدا أحسن منها اليوم .

هذا موجز ما ذكرته نصوص الأهرام عن النعيم الذى يثاب به المحسنون فى الدنيا . أما كتاب الموتى فيذكر من مظاهر الثواب أن الميت يجلس فى قاعة أمام أوزريس، ويخرج إلى حقل يارو ، ويأكل خبزا وفطائر، ويكون له حقل من القمح والشعير يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع ، وخدّام حوريس يحصدون له هذا الزرع ليأكل منه . وله أن يدخل العالم السفلى ويخرج منه . وله أن يقيم فى حقل

(١) يقول إرمان فى ص ٢٥١ من كتابه (La Réligion des Eg.) إن كلمة « يارو » معناها فى اللغة المصرية نبات الخيزران . ويرى علماء آخرون أن هذا الحقل يسمى « حقل يالو » .

يارو أو فى حقل الطعام،وفيهما يكون ممجدا يزرع و يحصد، وتكون له نساء يتمتع بهنّ، ويعمل كل ما كان يعمله على الأرض .

وقد ترك بعض المصريين كتابات عبروا فيها عما يتمنونه من أنواع السعادة فى الحياة الأخرى فقال أحدهم، ويسمى « ناخت — مين » فى لوحة محفوظة فى متحف اللوفر، إنه يتمنى أن يدخل قبره ويخرج منه، وأن يشرب كل يوم من ماء بحيرة كانت له، وأن يطير روحه فوق الأشجار التى زرعها، وأن يستنشق النسيم العليل تحت شجر الجميز الذى زرعه، وأن يأكل من ثمر هذا الشجر،وأن يكون له فم يتكلم، وأن يصعد إلى السماء و ينزل إلى الأرض من غير أن يقف فى سبيله عائق، وأن لا تسجن روحه، وأن يكون من المكرمين الممدوحين، وأن يحرث أرضه فى حقل يارو ،وأن يصل إلى حقل الطعام،وأن يأتيه الخدم بأنواع الخبز والشراب وجميع المأكولات التى يأكل منها رب الأبدية، وأن يأكل من اللحم الذى على مائدة الإله العظيم .

وكتب أقارب رجل يسمى «با — هيرى» كان أميرا لمدينة الكاب يتمنون له فى الحياة الأخرى : «أن تكون له يد طولى على الخبز والماء والهواء، وأن يتحول كما يريد إلى عنقاء[1] أو قطاة أو باشق أو مالك الحزين ...... وأن يتكلم فمه، وتمشى قدماه، وتتحرك يداه، ...... وأن يكون قلبه قريبا منه، وأن يصعد الى السماء» .

وفى تمنيات أخرى يتمنى الميت أن تكون له حقول وقطعان وعبيد من الرجال والنساء، وأن يبعث فى الحياة الأخرى شابا موفور القوة والصحة .

هذه بالإجمال هى الصورة، أو الصور، التى كان المصريون يتصوّرون بها دار الثواب، أى الجنة .

ويلاحظ أنها تميل فى كثير من جوانبها إلى جعل الجنة على مثال السعادة التى يتمناها المصرى لنفسه فى الدنيا . فحقل الطعام ذو الأطعمة الشهية التى تتجدد ولا تنفد،

---

(١) المراد بالعنقاء طير خرافى كانت الأساطير تزعم أنه يعيش مئات من السنين .

وشجرة الجميز التى تسمى شجرة الحياة، والخبز، والفطائر، وحقل القمح والشعير الذى يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع ، هـذه كلها صور متفرعة من الحياة المصرية . ولم يكتف « ناخت — مين » بهذا، بجعل يتمنى أن يجد فى الآخرة كل ما كان له فى الدنيا من شجر وثمر وبحيرة وحقل وخبز وشراب . يضاف إلى هذا كله أن تكون للميت نساء يتمتع بهن وأن يبعث شابا وأن يكون دائمـا فى صحة جيدة . ولا نحتاج أن نقول إن كثيرا من هذه الصور لا يزال باقيا إلى اليوم .

أما العقاب فقد تقـدّم أن من صـوره وحشا له رأس تمسـاح وجسم أسد يلتهم المذنب ، ونارا يلقى المذنب فيها . وهناك صـورة أخرى هى أن يبقى المذنب فى قبره فريسـة للجوع والعطش، محروما من رؤية الشمس . وفى بعض الأحيان يكون مع القضـاة الإثنين والأربعين الذين يجلسون مع أوزريس فى محكمته سيوف يضربون بها المذنبين (١) .

وتدل قصة ساتنى وولده التى أشرنا إليها من قبل على أنه كانت توجد صور غير هذه أيضا للعذاب، منها تعذيب الميت تعذيبا دائما بتركيز محور باب على عينه، وهذا الباب يفتح ويقفل ، والميت يصـيح من الألم كلمـا فتح أو أقفل . ومنها تعليق طعام فوق رؤوس المعذبين، وهؤلاء المعذبون يقفزون ليحاولوا الوصول إليه، فكلما قفزوا بعد الطعام عنهم .

ونصوص الأهرام ونصوص كتاب الموتى صريحة فى أن النعيم الذى ينعم به المستحقون للثواب فى الجنة هو نعيم خالد ، فلسائل أن يسأل وهل العـذاب الذى يعذب به المذنبون خالد أيضا ؟

والجواب على هذا أن قصة ساتنى وولده تقول إن الميت يصيح من الألم كلما أقفل الباب أو فتح على عينه . فمن البديهى أن استمرار الميت على الشعور بالألم يجب أن يفرض معه أن عينه تتجدّد بعد كل دورة للباب أو دورات .

(١) سبقت الاشارة إلى هذه السيوف فى خطاب الميت للقضاة فى الصفحة ١٠٤ من هذا الكتاب .

واستمرار العــذاب مفهوم بسهــولة فى حالة الميت الذى يترك فريســة للجوع والعطش محروما من رؤية الشمس ، ومفهــوم فى حالة الميت الذى يعلق الطعام فوق رأســه فكلما قفز ليتناوله بعد عنــه . أما الحالات التى تحتــاج إلى شىء من الوضوح من هذه الناحية فهى حالة الميت الذى يلتهمه الوحش، والميت الذى يلقى فى النار، والميت الذى يضربه القضاة بالســيوف . وعندى أن العــذاب فى هذه الحالات يجب أن يكون متجدّدا بعد الذى رأيناه فى النص على خلود النعيم فى الجنة ثم النص على تجدد العذاب فى كثير من الحالات .



وهنا نقف لحظة لنشرف على هذا المجهود الجبار الذى بذله المصريون فى القول بخلود الروح، وبالثواب والعقاب بعد الموت، فلا يسعنا إلا أن نعترف بأنه مجهود جبار خطا بالإنسان خطوة واســعة فى سبيل تهــذيب النفس ووضع المعــاملات والأخلاق على أساس من التقــوى والخوف من الله ، فى وقت كان الإنسان فيــه لا يزال قريبا من الحياة الوحشية .

نعم هو مجهود جبار، والعلماء الأجانب كلهم يعــترفون به ، ويقدرون فضل مصر فيــه ، ولكن هل كان ممكنا أن يسلم هــذا المجهود من نقص يعلق به إلى أن يمحصه الزمن فيسقط ويبقى الجوهر سليما ؟

ليس من سنن الأشــياء أن تخلص الحقائق الكبيرة للانسان من غير أن يتعــثر فى سبيل البحث عنها . بل التعــثر هو السنة الطبيعية، وقد جرت هــذه السنة على المصريين،فقام فيهم قوم يقولون إن الصيغ السحرية تستطيع أن تجنب الميت جميع المخاوف التى يستهدف لها بعد ممــاته، وتستطيع أن تؤتيــه الحكم بالبراءة من محكمة أوزريس مهما تكن ذنوبه ، وتســتطيع أخيرا أن تعطيــه النعيم الخــالد ولو كان لا يستحقه . وكانت الأمم كلها فى ذلك الوقت تؤمن بالســحر وتكاد تراه فى كل شىء . وكانت تجعل للساحر قدرة على تسخير الآلهة لإرادته .

وكانت الصيغ السحرية التى من هذا النوع قليلة فى نصوص الأهرام، فصارت كثيرة فى كتاب الموتى، وصارت النسخ التى توضع مع الأموات فى هذا الكتاب كثيرة أيضا، فدل ذلك على أن تجارة هذا النوع من السحر راجت .

ولا نزاع فى أن هـذا السحر الذى يسحر الآلهة ، و يعطى الميت حكما بالبراءة لا يستحقه ، ونعيما خالدا لا يستحقه، معطل للقوة التهذيبية التى لعقيدة الحساب بعد الموت . ولكن هل عطلها فى الواقع، فأفسد الإيمان الدينى، وأتلف الأخلاق، وأباح لكل أحد أن يرتكب ما استطاع من المعاصى والآثام ؟

علينا أن نسمع فى ذلك مايقوله المصريون أنفسهم، فقولهم هو الجواب الفصل .

كان من ملوك الأسرة التاسعة ملك عاقل حكيم ، أراد أن يترك لابنه الملك «مرى — كا — رع» وصية، فكتب فيها يقول :

« ليس لأحد على الأرض أن يقتل ، ولا أن يعمل بما يخالف العدل ، لأنه سيؤدّى حسابا عن أعماله » .

ثم استمرّ فقال :

« إن القضاة المقدّسين الذين يحاكمون الميت لا يتسامحون فى تطبيق الشريعة . فو يل حينئذ للميت من متهميه » .

والقضاة المقدّسون هنا هم قضاة محكمة أوزريس . والملك يقول إنهم لا يتسامحون، ثم يقول فويل حينئذ للميت من متهميه . فهذا صريح فى أن القضاة المقدّسين لا يتأثرون بالسحر، ولا يعرفون غير الحق والعدل يقيمون عليهما الحساب .

ثم استمرّ الملك فقال :

« لا تغتر بامتداد السنين ، فان حياة الإنسان على الأرض ليست فى نظر القضاة المقدّسين سوى لحظة قصيرة . سينشر الإنسان حين وصوله إلى الشاطئ الثانى [1] . وستكون أعماله مجتمعة بجانبه . إنها الأبدية هناك لا شك فيها . فمجنون من يحتقرها . أما الذى يأتى بغير ذنوب فسيحيا فيها كما يحيا الآلهة » .

وهذا قوى الدلالة فى المعنى الذى نريده . واستمرّ الملك أيضا فقال :

(١) الشاطئ الثانى هو تعبير كان المصريون يريدون منه الحياة الأخرى .

«إن الحياة على الأرض تمضى على عجل ... ... وامتلاك الألوف من الرجال لا يميز مالكهم . فمن اتق وعاش عيشة الفضيلة كان نصيبه الخلود فى الحياة الأخرى . من جاز الحساب أمام أوزريس مضى إلى الحياة الأخرى، أما من تساهل مع نفسه فى الحياة الدنيا فلا مفر له من التدمير» (١) .

ثم انظر ماذا قال أيضا . قال :

«إن الفضيلة التى يتحلى بها الرجل العادل أفضل فى عين الله من الثور الذى يذبحه الرجل الشرير قربانا له . على أنه ينبغى مع ذلك للرجل أن يفعل ما ينفع روحه فى الحياة الأخرى، فيقدّم القرابين لله . فان الله يعرف من يفعل له شيئا» (٢) .

وفى هذا كله لا يظهر أثر للسحر يمكن التعويل عليه وقت الحساب . وإنما المعوّل عليه هو عمل الإنسان على الأرض . فالتقوى والفضيلة ينجيان الميت، والشر والفساد يهلكانه، وآلهة الحساب لا ينخدعون ولا يظلمون .

وكتب با — هيرى أمير مدينة الكاب الذى مر ذكره، فرجا أن يصل إلى النعيم الخالد فى الحياة الأخرى، ولكنه لم يبن رجاءه هذا على الصيغ السحرية، بل على أعماله الطيبة وحدها، ثم قال :

« متى وضعت فى الميزان فسأخرج منه كاملا بغير نقص ... ... إننى لم أكذب قط على أحد . وقد عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس (٣) . نعم عرفته وخشيته وميزت الخير من الشر» .

وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كتب حكيم يسمى « بيكى » يعظ الناس فقال :

---

(١) هذا النص، إلى هنا، مترجم من كتاب (Le Nil et la Civ. Eg.) لمورى ص ٢٩٧

(٢) هذا النص مترجم من كتاب (La Réligion des Eg.) لإرمان ص ١٩٢

(٣) قوله «عرفت الله الذى هو فى قلوب الناس» يلفت النظر، لأن معناه أن الله ليس الصنم الذى يعبد فى المعابد، وإنما هو روح شائع فى قلوب الناس كما هو شائع فى كل شىء . ويرى بعض العلماء أن با — هيرى يريد بذلك الضمير الانسانى، ويقولون إن هذا أوّل تعبير من هذا النوع . وقد يكون قولهم هذا صحيحا، ولكن قد يكون صحيحا أيضا أن با — هيرى يريد ما يحسه الرجل الصالح فى قلبه من حب الله وتقواه والخوف من غضبه .

« اجعلوا مسرتكم فى خدمة معات (إلهة الحق والعدل) كل يوم . إن معات لا يصنع منها طعام ، ولكن الإله سيد أبيدوس (يريد أوزريس) يتغذى بها كل يوم . فان أنتم فعلتم هذا فكنتم دائما فى أعمالكم على حق وعدل فسيعود عليكم ذلك بالنفع ، فتجتازون الحياة الدنيا بقلوب راضية مغتبطة ، وتذهبون إلى الغرب الجميل (١) ، حيث تكون لأرواحكم الحرية فى أن تدخل أو تخرج أو تتريض مع الآلهة الخالدة » .

فهذا الحكيم لم يقل اعتمدوا على الصيغ السحرية تنالوا النعيم فى الحياة الأخرى ، بل قال اعتمدوا على أن تكون أعمالكم مطابقة للحق والعدل فى كل يوم . وظاهر أن قوله . «اجعلوا مسرتكم فى خدمة معات» تعبير مجازى معناه إجعلوا مسرتكم فى أن تكون أعمالكم مطابقة للحق والعدل . وقوله إن سيد أبيدوس يتغذى بالإلهة معات هو أيضا تعبير مجازى معناه أن الحق والعدل عنصران من عناصر أوزريس وأن أوزريس يطالب الناس بأن يكون هذان العنصران أساس سلوكهما فى الحياة .

وفى العصور الأخيرة للمدنية المصرية كتب واحد من الأعيان على قبره يقول :

« قلب الانسان هو إلهه . وقلبى راض عما فعلته حينما كان فى جسمى . فلأكن مثل الإله (٢) » .

وقصة ساتنى وولده ليس فيها أن أحدا من الأموات حصل على الثواب بقوة الصيغ السحرية وإنما فيها أن كل ميت أثيب أو عوقب على حسب أعماله فى الأرض .

---

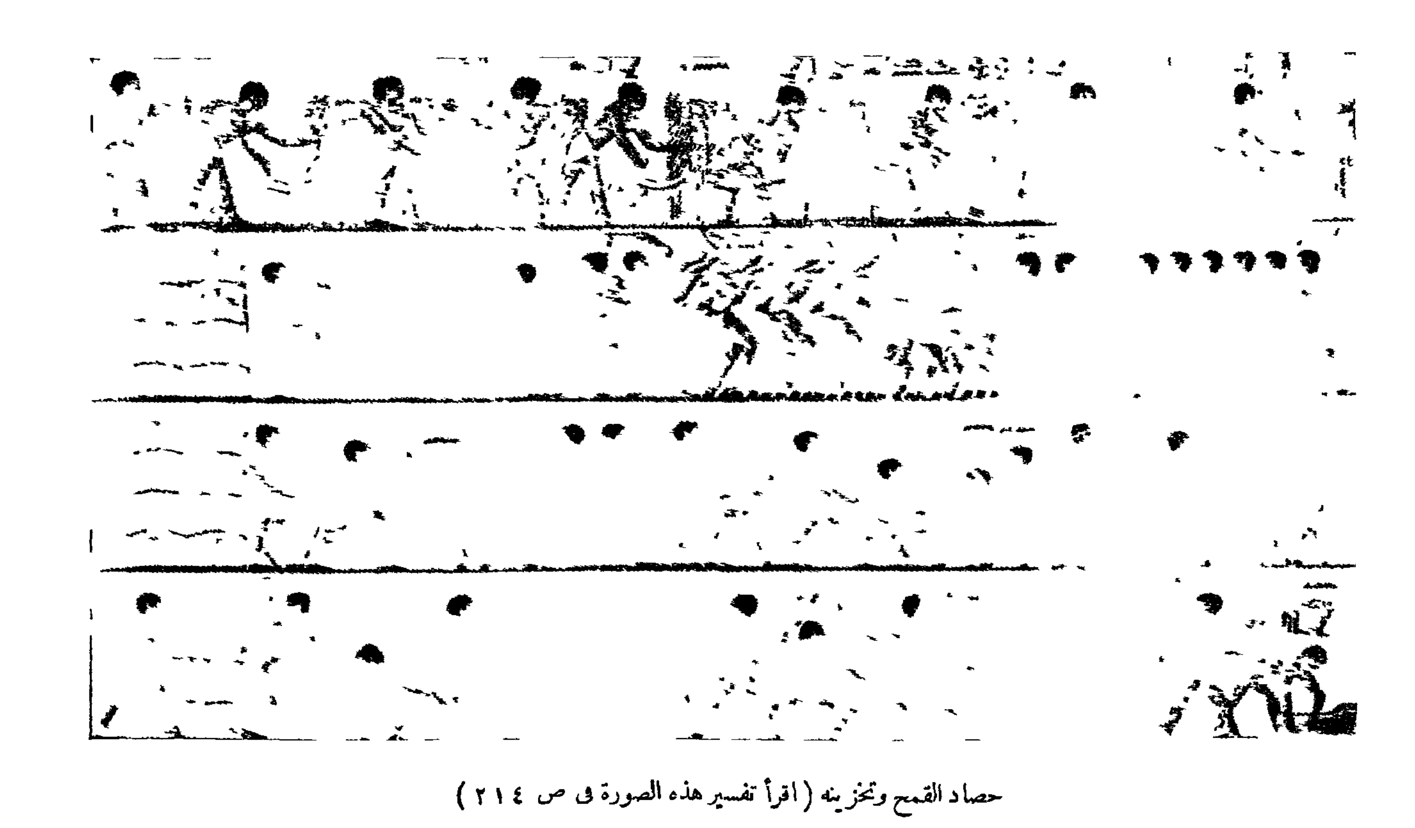
(١) تقدم أن المراد بالغرب الحياة الأخرى . أما المراد بالغرب الجميل فهو نعيم الجنة .

(٢) ص ٤٧٦ من كتاب Le Nil et la Civ. Eg. لمورى .

وظاهر أن المراد بقوله « قلب الانسان هو إلهه . وقلبى راض عما فعلته حينما كان فى جسمى » أن قلب الانسان هو قاضيه المقدس الذى يحاكمه فى الحياة الأخرى . لأنه متى كان القلب محل الرضى وعدم الرضى عن الأعمال فى الحياة الدنيا فقوله إن هذا القلب هو إله الانسان ينصرف إلى أن القلب هو القاضى الذى يتولى المحاكمة فى الآخرة .

أما قوله « فلأكن مثل الإله » فقد يكون المراد به أن أعماله الصالحة فى الحياة الدنيا تجعله يطمع فى أن يكون مثل الإله فى الحياة الأخرى عملا بالعقيدة التى كانت تقول إن الرجل الصالح الذى يصدر الحكم ببراءته أمام محكمة الحساب يصير مثل الإله أوزريس . أو قد يكون المراد أن اتصاله بالإله اتصالا صوفيا يجعله مثله . وهذا المعنى هو الذى عبر عنه الحلاج فى قوله « أنا الله » يريد أنه امتزج بالله فصار منه .

(لوحة رقم ١٥)



حصاد القمح وتخزينه (اقرأ تفسير هذه الصورة فى ص ٢١٤)

والكتابات التي ذكرناها في الصفحتين ١٠٥ و ١٠٦ ، وهي كتابات موزعة بين عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، تضاف إلى الكتابات المماثلة لها هنا فتؤدى كلها معنى واحدا هو أنه يكون من المجازفة أن يقال إن الصيغ السحرية عطلت القوة التهذيبية التي لعقيدة الحساب ، وربما كان الأصح أن يقال إن هذه الصيغ لم تؤثر إلا في النفوس التي يجعلها ميلها إلى الشر مستعدة لهذا التأثير . وهذه النفوس موجودة في كل زمان ومكان . وتصديق السحر موجود في زماننا هذا .



والآن نسأل ماذا عرفت المدنيات القديمة ، في غير مصر ، من عقيدة خلود الروح والحساب بعد الموت ؟

ونبدأ بالمدنية الكلدانية ثم نثني بالمدنية اليونانية .

فأما المدنيـة الكلدانية فقد تقدم أن برستيد عرض لمركزها ومركز مصر من عقيدة الحساب فقال :

« إن هـذا الفهم (أى فهم مصر) لقـواعد السلوك يبلغ من السمو حدًّا بعيـدا . وهو أول إبراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا في الحياة الأخرى متوقف كله على أعمالنا في الحياة الدنيا ... ومجموع هـذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به ، لأنه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من الأمم الأخرى . فقد كان البابليون (أى الكلدانيون) والإسرائيليون ، في الوقت الذى اهتـدى فيه المصريون إلى هذه العقيدة ، ينزلون جميع الأموات في مكان مظلم لا تفريق فيـه بين من أحسنوا ومن أساءوا » .

وهـذا صحيح فان الروح عنـد الكلدانيين كان ينتقل إلى مكان مظلم يسـمى « أرالو » موجود تحت الأرض في رأى البعض منهم ، وموجود في الجانب الشرقي من الكون في رأى البعض الآخر[1] . وفي هذا المكان تتولى الإلهة « ألات » محاكمة الأموات . وفي ذلك يقول ماسبيرو :

---

(١) ص ٦٣٠ كتاب (Histoire Ancienne des Peuples de l'Orient Classique) لماسـبيرو .

« لم يكن للخير أو الشر الذى فعله الميت فى حياته قيمة كبيرة فى تقدير أعماله . وإنما كان التقدير كله لما أظهره الإنسان على الأرض من التعلق بالآلهة عامة ، وبالإلهة «الات» خاصة ، بتقديم قرابين الذبائح والهدايا وتقديم أسباب الغنى للعابد » .

وبذلك لا يكون هذا الحساب حسابا على أعمال الإنسان فى الدنيا ، بل على تقديم الهدايا للعبودات والمعابد ، أى للكهنة الذين لا بدّ أن يكونوا هم الذين وضعوا هذه العقيدة لمنفعتهم .



وأما المدنية اليونانية فيحسن قبل الخوض فى موقفها من عقيدة الحساب أن لا ننسى أن بين نشوء هذه العقيدة فى مصر و بين نشوء المدنية اليونانية أكثر من ألفى سنة على أساس التاريخ القصير . أما ألف السنة التى قال برستيد إن العقيدة وجدت بعدها فى بلاد غير مصر فليس المراد بها اليونان و إنما المراد بها بلاد شرقية أخرى .

وأول مظهر من مظاهر المدنيـة اليونانية نلمح فيـه أثر العقيدة هو أوذيسة هومير[1] ، وذلك أن عوليس ينزل إلى الجحيم وحينئذ يقص فيقول :

---

(١) هومير من أقدم وأكبر الشـعراء اليونانيين . وقد عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وتعزى إليه قصتان شعريتان إحداهما تسمى الأوذيسة والثـانية تسمى الإلياذة . وتعزى إليه أيضا قصائد أخرى منها واحدة عنوانها «طيبة» ولكنها ضاعت .

و فى وجود هومير خلاف بين الباحثين فى تاريخه لأن كثيرا منهـم يقولون إنه لم يوجد و إن القصائد التى عزيت إليه هى أغان جمعت ونسبت إليه .

و يتلخص موضوع الأوذيسة فى أن عوليس ملك مقاطعة فى اليونان القديمة كانت تسمى ايتاك اشترك فى حرب طروادة ، ثم لما انتهت هذه الحرب لم يعد إلى مملكته بل نزل فى جزيرة كالبسو وأحب المعبودة التى كانت فيها . غير أنه كان يشـتاق إلى مملكته ففر من الجزيرة لكى يعـود إليها فألقته عاصفة على سواحل جزيرة أخرى . و بعد بضع سنين وحوادث كثيرة استطاع إن يعود إلى بلده فى زى متسول .

وفى خلال ذلك كانت امرأة عوليس ، واسمها بنيلوب ، قد انتظرت عودة زوجها فلما طالت غيبتـه تقدّم لها أربعة يطلبون يدها و يلحون عليها فى أن تختار واحدا منهـم . وكان تلياك بن عوليس قد خرج يبحث عن أبيه فطاف فى جزر كثيرة ثم عاد إلى ايتاك وقابل أباه وهو فى زى متسول فعرفه واتفق الاثنان على أن يبقيا متنكرين ليقفا على حقيقة ما فعلتـه بنيلوب فى غيابهما . وأخيرا انتقم عوليس من الأربعـة الذين كانوا يطلبون الزواج من بنيلوب بأن قتلهم ثم أظهر نفسه هو وتلياك فعرفتهما بنيلوب .

« رأيت مينوس جالسا والصولجان الذهب فى يده ، وهو يقضى بين الأموات ، وهؤلاء مجتمعون حوله يعرضون قضاياهم عليه جالسين أو واقفين فى دور « الهاديس (١) » ذات الأبواب الواسعة (٢) » .

ومينوس الذى يذكره هنا هومير على لسان عوليس كان ملكا قديما من ملوك جزيرة كريت ، وكان اليونانيون يزعمون فى ذلك الوقت أنه يجلس على عرش الحكم فى الجحيم ومعه أخواه ايباك وردامانت . وهنا ملاحظات :

أولها أن عوليس ينزل إلى الجحيم فى قصة هومير ، وساتنى وولده ينزلان إلى الجحيم فى القصة المصرية .

وثانيها أن مينوس يقبض بيده على صولجان من الذهب فى جحيم هومير . وأوزريس يقبض بيده على صولجان فى العقيدة المصرية .

وثالثها أن الأموات يعرضون قضاياهم على مينوس فى جحيم هومير . والأموات يناديهم المنادون لعرض قضاياهم على أوزريس فى القصة المصرية .

ورابعها أن الأموات واقفون أو جالسون فى دور الهاديس ذات الأبواب الواسعة . والأموات واقفون أو جالسون فى سبع قاعات فى القصة المصرية .

فجحيم هومير هذه هى بعينها الجحيم المصرية ، ولكن مع فارقين أحدهما فى الشكل والثانى فى الجوهر . فأما فى الشكل فالأموات فى جحيم هومير يعرضون قضاياهم على مينوس بأنفسهم وبغير أن يكون لهذا العرض نظام . بينما الجحيم المصرية فيها منادون ينادون القضايا واحدة بعد أخرى . فالأمر فى الأولى فوضى وفى الثانية منظم . وفارق آخر فى الشكل هو أن فى الجحيم المصرية ميزانا يصدر الحكم تبعا لنتيجته ، وليس فى جحيم هومير سوى مينوس يقضى بارادته .

---

(١) الهاديس هى دار الأموات أو دار الجحيم فى الأساطير اليونانية . وبعضهم يطلق هذا الاسم على ملك دار الأموات .

(٢) الجزء الحادى عشر من الأوذيسة ، والأبيات ٥٦٧ و ٥٦٨ و ٥٦٩ و ٥٧٠

وأما الفارق فى الجوهر فهو أن هومير يقول إن مينوس «يقضى بين الأموات» وإن هؤلاء الأموات «يعرضون عليه قضاياهم» . وهذا معناه فى رأى مورى [١] — وهو مصيب فيه — أن القضايا منازعات بين الأموات بعد الموت كالمنازعات التى تكون بين الأحياء، وليست حسابا يؤدّيه الأموات عن أعمالهم فى الحياة .

إذن ليست جحيم هومير دار حساب عن أعمال الناس فى الحياة بل هى دار حساب عن مشاجرات ومنازعات بعد الموت . وإذن تفقد جحيم هومير كل القيمة التهذيبية التى للجحيم المصرية . وإذن يحق لنا أن نقرّر هنا أن هومير أراد أن يقتبس قصة ساتنى وولده المصرية ومحكمة أوزريس المصرية، فقصر لأنه اقتبس بعض الشكل وفاته كل الجوهر .

ولكن هل وقف هومير عند هذا الحد ؟

كلا ، لأنه ضمن إلياذته [٢] شيئا من الفكرة المصرية ، غير أنه قصر فى هذه المرّة أيضا، فأخذ بعض الشكل وفاته كل الجوهر .

وذلك أنه يحدّثنا فى إلياذته بأن الإله ذفس (وهو كبير الآلهة عند اليونانيين) يريد أن يقضى فى مصير إحدى المعارك بين اليونانيين وأهل طروادة فيضع حظ الأوّلين فى كفة ميزان وحظ الآخرين فى الكفة الأخرى ، ثم يأخذ الميزان من منتصفه ويرفعه فتهبط كفة اليونانيين إلى الأرض وتعلو كفة الطرواديين إلى السماء [٣] فيكون هذا قضاء للأوّلين بالنصر وعلى الآخرين بالهزيمة .

ثم يحدّثنا هومير أيضا بأن ذفس يقضى مثل هذا القضاء نفسه وبهذه الطريقة

---

(١) كتاب (Rois et Dieux d'Egypte) ص ١٣٥

(٢) الإلياذة هى قصة شعرية قص فيها هومير ما وقع من الحوادث فى حرب شنها اليونانيون على مدينة طروادة . وهى مدينة قديمة كانت على سواحل آسيا الصغرى .

(٣) الإلياذة — الجزء التاسع منها — الأبيات من ٦٩ إلى ٧٤

نفسها فى معركة حاسمة بين أشيل وهكتور[١] فتعلو كفة أشيل فينتصر على هكتور ويقتله .

فالإله اليونانى ذفس ينصب هنا ميزانا للقضاء كالميزان الذى ينصبه الإله المصرى أوزريس . ولكن هذا الشبه قائم فى الشكل فقط ، أما فى الجوهر فان أوزريس ينصب ميزانه ليزن به حسنات الميت وسيئاته فى الحياة ثم ليثيبه أو يعذبه تبعا لنتيجة الميزان ، بينما ذفس يزن بميزانه حظوظ المتعاركين فى المعارك . فالميزان المصرى له كل معناه التهذيبى أما الميزان اليونانى فليس فيه هذا المعنى .

وما نحب هنا أن ننتحل شيئا ليس لنا فندعى أننا أصحاب هذه المفاضلة بين الميزان المصرى والميزان اليونانى ، بل نحن بالعكس نرد الحق إلى صاحبه فنقول إن أوّل من لاحظها هو العالم دى ويت (De Witte)[٢] فى سنة ١٨٤٥ ثم أيده فيها بعد ذلك مورى فى سنة ١٩٢٥ . وهذا نص ما قاله دى ويت :

«ليس فى إلياذة هومير شىء يدل على أن الغرض من الميزان يتعلق بالحياة الأخرى أى بالعقاب والثواب اللذين ينتظران الإنسان فيها ... وإنما الغرض الوحيد من الميزان هو القضاء فى النهاية التى تنتهى بها معركة ... فوزن الحظوظ والأرواح لا يراد منه على هذا سوى خلاف مادى ... والكفة الخفيفة هى التى تعين صاحب الحظ الفائز» .

وهذا كله صحيح ، وهو يدل كما قلنا على أن هومير لما أراد أن يقتبس الميزان المصرى بعد ألفى سنة أخذ الشكل وفاته الجوهر .

---

(١) أشيل هو قائد يونانى يعتبر أعظم أبطال الإلياذة وتروى هذه الإلياذة أنه نازل هكتور أعظم قائد طروادى فى أثناء حصار طروادة فقتله ولكن قائدا طرواديا آخر اسمه بارى رماه بسهم مسموم فأصابه فى عقب قدمه .

وهذا القضاء بين أشيل وهكتور بواسطة الميزان مذكور فى الجزء العاشر من الالياذة فى الأبيات من ٢٠٩ إلى ٢١٣

(٢) هو عالم بلجيكى اشتهر بميله إلى دراسة الآثار القديمة والآثار المصرية خاصة وله فيها رسائل ومؤلفات وقد توفى سنة ١٨٨٩

* * *

وتمضى بعد هومير عدّة أجيال حتى نصل إلى الشاعر اليونانى پندار (Pindare) فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد — وهو من شعراء الطبقة الأولى — فنسمعه يقول فى قصيدته الأولمبية الثانية :

«سيجد العظماء فى الأرض قاضيا فى الجحيم ، فالذين ارتكبوا منهم أعمالا مجرّمة تحاكمهم الإلهة أنانكى » .

فهنا ظهرت لأوّل مرة فى الآداب اليونانية فكرة محاسبة الأموات على أعمالهم فى الحياة ، ولكنها تظهر مبهمة كما يلاحظ العالم الألمانى روهل (Ruhl) لأن الشاعر پندار لا يقول لنا كيف تجرى المحاسبة ولا على أية قاعدة تجرى .

وكان من الضرورى للمدنية اليونانية وقد خطت هذه الخطوة فى اقتباس الفكرة المصرية أن تخطو الخطوة المكملة لها ، وهذا ما فعله بعد ذلك الفيلسوف أفلاطون[١] .

كتب أفلاطون كتابه الذى جعل عنوانه «مدح سقراط» فذكر فيه أن فى الجحيم قضاة يحكمون بالعدل هم « مينوس ورِدامانت وإيباك وتريبوليتيم وجميع أنصاف الآلهة الذين كانوا فى حياتهم عادلين » . ثم عاد إلى هذه الجحيم وقضاتها فى كتابه « جورجياس »[٢] ففصلها تفصيلا ننقله هنا عن مورى[٣] . قال أفلاطون :

(١) من المحقق أن أفلاطون زار مصر وأقام فيها زمنا غير قصير كان يتردّد فيه على مدارسها وكهنتها . وقد روى أن هؤلاء الكهنة قالوا عن اليونانيين فى ذلك الوقت : «أيها الناس . إنكم لستم سوى أطفال ، وليس بينكم شيوخ » . والتعبير هنا مجازى يعنى أنكم أطفال فى المعرفة وليس بينكم شيوخ فيها .

راجع فى ذلك ص ٤٩ من مقدّمة الجزء الأوّل من كتاب (Histoire de la Nation Eg.) بقلم هانوتو أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسية . وهذا الجزء من الكتاب مطبوع فى سنة ١٩٣١

وسيأتى فى ما بعد أن كلا من ديودور الصقلى وهيرودوت أثبت فى كتبه وجود أفلاطون فى مصر وتردده الكثير على أستاذ مصرى فى معبد هليو پوليس .

(٢) كتاب « جورجياس » هو كتاب جعله أفلاطون محاورات بين باحث يونانى كان يسمى جورجياس وبين سقراط وفلاسفة آخرين .

(٣) كتاب (Rois et Dieux d'Egypte) ص ١٣٦ وما يليها .

« حينما كان الحكم لساتورن (أى زحل) ، وفى السنين الأولى من حكم جوبتير (أى المشترى) كانت محاكمة النـاس تجرى وهم أحياء ، وعلى يد قضاة أحياء ، فكان هؤلاء القضاة يقضون فى مصائر النـاس فى اليوم الذى يموتون فيه . وكان فى هذه الأحكام كثير من الخطأ فذهب بلوتون (هو ابن ساتورن وملك الجحيم) وحكام الجزائر السعيدة (هى الجنة عند اليونانيين) إلى جوبتير وقالوا إن القضاة يبعثون إليهم برجال لا يستحقون الثواب الذى يكتب لهم ولا العقاب الذى ينزل بهم .

« فقال جوبتير : سأمنع هذا الظلم . إن السبب فى الأخطاء التى تقع اليـوم فى الأحكام هو أن محاكمتهم تتم وهم غير مجرّدين من ملابسهم (المراد بالملابس هنا ما يلبسه الروح وفى مقدّمته الجسم) لأنهم يحاكمون وهم أحياء فينشأ من ذلك أن يكون كثيرون ممن فسـدت أرواحهم لابسين أجساما جميـلة من النبل والغنى ... ثم يتقدّم جمهور من الشهود يشهد لهم فينخدع القضاة . ثم أن هؤلاء القضاة أنفسهم يحكمون وهم غير مجرّدين من ملابسهم ، و بينما كل كتلة أجسامهم قائمة أمام أرواحهم ... فمنذ اليوم أريد أن تكون محاكمة الناس وهم عرايا مجرّدون من كل ما يحيط بهم ، ولهذا أريد أن تكون بعد موتهم . ويجب أيضا أن يكون القاضى قد ترك كل هذه العدّة فى الأرض كى يكون حكمه عادلا » .

« لقد جاءنى خبر هذا الظلم فأمرت ثلاثة من أبنائى بأن يتولوا القضاء : اثنين منهم لآسيا وهما مينوس وردامانت ، والثالث لأوربا وهو إيباك ... فمتى ماتوا فسيصدرون أحكامهـم فى المرج فى المكان الذى تنتهى اليه ثلاثة طرق : أحدها يؤدّى إلى الجزائر السعيدة ، والثانى إلى قاع الجحيم . وسيتولى ردامانت محاكمة أهل آسـيا . وسيتولى إيباك محاكمة أهل أوربا . وسأجعل لمينوس سلطة الفصل نهائيا فى الحالات التى يرتبك فيها واحد منهما » .

ثم يقول أفلاطون :

« فاذا جاء الأموات أمام قاضيهم دعاهم ردامانت إلى القرب منه ثم فحص روح كل واحد منهم من غير أن يعرف لمن هى ... فاذا وجدها مملوءة فسادا وخبثا وكانت قد عاشت بعيدا عن الحقيقة ، بعث بها إلى السجن لتتلقى فيه العقاب الذى تستحقه ... » .

ثم يقول أفلاطون إن الذين تكون ذنوبهم مما يمكن التكفير عنه ، يكفرون عن ذنوبهـم بالآلام . أما الذين ارتكبوا أعظم الجـرائم فلا تطهير لهم ، وحينئذ يكون عقابهم الذى لا فائدة لهم منه عبرة لغيرهم .

ثم يقـــول :

« وردامانت يرسل المحكوم عليهم إلى قاع الجحيم بعـد أن يسمهم بميسم تبعا لقابليتهم أو عدم قابليتهم للتطهير ، أما الروح الذى يرى أنه عاش فى الطهر وفى الحقيقة فانه يبتهج به و يرسله إلى الجزائر السعيدة » .

ويقول أفلاطون بعد ذلك إن ايباك يفعل فى الذين يحاكمهم كما يفعل رداماث ثم يقول إن كل قاض من هؤلاء القضاة الثلاثة يمسك فى يده صوبحانا .

***

بهذا صوّر أفلاطون عقيدة الحساب بعد الموت . والناظر فى ما كتبه يرى أنه استبقى الآلهة الثلاثه الذين ذكرهم هومير وهم مينوس وايباك وردامانت ،ولكن هؤلاء الذين كانوا عند هومير يقضون بين الأموات فى منازعات تجد بينهم بعد الموت صاروا يحاسبون الأموات على أعمالهم فى الحياة كما تفعل الآلهة المصرية أوزريس وتوت وانوبيس .

ولهذا الحساب عند أفلاطون نتيجة من نتائج ثلاث : الأولى أن يثاب الميت بارساله إلى الجزائر السعيدة، والثانية أن يعذب فى قاع الجحيم إلى الأبد إن كانت ذنوبه كبيرة ، والثالثة أن يعذب إلى وقت ليكفر عن ذنوبه إن كانت مما يمكن التكفير عنه . وهذه النتائج الثلاث هى بعينها نتائج الحساب فى العقيدة المصرية .

والقضاة عند أفلاطون يمسك كل واحد منهم صوبحانا . وأوزريس يقضى وفى يده دائما صوبحان .

فعقيدة الحساب عند المصريين هى إذن عقيدة الحساب عند أفلاطون . وأفلاطون يكمل بذلك ما بدأه هومير فقصر فيه . ولكن يلاحظ مع هذا أن أفلاطون لم يذكر ميزانا ولا وزنا فى دار حسابه ، بينما الميزان والوزن عنصران بارزان فى دار الحساب المصرية . فان قلنا إن أفلاطون يكمل ما بدأه هومير — وهذا هوا الراجح — فالميزان والوزن مذكوران عند هومير، وإن قلنا إنه لا يكمل فهو حينئذ يترك للآلهة أن يحاسبوا الأموات تبعا لما يرونه هم عدلا لا تبعا لميزان العدل أى للعدل المطلق .

***

من هذا نخرج بأن فكرة المصريين فى دار الحساب وفى العقاب والثواب ظهرت بعد ألفى سنة عند اليونانيين على يد هومير، بيد أنها ظهرت حينئذ ناقصة

مقتصرة على الشكل دون الجوهر، ثم جاء پندار فسد شيئا من هذا النقص، ثم جاء أفلاطون الذى لا شك فى أنه تعلم فى مصر فسد ما كان باقيا من النقص . وكان من الضرورى أن يستبق أفلاطون الآلهة اليونانية فاستبقاها ؛ وكان من الضرورى أيضا أن يصبغ الفكرة بصبغة الأساطير اليونانية فصبغها بها . ولكن الفكرة بقيت مع ذلك مصرية تطل من ثنايا صبغتها اليونانية .

وما أقول هذا وحدى، ولا أقول به من عندى، بل يقوله معى ثلاثة من كبار العلماء الذين تفرغوا لدرس العلوم والآثار اليونانية والمصرية، وقد ذكرت أسماءهم من قبل وهم روهل الألمانى، ودى ويت البلجيكى، ومورى الفرنسى .

ولك أن تقول، إن شئت، إن المدنيـة اليونانية اهتدت من تلقاء نفسها إلى الفكرة كما اهتدت اليها من تلقاء نفسها المدنيـة المصرية، فليس الأمر أمر نقل وإنما هو أمر اهتداء إلى فكرة سليمة يقوم عليها صلاح العالم . لك أن تقول هذا، فان قلتـه فلا تنس أولا أن اليونانيين فى عهد هومير وعهد پندار وعهد أفلاطون كانوا على أوثق اتصال بمصر، ولا تنس ثانيا أن أفلاطون أقام فى مصر زمنا واتصل بمدارسها وكهنتها، ثم لا تنس أخيرا أن اقتباس المدنية اليونانية من المدنية المصرية هو حقيقة يراها العلماء الآن فى جميع ما بقى من آثار الفن والصناعة وهندسة البناء فى المدنيتين .

وليكن الأمر مع ذلك بعيدا عن النقـل، وليكن اهتداء إلى فكرة واحدة، فان من الفضل لمصر أنها كانت أول بلاد عرفت هـذه الفكرة فى العالم كله، وأن ألف سنة يجب أن تمضى على وجودها فى مصر كى يمكن أن نجد شيئا منها فى بلاد أخرى كما يقول برستيد .

ومن الفضل لمصر أيضا أن فكرتها هذه عمت كل الأمم المحيطة بها، حتى قصة ساتنى وولده فى نزولها إلى دار الحسـاب عمت أكثر الآداب، فهى فى الآداب اليونانيـة يصورها هومير فى نزول عوليس إلى الجحيم، وهى فى الآداب الرومانية

يصورها هوراس (Horace) وفرجيل (Virgile)، وهى فى الآداب العربية يصوّرها أبو العــلاء المعرى فى رسالة الغفران ، وهى فى الآداب الايطاليــة يصوّرها دانتى الجيرى (Danti Alégiere) فى الكوميديا المقدّســة، وهى فى الآداب الفرنسية يصوّرها فنلون (Fenelon) فى قصة تليماك، وقس على هذا آداب كثير من الأمم .

ولهذا ، ولغــيره ، حق للعــالم الأمريكى هنرى ستيد أن يقول « إن عقيــدة الحساب تثبت أن مصر أول بلد فى العالم استيقظ فيه ضمير الإنسان » .

وحق للعــالم المؤرّخ لافيس، العضو فى الأكاديمية الفرنســية أن يمهد لتاريخ اليونان فيقول « إن اليونان التى ســنعرض فى الصفحات التالية لتاريخها المجيــد ، تعلمت كثيرا من مصر . إن مصر كانت المعلمة الأولى للإنسانية »[1] .

(١) كتاب (Histoire de France) ص ١٩ تأليف (E. Lavisse)

لوحـــة رقـــم ١٦)



الملك أميوفيس الثالث وزوجته الملكة تى ي (بمتحف القاهرة)

المدنية اليونانية

وأثر المدنية المصرية فيها

اقتباسات هوميروس

من الأساطير والآداب المصرية

كتبت فى « البلاغ الأسبوعى » فى ١١ مارس سنة ١٩٢٧ ألاحظ أن المدنية العربية نقلت إلى العالم كثيرا من علوم المدنية اليونانية نقل صراحة وأمانة، فعزت كل رأى إلى صاحبه ولم تعز لنفسها إلا الذى زادته على هــذه الآراء ، حتى كانت الفلسفة اليونانية لا تعــرف فى أوربا فى العصــور الوسطى وفى أوائل العصر الذى يسمى فى أوربا عصر النهضة (Renaissance) إلا فى الكتب العربية، ولم تدرس فى كتبها اليونانية إلا بعد ذلك . وكتب ابن رشد التى ترجم فيها ما ترجمه من مؤلفات أرسطو، هى التى حملها بعض تلاميذه إلى أوربا بعد أن نكبه المنصور، فنقلت منها إلى اللاتينية، ومنها عرف الأوربيون فى ابتداء نهضتهم أرسطو وآراءه، ثم استمروا يدرسون فيها هذه الآراء إلى أن اهتدوا بعد زمن إلى كتب أرسطو فى لغته اليونانية.

ولكن المدنيــة اليونانية جاءت تالية للمدنية المصرية، وأنت مع ذلك تمر بكل ما ألفه علماؤها فلا تجد ذكرا لعلوم أو آداب مصرية، ولا لعلماء أو أدباء مصريين . اللهم إلا ما كتبه هيكاتى دى ميلى وهيرودوت وأمثالهما من المؤرخين والسائحين الذين زاروا مصر كما زاروا غيرها من البلاد، فكتبوا عنها كما كتبوا عن غيرها من الناحية الوصفية . ولسنا ننكر أن ما كتبه هؤلاء الرحالون كان ولا يزال ثمينا، ولكنهم كتبوه كما قلنا وصفا لمــا شاهدوه وسمعــوه ، لا نقــلا لعلوم ولا ذكرا لعلمــاء . وكتب الرحلات والتواريخ غير كتب العلم والأدب .

كتبت ذلك فى مارس سنة ١٩٢٧ ، والآن وقد مضت ثلاث عشرة سنة قرأت فيها ما قرأته من الكتب ، وتوفرت على ما تيسر لى أن أتوفر عليه من البحث، لا أرى ما يحملنى على نقض ملاحظتى هذه أو تعديلها، بل أرى بالعكس أن الأدلة كلها تنهض على صحتها .

فقارئ العلوم والآداب اليونانية لا يجد فيها ذكرا لعلوم أو آراء مقتبسة من مصر، ولا يقف فيها على أسماء لعلماء مصريين ولا على نتاج كان لهم فى علم أو فن أو أدب[1]،

---

(١) يمكن أن يستثنى من ذلك كتاب واحد هو كتاب « إيزيس وأوزريس » الذى وضعه الكاتب اليونانى =

مع أن قارئ العلوم والآداب العربية لا يكاد يمر بها حتى يجد أسماء صولون وسقراط وأبقـراط وأفلاطون وفيثاغورس وأرسطو وعشرين أو ثلاثين غيرهم ، كل منهـم برأيه ونتاج ذهنه ، وكثير منهـم بكتبه معربة كلها أو تكاد . وقـد نشأ من ذلك اعتقادان: أولها أن المدنية المصرية لم تنتج ما يستحق أن يذكر، والثانى أن المدنية اليونانية ابتكرت كل علومها ، وكل فلسفتها ، وكل آرائها فى الحياة والاجتماع ونظام الحكم ،وابتكرت كل دياناتها وآدابها ، حتى ليقال إن الفكر الانسانى يبدأ منها ،و إن كل ماسبقها لم يكن سوى فوضى فكرية كفوضى الطفولة يجب أن تسقط من الحساب .

والعلمـاء والكتّاب اليونانيون أنفسهـم لا يمارون فى هـذا بل يقولونه ، وهم يسمون كل من عداهم من الشعوب « البربر »(١) لا يستثنون المصريين ولا الكلدانيين ولا الفنيقيين ولا الفـرس ولا غيرهم من أصحـاب المدنيات التى سبقتهـم . ومن ألطف ما يذكر هنـا أن المصريين القـدماء كانوا يسمون من عداهم من الشعوب « البربر » لأنهم حينما ازدهرت مدنيتهم منـذ أكثر من ٥ آلاف سـنة على عهد الملك مينا لم يجدوا حولهم إلا شعوبا يطلق عليها هذا الاسم بحق . أما اليونانيون فقد جاءت مدنيتهم بعد ذلك بنحو ٣ آلاف سنة كانت قد وجدت فيها مدنيات عدّة .

وقد سرى الاعتقاد بأن المدنيـة اليونانية ابتكرت كل دياناتها وآدابها وفلسفتها إلى كل الذين أغرموا بدرس هذه المدنية من جميع الأمم ، فصارت الكلمة المتفق عليها بين هؤلاء المغرمين أن المدنيـة اليونانية لم تقتبس علما ولا فنا ولا أدبا من أية مدنيـة سبقتها ، مع أن التاريخ الصادق يحدّثنا بأن المصريين وصـلوا إلى اليونان فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، أى قبـل نشوء المدنية اليونانية بنحو ألف سـنة ، وهـذا التاريخ نفسـه يحدّثنا بأن اليونانيين اتصلوا بعد ذلك بمصر وانكبوا عليهـا ،

= بلوطرك (Plutarque) فشرح فيه عبادة ايزيس وأوزوريس لأنها كانت فى ذلك الوقت قد انتقلت إلى اليونان ولبست ثوبا يونانيا . ولكن هذا الاستثناء منصب على عبادة دينية ، أما العلوم والآداب فليس فى الكتب اليونانية شىء عنها .

(١) كتاب (Causeries d'Egypte) لماسبيرو — ص ٦١ من الطبعة الرابعة .

حتى كانت لهم فيها منطقة خاصة بهم فى شمال الدلتا عامرة بالمدن[١]، وحتى كانوا يقولون إن هذه المنطقة امتداد لليونان وإن مصر الحقيقية لا تبتدئ من سواحل الدلتا، بل من مدينة سايس (حيث توجد الآن صا الحجر بمديرية الغربية)، وحتى كان الجيش المصرى فى زمن الفراعنة بساماتيك الأول وأبريس وأمازيس وبساماتيك الثالث مؤلفا من فرق مصرية وفرق مستأجرة يونانية وغير يونانية، على رأس بعضها قواد يونانيون[٢].

(١) نذكر من هذه المدن مدينة نوكراتيس ومدينة انتيللا ومدينة اركندرو بوليس . وقد ذكر هيرودوت هذه المدن الثلاث . والأولى أشهرها وكانت واقعة على الفرع الكانوبى من فروع النيل القديمة، حيث توجد الآن قرية كوم جعيف جنوبى دمنهور بمديرية البحيرة . أما المدينتان الأخريان فلم يعين مكانهما بعد . وكان الفراعنة حينما ضعفت شوكتهم قد أباحوا لليونانيين سكنى هذه المنطقة وخصوهم فيها بامتيازات تجارية تجعل تجارة مصر مع جميع البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط احتكارا لهم .

وقد قال هيرودوت فى ذلك فى الفقرة ١٧٨ من كتابه :

« كان أمازيس يحب اليونانيين، فأعطى بعضا منهم دلائل على رعايته لهم . نذكر من هذه الدلائل أنه أعطى الذين يفدون عليها منهم بقصد الإقامة مدينة نوكراتيس ليقيموا فيها . أما الذين لم يكونوا يقصدون الإقامة، بل كانوا يجيئون لقصد التجارة، فقد أعطاهم أماكن ينشئون فيها مذابح ومعابد لآلهتهم . وكان أعظم هذه المعابد وأشهرها وأعمرها بالناس يسمى هلنيون . وقد اشتركت فى الأموال اللازمة لبنائه مدن يونانية عدة ... ... » .

وهنا ذكر هيرودوت أسماء هذه المدن وقال إن أمازيس سمح لها بتأليف شرطة يونانية كانت تراقب أسواق التجارة وتؤدى عمل الشرطة فى مدينة نوكراتيس وتقضى بين التجار . ثم قال :

« وكانت نوكراتيس الميناء الوحيد المفتوح للتجارة البحرية . ولم يكن فى مصر ميناء آخر له هذه الميزة . فكان الواصل من البحر الأبيض إلى مصر، إذا وصل بسفينته إلى مصب فرع من فروع النيل غير الفرع الكانوبى (الذى تقع عليه نوكراتيس) طولب بأن يحلف أنه لم يصل إليه باختياره . وبعد أن يحلف يكون عليه أن يتجه بسفينته إلى المصب الكانوبى . فاذا كانت الرياح تجعل هذه الرحلة مستحيلة فعليه أن ينقل محصول سفينته على مراكب مصرية تدور بهذا المحصول حول ساحل الدلتا حتى تصل إلى المصب الكانوبى ومنه إلى نوكراتيس . وكان هذا من الامتيازات التى أعطيت لهذه المدينة » .

(٢) كان وجود هذه الفرق المستأجرة نكبة على مصر، لأن الفرق المصرية والشعب المصرى ثارا عدة ثورات بسبب وجود الأجانب فى الجيش والامتيازات التى كانت تتمتع بها الفرق اليونانية والمدن اليونانية . ثم إن بعض القواد اليونانيين خانوا مصر . ومنهم القائد فانيس الذى كان قائدا للجيش المصرى =

بهذا كله يحدثنا التاريخ الصادق ، كما يحدثنا بأن اليونانيين كانوا ينظرون إلى مصر ودياناتها بعين الدهشة والإكبار، ويرون فى مدارسها ينابيع للحكمة والعرفان، ويجدون من الخير لهم ولبلادهم أن يربطوا معبوداتهم بمعبوداتها، وأساطيرهم بأساطيرها، وأن يحتذوا فى هذه وتلك مثالها[1] .

وكثير من فلاسفة اليونان وشعرائها وكتابها الذين ظهروا حين نشوء المدنية اليونانية، والذين ظهروا حينما كانت هذه المدنية فى أوجها، زاروا مصر، وتلقوا العلم فى مدارس مصر . وقد يحسن أن نذكر هنا بعضا منهم معتمدين فى ذلك على المصادر اليونانية القديمة التى لا يمكن أن تتهم بمحاباتها مصر .

= فى عهد بساماتيك الثالث ، ثم لما علم أن جيش قمبيز قادم لغزو مصر فر إليه وقابله فى سوريا وانضم إليه . وكان قمبيز واقفا موقف الارتباك أمام صحراء سيناء فشجعه فانيس ودله على الوسائل التى يجتازبها الصحراء واستأجر له رؤساء البدو من سكانها يمدون جيشه بالماء والجمال . وكان لفانيس أولاد لا يزالون فى مصر فلما علم المصريون بخيانة أبيهم ذبحوا هؤلاء الأولاد على مرأى منه فى ميدان القتال . ثم فتح قمبيز مصر . وقد ذكر هيرودوت هذه القصة مفصلة .

(١) أثبت عالم من العلماء المتخصصين فى درس المدنية اليونانية يسمى فوكار (M. Paul. Faucart) فى كتابه المسمى :

(Recherches sur l'origine et la nature des mystères d'Eleusis).

والمطبوع فى سنة ١٨٩٥ ، أثبت هذا العالم أن عبادة ايلوزيس التى كانت منتشرة فى اليونان منقولة من عبادة ايزيس وأوزريس المصرية فى طقوسها وتقاليدها ورموزها .

ومعروف أن كبير الآلهة فى الأساطير اليونانية كان يسمى ذفس (Zeus) فهذه الكلمة معناها فى اللغة اليونانية « الذى يخفى نفسه » ، وهذا هو بعينه معنى كلمة أمون التى كانت تطلق على كبير الآلهة فى طيبة . وقد ذكر ذلك الفيلسوف والمؤرخ اليونانى بلوطرك (Plutarque) فى الفقرة ٩ من كتابه الذى وضعه باسم « إيزيس وأوزريس » ، وترجمه إلى الفرنسية Mario Meunier ، وطبعه فى سنة ١٩٢٤ ، وهذه الترجمة هى آخر ترجمة لهذا الكتاب ، وهى التى اعتمدت عليها هنا .

وقد قال بلوطرك فى الفقرة التى أشرنا إليها إن كلمة أمون معناها فى اللغة المصرية « الذى يخفى نفسه » وإن هذا هو بعينه معنى كلمة ذفس التى اختارها اليونانيون لكبير آلهتهم .

ومعروف أن توت هو الإله الذى يعزو المصريون إليه أنه علمهم الكتابة والعلوم والفنون . وقد قاس اليونانيون على هذا فجعلوا فى أساطيرهم إلها يسمى هرمس علمهم الكتابة والعلوم والفنون . فتوت المصرى هو هرمس اليونانى .

=

· فديودور الصقلى (١) يقول :

« يؤكد الكهنة المصريون ، استنادا إلى كتبهم المقدسة ، أنهم شاهدوا فى بلادهم أورفى (٢) . وموزى (٣) ، وميلامبوس (٤) ، وديدال (٥) ، ثم الشاعر هومير ، وليكورج (٦) الاسبارطى ،

= وهناك اقتباسات دينية أخرى .

ويقول هيرودوت فى الفقرة ٥٠ من كتابه :

« تكاد جميع الشخصيات المقدسة فى اليونان أن تكون مأخوذة من مصر . نعم إن بحوثى الخاصة دلتنى على أن هناك شخصيات مقدسة أخذتها اليونان من البلاد المتبربرة ، ولكنى أرى أن أكثر الشخصيات مأخوذة من مصر خاصة . فانه فيما عدا بوزيدون ، وديوسكور ، اللذين أشرنا إليهما فيما مضى ، وفيما عدا هيرا وهستيا وتميس وشيت وتيربيد ، فان جميع الشخصيات المقدسة اليونانية موجودة فى مصر » .

ثم عاد هيرودوت فأكد هذا المعنى مرة أخرى فى الفقرة العاشرة قائلا :

« لقد تلقى اليونانيون من المصريين العادات التى أشرنا إليها ، كما تلقوا منهم عادات أخرى سنتكلم عنها فيما بعد » .

(١) Diodore de Cicile هو مؤرخ يونانى قديم زار مصر بين سنة ٦٠ وسنة ٥٧ ق م ووضع عنها كتابا وصفيا .

(٢) Orphée كان ابنا لملك مقاطعة يونانية تسمى تراس . وهو أشهر موسيقى يونانى . وقد زار مصر وأقام فيها زمنا . وتقول الأساطير اليونانية إن أنغامه كانت تستوقف الوحوش تحت قدميه ، وإن ثعبانا لدغ زوجه فى ليلة زفافها إليه فماتت ، فنزل إلى الجحيم وفتن آلهتها بأنغامه فردت زوجه إليه واشترطت عليه ألا ينظر إلى الخلف إلا بعد أن يخرج من مملكة الظلام ، فخالف أورفى هذا الشرط ونظر إلى الخلف ليرى زوجه فعوقب بأن فقد الأحساس ثم مزق .

(٣) Musée شاعر وموسيقى يونانى قديم يعتبر تلميذا للموسيقى أورفى الذى تقدم ذكره . وهناك شاعر يونانى آخر يسمى بهذا الاسم عاش فى القرن السادس قبل الميلاد .

(٤) Mélampos طبيب يونانى اشتهر بالطب والسحر وعاش فى العصر الذى يعرف فى تاريخ اليونان بعصر الآلهة والأبطال الخرافيين . وقد كتب عنه هومير الشاعر المعروف فقال إنه تعلم بعض العقائد الدينية المصرية وإنه هو الذى أدخل عبادة باكشوس إله الخمر فى اليونان .

(٥) Dédale مهندس بناء يونانى زار مصر وأقام فيها زمنا . وقد اشتهر فى اليونان بأنه هو الذى بنى اللابيرنت أو قصر التيه فى جزيرة كريت على مثال القصر الذى عرف بمثل هذا الاسم للملك أمنمحت الثالث فى اللاهون . وتقول الأساطير اليونانية إن قصر التيه فى كريت بنى ليسجن فيه وحش نصفه الأعلى ثور ونصفه الأسفل رجل ، ولكن كان الذى أمر ملك كريت بسجنه فيه هو ديدال نفسه . وحينئذ صنع ديدال لنفسه جناحين من الشمع وطار بهما فأنقذ نفسه .

(٦) Lycurgue هو مشرع القوانين لمدينة اسبارطة فى اليونان القديمة . وقد عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد .

وصولون[1] الأثينى ، وأفلاطون[2] الفيلسوف . ويذكر الكهنة المصريون أيضا فيثاغورس[3] بن جزيرة ساموس ، وايدوكس[4] الرياضى وديموكريت[5] بن مدينة أبدير ، وأينوبيد[6] بن جزيرة صاقز[7] » .

ذلك ما قاله ديودور الصقلى أما پلوطرك[8] فانه بعد أن بين ، كما تقدّم ، فى الفقرة التاسعة من كتابه « إيزيس وأوزريس » أن كلمة ذفس اليونانية تتفق فى معناها مع كلمة أمون المصرية ، قال فى الفقرة العاشرة :

---

(١) (Solon) هو واضع القوانين لمدينة أثينا القديمة . وقد عاش بين سنة ٦٤٠ وسنة ٥٥٨ ق م .

(٢) هو خليفة الفيلسوف سقراط . ولكنه اشتهر بعد ذلك بفلسفته الخاصة . وقد تقدّم فى ص ١٢٠ من هذا الكتاب أنه زار مصر وكان يتردد على كهنة هليوبوليس ، وأنه روى أن هؤلاء الكهنة ذكروا له مواطنيه اليونانيين فقالوا :

« أيها الناس . أنكم لستم سوى أطفال . وليس بينكم شيوخ » .

(٣) (Pythagore) فيلسوف ورياضى يونانى مشهور . عاش فى القرن السادس قبل الميلاد . ويؤكد كثير من العلماء أنه أقام فى مصر حوالى عشرين سنة كان فيها يتردد على مدارسها . وهو القائل بكروية الأرض ، وقد حاول أن يفهم نظام الكون فقال إنه على شكل كرة فى مركزها النار ، وأن أجراما عشرة تتحرك حول هذه النار أولها الأرض ثم القمر ثم الشمس ثم الخمسة المتحيرة (أى الكواكب السيارة) ثم النجوم الثوابت . وقال إن جميع هذه الأجرام تدور حول النار المركزية . فلو أنك وضعت فى هذا النظام الشمس بدل النار لوجدت فكرة كوبرنيج التى تعد من أعظم كشوف العصور الحاضرة .

(٤) (Eudoxe) فلكى يونانى عاش بين سنة ٤٠٩ وسنة ٣٥٦ ق م .

(٥) (Democrite d'Abdére) هو فيلسوف يونانى عاش فى القرن الخامس ق م . وهو معروف فى الكتب العربية باسم ديموقراطس . وهو صاحب نظرية الجزء الذى لا يتجزأ أو الجوهر الفرد .

وأبدير التى هو من أهلها مدينة كانت من مدن مملكة تراس واقعة على بحر ايجيه .

(٦) (Œnopide de Chis) عالم يونانى قديم .

(٧) راجع فى هذا الموضوع أيضا كتاب (J. A. Faure) عن اتصال الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط بمصر . وهو مطبوع بباريس فى سنة ١٩٢٣

(٨) Plutarque كاتب وفيلسوف يونانى زار مصر فى نحو سنة ١٢٠ بعد الميلاد . ومن كتبه المشهورة كتابه عن عبادة « إيزيس وأوزريس » .

(لوحة رقم ١٧)



«وهـذا ما يؤكده أعظم اليونانيين المتنورين ، وهم صولون ، وتاليس[(١)] ، وأفلاطون ، وايدوكس ، وفيثاغورس . ويؤكده أيضا ، على قول بعضهم ؛ ليكورج نفسه . وذلك أن هؤلاء اليونانيين المتنورين كانوا قد زاروا مصر وعاشوا فيها على أوثق اتصال بكهنتها . فمن ذلك أنه يقال إن ايدوكس تلقى العلم على يد شونوفيس المفيسى (Chonophis de Memphis) ، وإن صولون[(٢)] تلقاه على يد سونشيس (Sonchis) فى سايس (صا الحجر)[(٣)] ، وإن فيثاغورس اتصل بانوفيس (Enuphis) فى هليو بوليس . وكان فيثاغورس خاصة عظيم الإعجاب بالأساتذة المصريين الذين كانوا هم أيضا يعجبون به ، فحاول أن يقلد طريقتهم فى كتاباتهم الرمزية وتعاليمهم السرية ، فأحاط نظرياته بالألغاز . وفى الواقع إنه لا يوجد أى فارق بين النصوص الهيروغليفية المصرية والكثير من التعاليم الفيثاغورية » .

ثم مضى بلوطرك يدلل على هذا التشابه ، فذكر أمثلة عديدة من تعاليم فيثاغورس وما يشابهها من التعاليم المصرية .



فهؤلاء هم مشرعون وفلاسفة ورياضيون وشعراء وموسيقيون يونانيون تلقوا علومهم فى مصر ، ومنهم اثنان كان لهما الفضل الأكبر فى وضع الحجارة الأولى لبناء المدنية اليونانية وهما المشرعان ليكورج وصولون ، ومنهم أيضا الشاعر الكبير هومير ، وثلاثة من كبار الفلاسفة الذين ظهروا حينما كانت المدنية اليونانية فى أوجها وهم أفلاطون وديموكريت وفيثاغورس . ولم يقتصر الأمر على المشرعين والشعراء

(١) Thalès فيلسوف يونانى عاش بين سنة ٦٤٠ وسنة ٥٤٨ ق . م .

(٢) تكلم هيرودوت فى الفقرة ١٧٧ عن الرخاء الذى تمتعت به مصر فى عهد الملك أمازيس ثم قال :
« وأمازيس هو الذى فرض على المصريين قانونا يقضى على كل واحد منهم بأن يبين لحاكم الإقليم الذى هو فيه الوسائل التى يعيش منها ، فمن خالف أو لم يثبت أنه يعيش من موارد شريفة عوقب بالموت . وقد نقل صولون الأثينى هـذا القانون من مصر وسنه فى أثينا . وأهل أثينا يحافظون عليه ويعتبرونه قانونا أخلاقيا كاملا » .

وقد علق مترجم هيرودوت (Ph. E. Legrand) على ذلك فى ص ٣٧ من مقدمة الترجمة فقال : إن القانون المصرى لم يكن الغرض منه إثبات الموارد الشريفة ، بل كان الغرض منه الاحصاء لأجل جباية الضرائب .

(٣) هـذه أسماء ثلاثة أساتذة مصريين تلقى العلم عليهم ثلاثة من كبار الفلاسفة اليونانيين . والذى يقرر ذلك هو بلوطرك الكاتب والفيلسوف اليونانى .

والفلاسفة، بل شمل — كما رأيت — أطباء وبنائين وفلكيين ورياضيين وموسيقيين، وبالإجمال كل العناصر التي تقوم بها المدنية . فلا ريب إذن في أن اليونانيين اتصلوا بمصر حين نشوء مدنيتهم وبعد نشوئها اتصال إقامة وتعلم، ولكن العلماء اليونانيين لم يحملوا إلى العالم شيئا من علوم مصر، كما حمل العرب علوم اليونان إلى أوربا .

يضاف إلى ذلك أن مدرسة الاسكندرية التي أنشأها البطالسة أخرجت علماء يونانيين كثيرين . وقد كان هؤلاء العلماء محتكين بمصر، بطبيعة إقامتهم في الاسكندرية ، ومع ذلك لم يرد أحد منهم أن يحمل إلى العالم في كتبه شيئا من العلوم المصرية والآداب المصرية . نعم إن مصر كانت قد دب فيها سوس الانحطاط إذ ذاك وإن الوهن كان قد خيم على مدارسها القديمة ، ولكن هذه المدارس كانت مع ذلك لا تزال موجودة، وإذا نحن فرضنا أنها كانت قد انحطت إلى حدّ أنها لم تكن تستحق أن يؤخذ منها شيء فقد كانت الكتب المصرية موجودة، وليس يمكن عقلا ولا عملا أن تنهض مدرسة جامعة كمدرسة الاسكندرية على أساس علمي صحيح إلا إذا كان من مهمتها أن تضم إلى دراساتها الحديثة ما سبقها من الدراسات القديمة، ولا سيما دراسات مدنية عاشت أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، كالمدنية المصرية . نعم لا يمكن هذا، ولا محل لتصوره، ولكن العلماء السكندريين لم يروا أن يقولوا لنا شيئا عن علوم كانت لمصر، ونظريات كانت لمصر، وآداب كانت لمصر .

وقد يقال هنا إن مكتبة الاسكندرية أحرقت، ولو أنها بقيت لوجد العالم فيها كثيرا من علوم مصر وآدابها، وهذا عذر قد يكون صحيحا، ولكن من الصحيح أيضا أن علماء الاسكندرية هؤلاء نشروا كتبا تعدّ بالعشرات في العالم المتحضر إذ ذاك ، وقد بقيت كتبهم هذه إلى اليوم، وليس في واحد منها ذكر لعلوم مصرية ولا لآداب مصرية ، كلا ولم يقل واحد منهم إنه اقتبس فكرة معينة من المدارس المصرية والكتب المصرية أو المدنية المصرية وبنى عليها نظرية له الفضل فيها[1] .

(١) لا نرى أن نسرد هنا أسماء علماء الاسكندرية ونظرياتهم العلمية والكتب التي نشروها لأن ذلك يخرجنا عن موضوعنا الذي نحن فيه .



وقد كان من نتيجة هذا الصمت عن علوم مصر وآدابها أنه لما دمرت الغزوات والحرائق الكتب المصرية ، وضاعت اللغة بانقراض عارفيها ، أسدل حجاب كثيف على كل ما يسمى علما مصريا ، ولولا أنه كانت توجد آثار مادية كالأهرام والمعابد والمسلات وقبور الملوك تنطق بعظمة ذلك العلم ، لما فطن إليه أحد . بل لعل الذين وجهوا همهم إلى كشف اللغة المصرية وقراءة خطوطها الهيروغليفية والديموطيقية والهيراطيقية ، ما كانوا يعنون بها و يكشفون غطاءها ، و إذن كانت تبقى مصر القديمة غارقة فى ظلمات الماضى ، وتبقى علومها غارقة معها فى هذه الظلمات إلى الأبد .



اتصل اليونانيون بمصر وتعلموا فيها ولكنهم لم يذكروها فيما كتبوه ، فهل هم مع ذلك اقتبسوا منها ؟

إن العقل يجيب على هذا فيقول إن الاقتباس فى هذه الحالة أمر لا مفر منه ، لأن المدنيات المختلفة ليست سوى حلقات متتالية فى سلسلة واحدة هى سلسلة الإنسانية . فكل مدنية تصوغ نفسها من المدنيات التى سبقتها ثم مما تزيده عليها ، وبهذا يتحقق تقدّم الانسان وتقدّم العمران .

هذا هو جواب العقل ، فما هو جواب الواقع ؟

جواب الواقع هو بعينه جواب العقل فقد عرف منذ مائتى سنة أو أكثر أن التصوير اليونانى والنقش اليونانى والأعمدة اليونانية هى اقتباس من التصوير المصرى والنقش المصرى والأعمدة المصرية مع شىء من التنويع .

وعرف أيضا أن كثيرا من المصنوعات اليونانية هى بعينها المصنوعات المصرية لم يدخل عليها إلا تهذيب قضى به اختلاف البيئة واختلاف الزمن .

عرف هذا منذ مائتى سنة أوأكثرلان التصويروالنقش والاعمدة والمصنوعات فى مصروفى اليونان ، كانت فى متناول كل من يريد أن يدرسها وأن يوازن واحدة منهـا بالأخرى . أما العـلوم والآداب والديانات المصرية فكانت إلى زمن قريب مجهولة ولهذا كانت موازنتها بمثيلاتها اليونانية مستحيلة . ولا يزال أكثرها مجهولا إلى اليوم لأن ما عرف لا يزيد على جوانب من الديانات لا يزال فى بعضها غموض ، ثم طرف صغيرمن الآداب ممثـل فى بضع قصص وأناشيد وأشعار . أما العـلوم ، وخاصة العلوم الفلسفية ، فلم يعرف بعد شىء منها .

ولهذا كان السؤال الذى تساءل فيه الباحثون منذ أربعين سنة ، أى منذ شاعت ترجمة أوراق البردى المصرية هو : « هل فى الآداب والديانات اليونانيـة أثر من الآداب والديانات المصرية؟ وهل هـذا الأثر واضح بحيث يمكن تعيينه أو هو مبهم غير واضح ؟ » . وسنمر نحن هنا بشىء مما وقف عليه الباحثون . وسنخص بالذكر شاعر اليونان الكبير هومير صاحب الأوذيسة والإلياذة .



من الذين تفرغوا لدراسة الآداب اليونانيـة وعرفوا بحبها والإعجاب بها عالم فرنسى هو فيكتور بيرار (Victor Berard) . ويهمنى هنا أن يكون بيرار هذا من المتفرغين للآداب اليونانية والمعروفين بحبها لأنه إذا شهد بأن بعض هذه الآداب مقتبس ، أو أكثر من مقتبس ، من الآداب المصرية ، فشهادته لا ترمى بالتحيز لمصـــر .

وقد درس بيرار إليـاذة هومير وأوذيسته فوضع فيهما الشروح والمصنفات . وهومير هو أعظم شاعر يونانى ، ومنزلته فى الآداب اليونانيـة أعظم من منزلة امرئ القيس فى الآداب العربية ، وإن كان كل منهما يختلف عن الآخر منزعا وتفكيرا .

و بمـا أننا سنعرض هنا للأوذيسة وما دخل فيها من الآداب المصرية ، يحسن أن نقول قبل ذلك ما هى الأوذيسة .

فالأوذيسة هى قصة شعرية موضوعها أن البطل اليونانى عوليس أمير مقاطعة يونانية تسمى إيتاك اشترك مع غيره من الأمراء اليونانيين فى محاصرة مدينة طروادة (على ساحل آسيا الصغرى) ثم لم يعد إلى إمارته فخرج ابنه تليماك يبحث عنه فذهب إلى مدينة اسبارطة وسأل فيها الملك منلاس عن أبيه . وفى أثناء ذلك كان عوليس فى جزيرة الإلهة كاليبسو واقعا فى حبها ، ثم تحرك فيه الشوق إلى بلده ففر من الجزيرة ، فهبت عليه فى البحر عاصفة فأغرقت مركبه وألقته الأمواج على شاطئ جزيرة شيرى (١) وعلى أرض فيهـا تسمى أرض فياسى . وفى هـذه الأرض قابل نوزيكا ابنة الملك ألسينوس فساعدته وقربته من أبيها . وقص عوليس على الملك الأهوال التى وقعت له فى بحار كثيرة ركبها و جزائر عدّة التجأ إليها . ثم عاد عوليس إلى بلده إيتاك فتنكر فى زى متسول وقابل ابنه تليماك الذى كان قد عاد هو أيضا من اسبارطه . وكانت امرأة عوليس ، وهى تسمى بنيلوب ، قد بقيت وفية له طول غيابه ولكن كان أربعة من الأمراء قد تقدموا إليها ليخطبها كل واحد منهم لنفسه فظهر لهم عوليس وقتلهم هو وابنه تليماك ثم ظهر لامرأته وعاد إلى عرش إمارته .

تلك هى قصـة الأوذيسة وهى مقسمة إلى أربعـة وعشرين كتابا أو جزءا . وما من لغة فى أوربا إلا وقد نقلت إليها .

وقـد نقلت إلى اللغة الفرنسية من زمن طويل ، ولكن العلمـاء الفرنسيين ما زالوا يضعون لها ترجمات جديدة ، وما زالوا يدرسونها دراسات جديدة ، ومن هؤلاء فيكتور بيرار الذى تقدّم ذكره ، درسها مرة ثم ترجمها ودرسها مرة ثانية هى التى طبعها حديثا فى سنة ١٩٢٥ . وقد أتيح له أن اطلع على قصص وأشعار مصرية

(١) هى جزيرة خرافية تخيلها هومير

كان ماسبيرو وغيره من علماء المصرولوجيا قد نشروها فدهش إذ رأى فى الأوذيسة آثارا من تلك القصص والأشعار، فعكف على موازنة إحداهما بالأخرى، فكانت النتيجة التى خرج بها أن الاقتباس واضح لا يصح أن يختلف فيه اثنان، وأن الشاعر اليونانى هومير أخذ بعض ما فى قصته من الكتّاب المصريين .



ولكى يقف القارئ على طرف من هذا الاقتباس، أو قل هذا النقل، نذكر أن ممـا اشتملت عليه قصة الأوذيسة حديثا طويلا يدور بين تلياك والملك منلاس، وفى هـذا الحديث يقص الملك منلاس أن الآلهة غضبوا عليـه فى ماضيه فحجزوه مع رفقاء له عشرين يوما فى جزيرة على سواحل مصر تسمى فاروس، ثم ظهرت له ابنة شيخ من شيوخ البحر ونبى من أنبياء مصر يسمى «بروتى» فقالت إن أباها يخرج من الأمواج كل يوم ثم يمضى إلى مغارة فى الجزيرة فيتمدد فيها ثم تنام حوله كلاب بحر تخرج هى أيضا من الأمواج. فالوسيلة التى يستطيع بها منلاس أن يخرج من الجزيرة هى أن يفاجئ « بروتى » ساعة نومه ويشـد عليه بقـوة، وحينئذ يحاول « بروتى » أن يتخلص فيتحوّل إلى كل نوع من أنواع الحيوانات الزاحفـة على الأرض، ثم إلى ماء ثم إلى نار، فإذا بقى منلاس قابضا عليه ولم يدعه يفلت فسيعود إلى شكله الإنسانى ثم يكلمه، فعـلى منلاس حينئذ أن يسأله بأى وسيلة يخلص من الجزيرة .

وبعد ذلك غابت البنت بين الأمواج ثم ظهرت ومعها جلود أربعة من كلاب البحر فلبسها منلاس وثلاثة من رفقائه الأشداء وكمنوا كذلك إلى أن ظهر «بروتى» وعرض كلابه ومن بينها منلاس ورفقاؤه دون أن يفطن إليهم. ثم نام فهجم عليه منلاس ورفقاؤه وشدّوا عليه بأيديهم فتحوّل إلى أسد ثم إلى تنين ثم إلى خنزير كبير ثم إلى ماء ثم إلى شجرة، ثم لمـا استنفد كل سحره على غير جدوى تكلم فسأله منلاس،

(لوحة رقم ١٨)



تمثال من حجر الشست لالا تحتم [illegible]

الخط الديموطيقي المصري

فعلم منه أن ذفس، كبير الآلهة، غاضب عليـه لأنه لم يقرب له ضحايا قبـل ركوبه البحر وأنه لن يرضى عنه ولن يأمر الرياح بالاعتدال له إلا إذا قرب له الضحايا . ثم أخبره « بروتى » بكثير من أخبار أصدقائه وبلاده . ثم قال إن القدر لم يكتب له أن يموت فى مدينـة أرجوس التى فيهـا حقوله بل ستقوده الآلهة إلى الأليزيه (الأليزيه كانت فى الأساطير اليونانيـة دار النعيم التى يقيم فيهـا الصالحون) فى آخر الأرض عند الإله رادامانت[١] حيث الحياة أهنأ ما تكون وحيث لا يوجد ثلج ولا برد قارص ولا مطر، وحيث لا توجد عواصف بل توجد ريح الشمال. وبعد ذلك ألقى «بروتى» بنفسه بين الأمواج فغاب فيها .

فهذه القصة التى قصها الملك منلاس على تليماك، علق عليها فيكتور بيرار فقال فى الصفحات ٩٥ و٩٦ و٩٧ والصفحات التى تليها[٢] ما ملخصه انها قبـل كل شىء تشبه فى مجموعها القصص المصرية التى جمعها ماسبيرو فى كتابه « القصص الشعبية فى مصر القديمة[٣] » وهى قصص ترجع إلى ٥٠٠ أو ٨٠٠ سنة على الأقل قبل عصر هومير .

ثم إن شيخ البحر يسحر نفسه أسدا وخنزيرا وماء ونارا مقدّسة، والسحر على هذا الشكل تفيض به القصص المصرية .

ثم إن من الحيوانات التى يتحوّل شـيخ البحر إليها الخـنزير الكبير، والخنزير الكبير تسمية كانت شائعة عند المصريين وكانوا يريدون منها خنزير النهر أو عجل النهر.

ثم إن جميع حوادث هذه القصة وأسماء أشخاصها موجودة فى القصص المصرية بما فيها القبض على «بروتى» وخيانة بنته له .

(١) رادامانت هو فى الأساطير اليونانية أحد أبناء دمس .

(٢) كتاب L'Odyssée — Traduction nouvelle جزء أوّل طبعة سنة ١٩٢٥

(٣) Les contes populaires de l'Egypte Ancienne



الخط الهيروغليفى المصرى أو الخط المقدس (قطعة من كتاب الموتى)

ثم إن اسم «بروتى» هو اسم فرعون كما أثبته ماسپيرو فى تحليله العلمى .

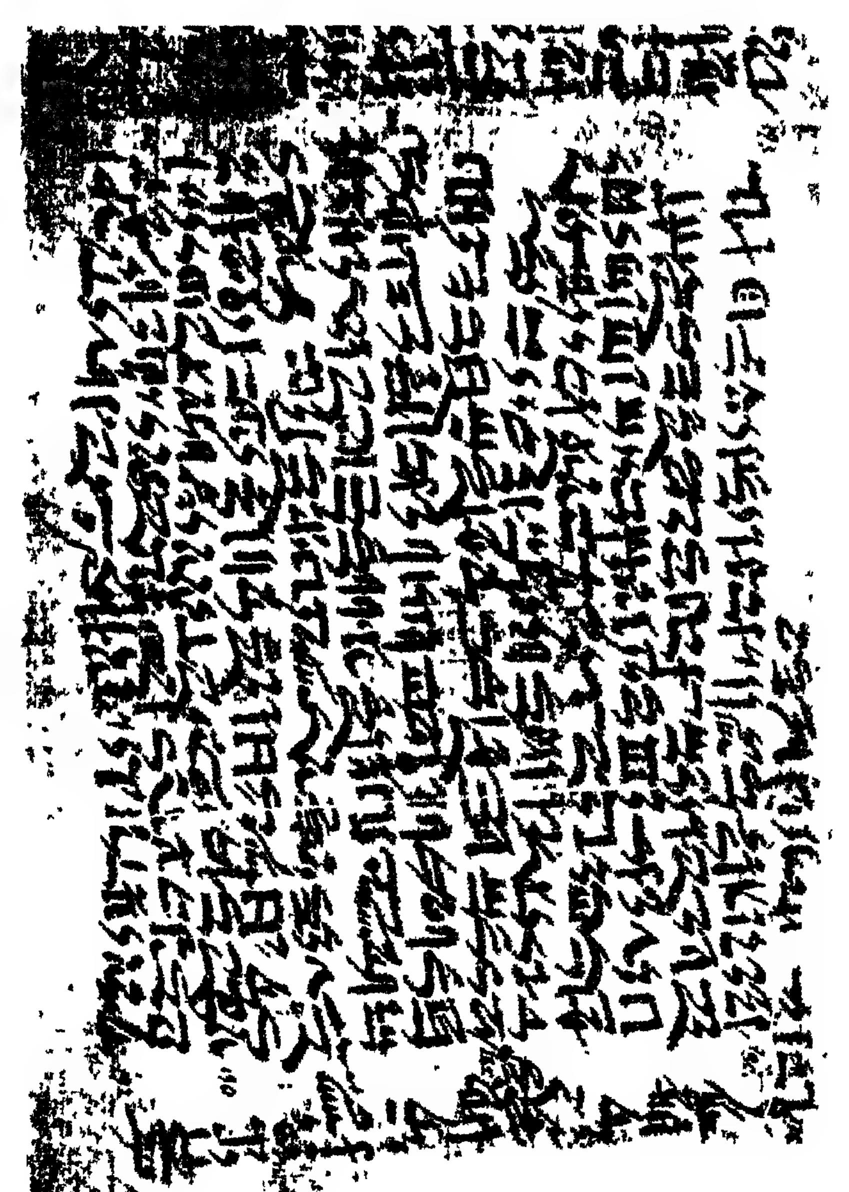
ثم إن المصريين كانوا يحبون القصص التى تتكلم فيها الحيوانات .

ثم إن دار النعيم أو (الأليزيه) الموصوفة هنا هى دار مصرية ولا يمكن أن تكون دارا يونانية . إذ مصر هى التى ينطبق عليها أنها لا ثلج فيها ولا مطر ، وأن البرد فيها غير قارص ، أما اليونان فالمطر فيها غزير ، والبرد قارص ، وفيها ثلج فى بعض الأحيان ، وريح الشمال التى يقول هومير إنها تهب على دار النعيم لا تدع شكا فى أن الدار مصرية لا يونانيـة ، لأن هـذه الريح تهب فى مصر من الشمال فتكون عليلة تستروحها النفوس أما فى اليونان فان هذه الريح نفسها تكون فى شكل عواصف . والمصريون يحبون هذه الريح واليونانيون يخشونها . أما الإله رادامانت الذى يقـاد إليه منـلاس فى دار النعيم فهـو إله المصريين أوزريس على عرشـه فى الحياة الأخرى .



هـذه هى شهادة ڤيكتور بيرار ، ونحب نحن أن نكون منصفين فنقـول إن الاقتباس هنا يظهر فى صـورة إدخال حوادث مصرية وأشخاص مصريين يتخيلهم هومير فى ثنـايا قصة الأوذيسة ، ولا يظهر فى صـورة اقتباس قصة معينة . وهذا الذى فعله هنا هومير يفعله كل الشعراء وكل الكتاب فلا يؤخذ عليهم أنهم يحكون المحاكاة بل الذى يؤخذ عليهم هو أنهم يقصرون فى هذه المحاكاة .

فما لم يظهر فى المستقبل أن فى الآداب المصرية قصة معينة كهذه التى قصها منلاس عن وجوده فى جزيرة فاروس ، فليس لقائل أن يقول إن هومير سطا فى هذه القصة على شىء من تلك الآداب . ولكن يقال من ناحية أخرى إن موضوع البحث ليس أن يكون هومير قد سطا أو لم يسط على الآداب المصرية ، بل أن يكون لهذه الآداب أثر ظاهر فى شـعر هومير . فمن هـذه الناحية تكون شهادة ڤيكتور بيرار سليمة ويكون الأثر المطلوب قائمـا فى تلك المحاكاة .



الخط الهيراطيقي المصري

صفحة من ورقة بردي محفوظة في متحف برلين

***

والآن ننتقل إلى شهادة أخرى ليس الأمر فيها أمر محاكاة لحوادث مصرية يدخلها هومير فى شعره ، بل الأمر فيها أمر قصة مصرية معينة أغار عليها هومير وأدخلها فى الاوذيسة بعد أن حاول أن يلبسها ثوبا يونانيا ، فبقى الثوب شفافا تطل القصة المصرية من ثناياه ، بموضوعها وسياقها ونصوصها .

هـذه الشهادة الثانية هى شهادة عالم من علمـاء المصرولوجيا فى روسيا هو الأستاذ جولنيشيف (M. W. Golénicheff) ويؤيده فيهـا عالم فرنسى هـو الأستاذ مورى .

فقد حدث من بضع سنين أن ترجم جولنيشيف ملفا من أوراق البردى المصرية المحفوظة فى إحدى مكتبات بتروغراد (العاصمة القـديمة لروسيا) ، وهـو ملف مكتوب بالخط الهيراطيقى فى زمن الأسرة الثانية عشرة (١٨٠٠ سنة قبل الميلاد) فاذا به قصـة مصرية فى بعض فصـولها أن سائحا مصريا ركب البحر ثم غرقت مركبه وقذفت به الأمواج إلى جزيرة خرافيـة ، ثم إذا بهـذا الفصل موجود فى الأوذيسة ، لا بمعناه فحسب ، بل بسياقه ، وبكل ما فيه من الأوصاف ، وبالكثير ممـا فيه من التعبيرات .

ولم يكد جولنيشيف يقف على هـذه الحقيقة حتى أذاعها فى رسالة ذكر فيها نصوص ورقـة البردى ، وذكر إلى جانبهـا النصوص المماثلة لها من الأوذيسة . فوصلت هـذه الرسالة إلى مورى فى باريس فدرس ملف البردى الذى ترجمـه جولنيشيف وكتب فى كتابه (Rois et Dieux d'Egypte) المطبـوع فى سنة ١٩٢٥ ، فى صفحة ٢٤٠ والصفحات التى تليهـا يؤيد ما أثبته جولنيشيف ويزيد عليـه . ولا يتسع المقام هنـا لسرد كل ما كتبه هذان العالمـان فى موازنة النصوص المصرية بنصوص الأوذيسة فنكتفى بان ننقل طرفا من هذه الموازنة .



الموضـوع فى القصـة المصرية هوكما قلنـا غرق سـفينة لسائح مصرى ، وفى الأوذيسة غرق سفينة عوليس والد تليماك الذى مر ذكره . فالكاتب المصرى يقول فى قصته على لسان بطله :

« ركبت البحر فى سفينة طولها ١٥٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا ومعى ١٥٠ رجلا من أفضل البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قـد عرفوا السماء وعرفوا الأرض ، وكان فى قلوبهـم من البأس أكثر مما فى قلوب الأسود . ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالإعصار قبل ثورانه . وبينما نحن فى البحر هبت علينا العاصفة بغأة . وكنا قريبين من الأرض ، فدفعت بنا الرياح نحوها وأثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة منى قطعة من الخشب فألقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا فى السفينة ولم ينج منهم أحد .

« وقذف بى الموج إلى جزيرة فقضيت فيها ثلاثة أيام لا رفيق لى فيها غير قلبى . ونمت فى غابة تشـبه المخبأ فكان ظلها يحيط بى . ثم مددت ساقى[1] أبحث عن شىء أضعه فى فى . فوجدت تينا وعنبا وكل أنواع الكراث الجميلة وبذورا وثمارا هو من الكثرة كأنما يصنع صنعا . ووجدت أسماكا وطيورا . وبالإجمـال لم يكن شىء إلا وهو فى ذلك المكان . فأكلت حتى شبعت ، ثم وضعت على الأرض بعض ما كانت يداى تمتلئان به ، ثم حفرت حفرة وأشعلت نارا وجعلت ألقى فيها مما هنالك ، قربانا يصل بواسطتها إلى الآلهة » .

هكذا كتب الكاتب المصرى فى قصته ، وسنعرب هنا ما كتبه مورى عقدا للموازنة بينه وبين ما كتبه هومير فى قصته عن عوليس . ونكتفى بأن يكون نصيبنا التعريب حتى لا يكون مصرى هو الذى يعقد الموازنة ويؤدى الشهادة فيها للكاتب المصرى بل يكون الذى يعقـد المقارنة ويؤدّى الشهادة عالمـا فرنسـيا . قال هذا العالم بعد أن أورد النص الذى ذكرناه :

« والآن فلننتقل إلى عوليس . بعد أن ترك عوليس جزيرة كاليبسو ركب السفينة وحده فبقى فى البحر ثمانية عشر يوما لم يحدث فيها حادث ثم طلعت لعينه جبال فياسى بغاباتها . وحينئذ أثار ذفس (تقدّم أنه كبير الآلهة فى الأساطير اليونانية) العاصفة فارتمت على عوليس موجة عالية فكسرت سفينته وفرقت أخشابها .

(١) المراد بقوله « مددت ساقى » أنه جعل يمشى .

قال هومير : «وحينئذ ركب عوليس قطعة من الخشب وقادها كما يقود الإنسان جوادا» . واستمر عوليس عائما فى هــذه الحالة ثلاثة أيام بلياليها . قال هومــير : «ولم يكن عوليس ينفــك فى أثناء ذلك عن أن يتناقش مع قلبه» . وقال أيضا : «وأخيرا جاءت موجة كبيرة ودفعت به نحو الشاطىء الوعر» .

وانتهى عوليس بأن وصل إلى هذا الشاطئ ثم استطاع بعناية الآلهة أن يلتجئ إلى غابة . قال هومير : « وصنع عوليس لنفسه تحت شجرتين صغيرتين مأوى يأمن فيــه من الرياح والمطر والشمس » . ثم نام « تحتبه أوراق الأشجار » . ويمضى هومير بعد ذلك فى الأوذيسة فيجعل عوليس يصف النباتات الرائعة التى تغطى أرض فياسى المباركة . يقول هومير : « فى هذه الأرض أشجار كبيرة باسقة بعضها يثمر الكمثرى والرمان وبعضها يثمر البرتقال الجميل والتين اللذيذ والزيتون الأخضر والعنب الناضج » .

أما القربان الذى قدمه السائح المصرى للآلهة بواســطة النار فهو غير موجود فى هذا المكان من قصة عوليس ولكن الأستاذ جولنيشيف لاحظ أن هومير نقله إلى مكان آخر من قصة عوليس نفسها هو المكان الذى يتحدث فيه عن مقام عوليس عند الوحش بوليفيم (١)، وذلك أن عوليس ورفقاءه يشــعلون حينئذ نارا ليقدموا بواسطتها قربانا للآلهة بعد أن طعموا من الجبن الذى وجدوه فى مغارة الوحش» .

ذلك ما كتبه مورى، وقبل أن نمضى فى موازنات أخرى يحسن أن نقول نحن كلمة فى إبراز وجوه الاتفاق بين ما كتبه هومير وما كتبه الكاتب المصرى .

(فأولا) إن العاصفة تهب على السفينة فى القصتين .

(وثانيــا) إن عوليس يركب قطعة من الخشب كالتى يركبها السائح المصرى .

(وثالثــا) إن السائح المصرى قذفت به موجة إلى الجزيرة، وعوليس دفعت به موجة إلى شاطىء الجزيرة .

(ورابعــا) إن الكاتب المصرى عبر عن وحدة بطله فى الجزيرة وحديثه مع نفسه حينما صعــد إليها بأنه لم يكن له رفيق فيها غير قلبه . فقال هومير إن عوليس حينما كان على القطعة الخشب كان يتناقش مع قلبه .

(١) بوليفيم هو فى الأساطير اليونانيــة ابن نبتون إله البحر وهو فى صورة وحش ذى عين واحدة، وفى الأساطير اليونانية وحوش كثيرة على هذا الشكل تسمى سيكلوب وأكبرها وأشدها هو بوليفيم .

(وخامسا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله بقى فى الجزيرة ثلاثة أيام وحيدا. فقال هومير إن عوليس بقى على القطعة الخشب ثلاثة أيام بلياليها .

(وسادسا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله التجأ إلى غابة فى الجزيرة تشبه المخبأ. فقال هومير إن عوليس التجأ إلى غابة وصنع لنفسه تحت شجرتين مأوى يأمن فيه من الرياح والمطر والشمس .

(وسابعا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله نام فى الغابة التى التجأ اليها وإن ظلها كان يحيط به . فقال هومير إن عوليس نام فى المأوى الذى صنعه لنفسه وإن أوراق الأشجار كانت تخبئه .

(وثامنا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله بحث بعد ذلك فوجد أنواعا كثيرة من النباتات والفاكهة والبذور . فقال هومير إن عوليس بحث بعد ذلك فوجد كثيرا من الأشجار والفاكهة .

(وتاسعا) إن الكاتب المصرى قال إن بطله أراد أن يشكر الآلهة فأشعل نارا وجعل يلقى فيها قربانا تتكفل النار بإيصاله إليها. فقال هومير فى مكان آخر من قصته، وفى حديثه عن عوليس نفسه، إن عوليس ورفقاءه أشعلوا نارا وقدموا بواسطتها قربانا للآلهة.

تلك هى أوجه الاتفاق فيما كتبه الكاتب المصرى وما كتبه هومير . وهو اتفاق يكاد يكون فى التعبيرات .



ولم تنته الموازنة بعد لأنها طويلة وهى كلها على هذا المثال فلنستمر .

يذكر الكاتب المصرى أن بطله أو سائحه نام، ثم يقول على لسانه :

« ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويا كدوى الرعد ، فاستيقظت وكشفت عن وجهى فرأيت ثعبانا هائلا يتقدم نحوى ... ... ثم قال لى هذا الثعبان « من أتى بك؟ من أتى بك ؟ أيها الصغير من أتى بك ؟ » . ثم وضعنى فى فمه ونقلنى إلى المكان الذى كان يقيم فيه ... ... ثم قال لى مرة أخرى : « من أتى بك ، من أتى بك؟ أيها الصغير من أتى بك إلى هذه الجزيرة التى تغوص شواطئها فى الأمواج » .

فيجيب السائح على هذه الأسئلة فيقص قصة سفينته وغرقها كما رأينا .

وهنا نرجع إلى عوليس ، وهنا أيضا نعرب الموازنة كما كتبها مورى . قال :

« إن الذين يستقبلون عوليس فى أرض فياسي هم نوزيكا وأبوها الملك ألسينوس ورعيته ، أى أنهم أناس لا وحوش . ولهذا لا يوجد دوى رعد فى قدومهم إليه . ولكن هومير لم يفته هذا الرعد فى الفصل الخاص بيوليفيم لأن هذا الوحش يأتى و يأتى معه دوى كدوى الرعد إلى المغارة التى التجأ إليها عوليس . وقد قال جولنيشيف إن هـذا الموضوع من القصـة المصرية انتقل فى شـعر هومير إلى مكان آخر . وهو مصيب فى ملاحظته هذه . و يقول جولنيشيف أيضا إن فى شعر هومير شيئا يستوقف النظر هو أن السائح فى القصة المصرية يكشف عن وجهـه حينما يستيقظ لكى ينظر ، فرفقاء عوليس النائمون على رمال الشاطئ يكشفون هم أيضا عن وجوههم حينما يستيقظون من نومهم على نداء سيدهم . وتلى ذلك مشابهة أخرى هى جلسـة السـائح المصرى متربعا بالقرب من النـار لتقديم القربان وجلسـة عوليس متربعا بالقرب من موقد الملك السينوس .

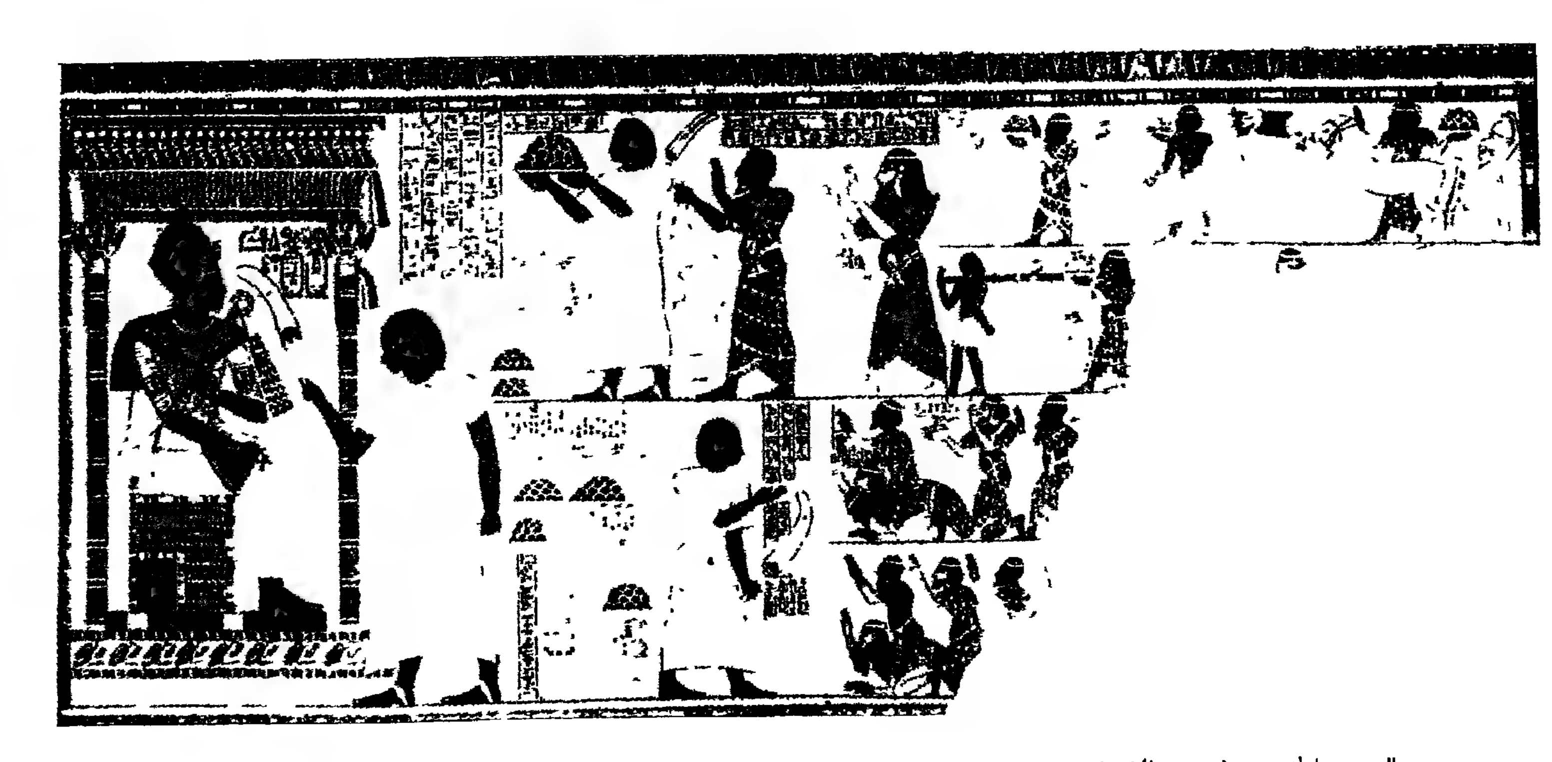
«وهذا الملك ينهض عوليس بيده من جانب الموقد ليجلسه على عرش براق ، والثعبان فى القصة المصرية ينهض السائح من جانب الموقد ويجلسه فى المكان الذى يقيم فيـه . و يضيف جولنيشيف إلى كل هـذا أن عوليس يسأل فى أرض فياسى مرتين كما يسأل السائح فى القصة المصرية مرتين ، وذلك أن الملكة أريتى تسأل عوليس : « من أنت ، ومن أين تأتى؟ » و بعد هـذا يسأله الملك السينوس مثل هـذا السؤال . وحينئذ يأخذ عوليس فى أن يقص كما يقص السائح المصرى الأهوال التى وقعت له » .



ونعود مرة ثالثة إلى القصة المصرية . إن الثعبان يعطف على السائح ويتفاءل له فيقول :

«لا تخف شيئا ، لا تخف شيئا أيها الصغير ، ولا تدع الحزن ينتشر على وجهك . لقـد وصلت إلى ، لأنه كتب لك أن تعيش وأن تصل إلى هـذه الجزيرة السعيدة ... ستقيم هنا شهرا بعد شهر ، إلى أن تمضى أربعة أشهر ، ثم تأتى سفينة فيها بحارة عرفتهم ، وستسافر معهم . وستموت فى مدينتك... ... ستضم إلى صدرك أولادك ، وستعانق امرأتك ، وسترى دارك ، وذلك خير من كل شيء . ستصل إلى بلادك وستكون فيها بين إخوانك » .

(لوحة رقم ١٩)

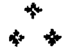


ملك من ملوك مصر فى عصر الامبراطورية المصرية جالسا على عرشه يستقبل مندوبين من آسيا جاء كل منهم يحمل جزية من بلا[ده]
ويرى موظف مصرى لابس ملابس بيضاء يدخلهم على الملك و يقدمهم له واحدا بعد آخر

فبكلمات مثل هــذه الكلمات يستقبل عوليس فى فياسى . وذلك أن نوزيكا تقول له :

« إن ذفس هو الذى كتب عليك ما أنت فيه . فيجب أن تحمله » .

ثم تقول له إن جميع الأغراب والفقراء قريبون من ذفس، و إن ذفس سيرده إلى بلاده . وحينئذ يتمنى عوليس أن يجد امرأته فى داره فى صحة جيدة وأن يجــد أصدقاءه فى صحة جيدة أيضا . فتــدعو له نوزيكا و يدعو له أبوها السينوس بأن ينعم برؤية امرأته وأولاده وأصدقائه وداره فى بلده . وهذا كله شبيه بما فى القصة المصرية، لا يكاد يختلف عنه إلا فى بعض الألفاظ .



ونعود إلى القصة المصرية مرة رابعة

يملك الفرح السائح المصرى حين يسمع من الثعبان أنه سيعود إلى بلاده ، وسيرى أولاده وامرأته وداره، فيقول له :

« سأصف أرواحك لفرعون ، وسأخبره بمجدك ، وسأجلب لك زيوتا مقدّسة وطيبا مما يقدّم لكل إله ... وسأحضر لك سفنا مملوءة بكنوز من مصر كما يفعل الناس لإله » .

فعوليس أيضا يشكر ألسينوس فيــدعو له بمجد لا يفنى بالقــرب من ذفس، ثم يشكر نوزيكا فيؤلى على نفسه أن «يدعو لها كما يدعو الناس لآلهة» .



ونعود مرة خامسة

يجيب الثعبان فيقول للسائح المصرى :

« إنى ملك بلاد بونت[1] ... فبعد أن تفارق هــذا المكان لن ترى هــذه الجزيرة أبدا لأنها ستتحوّل إلى أمواج » .

(١) بلاد بونت هى البلاد التى كان المصريون يجلبون منها الطيب والنباتات ذات الرائحة الزكية و بعض الباحثين يرجح أن المقصود بها بلاد الصومال .

ثم يتحدث السائح عن الجزيرة فيقول إنها « أرض بعيدة لم يعرفها الناس » .

كذلك أهل فياسى يقيمون فى جزيرة شيرى « بعيدا من الناس المتمدينين » .

وتحدث نوزيكا عن هذه الجزيرة فتقول : « إنها فى أطراف الأرض ، فى وسط البحر المضطرب ، بعيدة من الناس » .

والثعبان فى القصة المصرية يقول إنه « ملك بلاد بونت » ، أى أنه وهو فى الجزيرة التى يحادث فيها السائح المصرى لا يقيم فى بلاده التى هو ملك عليها بل يقيم فى جزيرة بعيدة منها . وأهل فياسى فى القصة الهوميرية ليسوا من أهل جزيرة شيرى التى يستقبلون فيها عوليس بل هم من أهل هيبريا .

والجزيرة فى القصة المصرية تختفى بين الأمواج بعد سفر السائح المصرى منها ، وجزيرة شيرى فى القصة الهوميرية تصيبها التدمير بعد سفر عوليس منها ، لأن الإله بوزيدون ينتقم من الفياسيين فيغطيهم ويغطى أرضهم بصخرة .

وملك الجزيرة ، فى القصة المصرية ، أى الثعبان ، ينبئ السائح بمصير الجزيرة بعد سفره منها . وملك الجزيرة أيضا فى القصة الهوميرية ، وهو ألسينوس ، يخبر عوليس بمصير الجزيرة بعد سفره منها .



ومرة سادسة

حينما يسافر السائح المصرى من الجزيرة التى هو فيها يودعه الثعبان بهذه التمنيات :

« صحة جيدة ، صحة جيدة أيها الصغير حتى تصل إلى دارك . سترى أولادك . وليكن اسمك مذكورا بالخير فى مدينتك » .

ثم يعطيه هدايا . وبعد ذلك يتجه السائح إلى الساحل ، ويشكر الثعبان ، ثم يركب السفينة .

وعوليس حينما يسافر، يتمنى له الملك السينوس الصحة و يعطيه هو والفياسيون هدايا، وحينئذ يشكرهم عوليس ويحييهم .

* *

ومرة سابعـــة

تصل السفينة بالسائح المصرى إلى وطنه فتجنح و يرتطم مقدمها بالساحل . كذلك سفينة الفياسيين تجنح وترتطم حتى يكون نصفها على الساحل ونصفها الآخر فى المـاء .

و يدخل السائح المصرى على فرعون فى شكل رجل « رأى أشياء كثيرة ومرت به محن كثيرة » .

وعوليس يقول :

« أنا الذى مرت به كثير من المحن فى محاربتـه للرجال والأمواج . أنا الذى رأى المدن وعرف طبائع كثير من الناس وتألم فى قلبه من آلام عدة عاناها فى البحر » .

وفرعون يقول للسائح المصرى :

« كن خادما بصيرا فطنا » .

وعوليس يقول مثل هذه الكلمة أيضا .

* * *

ونقف عند هذا الحد من الموازنة . ونحسب أن فى ما تقدم كفاية للقول بأن فى أوذيسة هو مير أثرا واسعا من القصـة المصرية التى اشتملت عليها ورقة البردى رقم ١١٥ فى مكتبة بتروغراد . بل نحسب أن هنا لك أكثر من الأثر الواسع يراه كل من ينظر فى فكرة القصتين وفى صياغتهما . ولسنا نحكم بهذا وحدنا بل يحكم به معنا العالمـان جولنيشيف وموري، و إليك ما كتبه هذا الأخير فى صفحة ٢٤٩ من كتابه الذى مر ذكره بعد أن عرض وجوه الموازنة بأوسع مما عرضناها هنا . قال:

« من كل هذه الموازنات التى أبرزها جولنيشيف بدقة تامة ، يتضح لى ، كما اتضح له ، أن « هناك فى الواقع أكثر من مشابهة عرضية بين القصة المصرية وقصة عوليس عند الفياسيين »(١) وليس ذلك مقتصرا على الجزئيات التى يمكن أن توجد على انفراد فى كل قصة يدور الكلام فيها على سائح ينجو من الغرق . بل المجموع يدل أيضا على أن الفكرة فى القصتين واحدة » .

وهـذه الورقة التى ترجمها جولنيشيف هى واحدة من عشرات من أوراق البردى التى بقيت بعد خمسة آلاف سنة تقلبت على مصر بالخير تارة وبالشقاء تارة فأمكن أن تنجو من التدمير . فانظر أى أثر كنا نجده لمصر فى الآداب والعلوم اليونانية لو أن آداب مصر وعلومها بقيت ، ولو أن المكاتب التى ثبت أن مصر كانت تعمر بهـا منذ الأسرة السادسة (أى منذ خمسة آلاف سنة) بقيت ولم تعد عليها عوادى البلى والنهب والحريق .



وننظر الآن فى اقتباس آخر اقتبسـه هومير من أسـطورة إيزيس وأوزريس المصرية .

نتلخص الأسطورة المصرية فى أن سيت قتل أخاه أوزريس وألقى فى النيل بالصندوق التى يحتوى جثته ، فعام الصندوق من النيل إلى البحر الأبيض المتوسط ثم وصـل إلى ثغر ببلوس (جبيل) على سواحل سوريا . ووقفت به الأمواج عند جذع شجرة أثل ، فنمت هذه الشجرة حتى طوت الصـندوق فى جوفها . ورآها بعـد ذلك ملك المدينـة فأعجبته ، وأمر فنزعت من الأرض وأقيم جذعها عمودا لقصره . وعلمت إيزيس بذلك كله فجاءت إلى ببلوس وجلست بالقرب من ينبوع ماء تبكى ، ثم مرت بها جوار هن فى خدمة الملكة ، فحيتهن برفق ، وعرضت عليهن أن تضفر شعورهن وأن تمسح أجسامهن بمثل الرائحة الزكية التى تفوح من جسمها .

(١) هذه الجملة التى تبتدئ بكلمة «هناك» وتنتهى بكلمة « الفياسيين » وضعت بين أقواس للدلالة على أنها مقتبسة بنصها مما كتبه جولنيشيف .

فلمـا فعلت وعاد الجوارى سألتهن الملكة فأنبأنها بنبأ المرأة التى ضـفرت شعورهن وطيبتهن ، فاستقدمتها الملكة وجعلتها مربية لطفلها .

وهنا نعرب ما كتبه بلوطرك تكملة لسياق الأسطورة ، قال (١) :

« وكانت إيزيس كلما أرادت إرضاع الطفل وضعت له أصبعه فى فمه . فاذا جاء الليـل أشعلت النار فيما يحتويه جسمه من عناصر الفناء . و يقال إنهـا كانت فى بعض الأحيان تتشكل فى شكل قطاة وتطـير حول العمود الذى فيه صندوق أوزريس صائحة ناشجة . فراقبتها الملكة ذات ليلة . فلما رأتها تلق بطفلها فى النار ، صاحت وانتشلته ، فحرمته بذلك من نعمة الخلود . وحينئذ كشفت إيزيس عن نفسها فى صورة إلهة وطلبت أن تأخذ العمود . ثم نزعته بغير عناء ، وقطعته حتى ظهرت قطعة الخشب التى فيها الصندوق ، فغطتها بنسيج رقيق من الكتان ، وطيبتها برائحة زكية ... الخ » .

فهذا الجانب من الأسطورة المصرية أخذه هومير ونقله فى شعره إلى الأسطورة اليونانية التى وضعت لإلهة يونانية تسمى «ديميتر» (٢) فقال إن هذه الإلهة لمـا علمت بخطف بنتها كورى « حز الألم فى قلبها ، ومزقت بيديها الشرائط التى تمسك شعرها ، وألقت على نفسها رداء أسود» .

والأسطورة المصرية تقول إن إيزيس لمـا علمت بمقتـل أوزريس « قطعت خصلة من شعرها ولبست ثوب حداد» (٣) وجعلت « تجول فى كل مكان فريسة لأعظم ما يمكن من الحزن» (٤) .

(١) الفقرة ١٦ والصفحة ٦٥ من كتاب (Isis et Osiris) ترجمـة (Mario Meunier) الطبعة السابعة .

(٢) (Déméter) هى من أكبر الآلهـة فى اليونان القديمة . وكانت تمثـل الأرض ، والقوى الطبيعية ، وتعتـبر إلهة للزراعة ، وحاميـة للزواج . وتلخيص أسطورتها أن لها بنتا تسمى كورى خطفها هاديس فجعلت تجوب الأرض بحثا عنها ، فلما وصلت إلى أرض فى اليونان تسـمى ايلوزيس رحب بهـا ملكها فعلمته الزراعة ، وصارت هذه الأرض مركزا لعبادتها .

(٣) الفقرة ٦٠ من كتاب (Isis et Osiris) الذى مر ذكره .

(٤) ص ٦٠ من المصدر السابق .

فقد يقال إن شبهة الاقتباس فى هذا التشابه ضعيفة لأنه من الطبيعى أن تحزن ديميتر وتلبس لباس الحداد حينما تعلم بخطف بنتها كما حزنت إيزيس ولبست لباس الحداد حينما علمت بقتل زوجها . وقد يكون من الطبيعى أيضا أن تمزق إحداهما شرائط شعرها كما قطعت الأخرى خصلة من شعرها . ولكن انظر ماذا قال هومير بعد ذلك .

قال إن ديميتر تعبت فى البحث عن بنتها ، فوقفت فى قصر ملك يسمى كليوس لتستريح ، فاستدعتها زوجة هـذا الملك وعهدت إليها أن تقوم على تربيـة طفلها ، فنما هذا الطفل بين يدى مربيته هذه الجديدة « كأنه إله من غير أن يرضع لبنا أو يأكل خبزا » وكانت ديميتر تدهن جسمه بالعنـبر وتمسكه بين يديها وتنفخ عليها أنفاسها برفق ، فاذا جن الليل خبأته فى النار وهو كالجذوة . وراقبتها أم الطفل فرأتها ذات مرة وهى تضعه فى النار فذعرت وانتزعتـه . وبذلك حرمته ، على غير علم منها ، نعمة الخلود ، لأن النار التى كان يوضـع فيها كل ليـلة كانت هى التى تطهره من عناصر الفناء وتجعله بعد ذلك خالدا [١] .

فمن هو الذى يقرأ هذا الذى كتبه هومير فى أسطورة ديميتر اليونانية ولا يرى فيه أثر الاقتباس من أسطورة إيزيس المصرية . فديميتر دعيت لتكون مربية لطفل الملكة ، كما دعيت إيزيس لتكون مربيـة لطفل الملكة . والطفل فى يد ديميـتر لا يتغذى باللبن ولا بالخبز ، كالطفل فى يد إيزيس كلما أرادت إرضاعه وضعت له إصبعه فى فمه . وديميتر تدهن للطفل جسمه بالعنـبر ، كما دهنت إيزيس جوارى الملكة وشعورهن بالطيب . وأهم من هذا كله وأقوى أن ديميتر تضع الطفل فى النار بقصـد أن تحرق ما فى جسمه من عناصر الفنـاء فيصـير خالدا ، وإيزيس تفعل فى الطفل ذلك بعينه وللقصـد عينه . وأم الطفل فى الأسطورتين تراقب المربيـة فتراها وهى تضعه فى النار فتنزعج وتنتزعه ، فتحرمه بذلك على غير علم منها نعمة الخلود .

(١) راجـع فى ذلك تعليـق ماريو مونيى (Mario Meunier) على الفقـرة ١٦ ص ٦٥ من كتاب (Isis et Osiris) .

لا جرم أن القصتين متشابهتان فى هــذا الجانب منهما ، بحيث لا يقبل العقل إلا أن تكون واحدة منهما قد اقتبست من الأخرى ، ولمــا كانت الأسطورة المصرية أقدم من شعر هومير بقرون وقرون ، فلا نزاع فى أن هومير هو الذى اقتبس .



وقد تظن أن هــذا الذى عرضناه عليــك هنا هو كل ما وجده العلماء من أثر مصر فى شعر هومير ، فكلا ، واعلم إذن أن مورى وجد هــذا الأثر أيضا فى إلياذته[١] فعقد له فصلا خاصا من صفحة ٢٥١ إلى صفحة ٢٧٣ من كتابه (Rois et Dieux d'Egypte) أثبت فيه أن كثيرا مما فى الإلياذة مقتبس من قصص مصرية أو رسوم مصرية ، بكل ما فيها من الحوادث والتفصيلات والأوصاف ، كما رأينا فى قصــة عوليس . واعلم أيضا أن عالمــا آخر يسمى هلبيج (Helbig) بحث هــذا البحث نفسه وانتهى إلى هذه النتيجة نفسها . ومن أراد فليرجع إليهما .



ولمصر أثر آخر فى المدنية اليونانية أثبته البحث فى الســنين الأخيرة أيضا وهو أوضح وأعم وأعمق بكثير ممــا وجدناه فى شعر هومير . وهــذا الأثر الذى نريده هو ما اقتبسته ، أو قل ما نقلته الأساطير والديانات اليونانيــة من الأساطير والديانات المصرية . وقد أشرنا إلى هذا من قبل فلا يفوتنا هنا أن عالمــا من عشاق المدنية اليونانية هو پول فوكار (Paul Foucart)[٢] أثبت أن ما يعرف فى الديانات اليونانية باسم « عبادة إيلوزيس » (Eleusis)[٣] ليس ســوى عبادة إيزيس المصرية لابسة

(١) الإلياذة هى مجموعة من الشعر قص فيها هو مير حوادث حرب اليونانيين لمدينة طروادة . وهى والأوذيسة تعتبران أرقى الشعر اليونانى القديم .

(٢) يصف قاموس لا روس العالم فوكار بانه عالم فرنسى من المحبين للدنية اليونانية والمشتغلين بالآثار القديمة وقد ولد فى باريس فى سنة ١٨٣٦

(٣) هى عبادة كان طلابها يتلقونها فى معبد بالقرب من أثينا . وكانت لهــا مواسم تحتفل بها فيهــا اليونان كلها .

ثوبا يونانيا . وقد أقره على ذلك وأيده فيه ما سپيرو فى بحث عقده فى كتابه (Causeries d'Egypte) فى الصفحات من ٥٩ إلى ٦٩

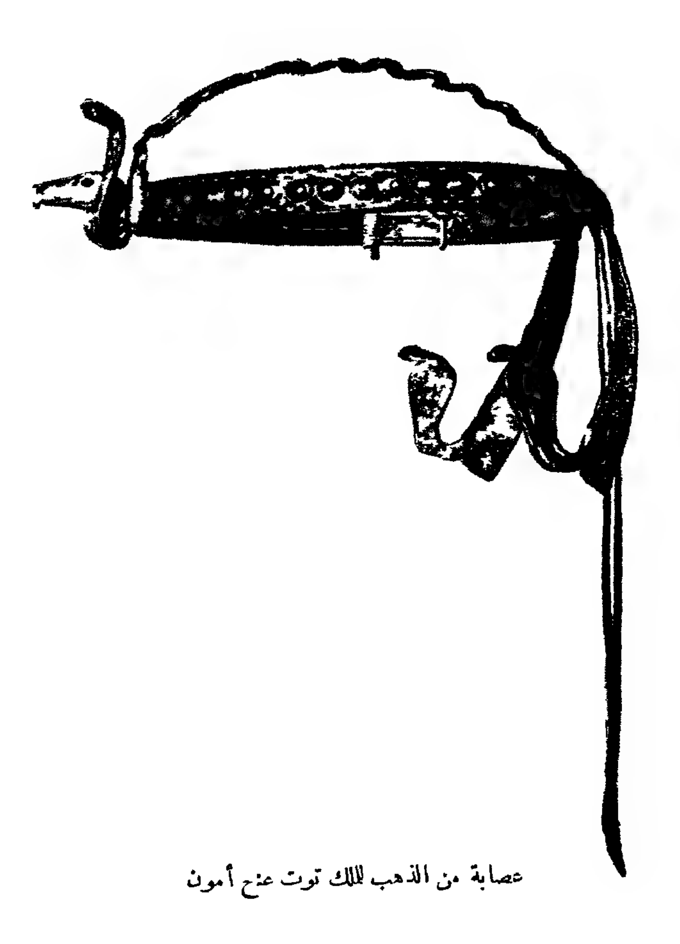
ولا يفوتنا أيضا أن هذين العالمين أثبتا أن الإله اليونانى ديونيسوز (Dionysos) ليس سوى الإله المصرى أوزيريس لابسا ثوبا يونانيا .



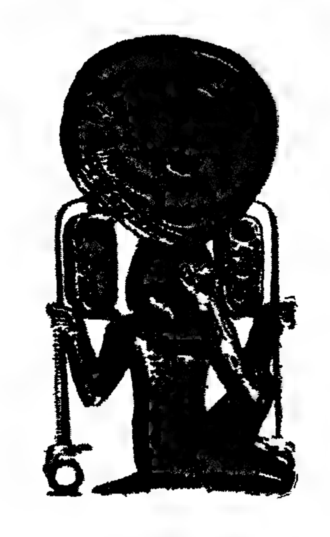
فأثر مصر فى المدنية اليونانية يتضح إذن على ضوء البحث العلمى شاملا كل مناحيها . وهو لم يكن معروفا إلى سنين ولكنه الآن يبدو كلما ترجم العلماء أوراق بردى مصرية ، وكلما تعمقوا فى موازنة آثار مصر بآثار اليونان . ولهذا أخذ يتزعزع الاعتقاد القديم القائل بأن المدنية اليونانية أول عهد الإنسان بالتفكير العلمى وأن المدنيات التى سبقتها لم تكن سوى فوضى فكرية لا تستحق أن يحسب لها حساب . ونقول « أخذ يتزعزع » ولا نقول انهدم ، لأنه لا يزال قائما ولا يزال قويا ، ولكن التصدع أخذ يدب فيه . ومن أعجب الأشياء أن عشاق المدنية اليونانية القديمة هم الذين يخرج منهم أمثال ڤيكتور بيرار وفوكار فيظهرون ما فى ذلك الاعتقاد من الزيف ويشهدون بالفضل السابغ لمصر على المدنية اليونانية .

وليس يمكن أن يحكم العقل والمنطق بغير هذا ، ونحن نعرف كما قلنا أن كثيرا من علماء اليونان تعلموا فى مصر ، وأن اليونانيين اختلطوا فى مستهل مدنيتهم بالمصريين حتى كانت لهم فى مصر المدن اليونانية وكان الجيش المصرى بعضه مصريا وبعضه يونانيا مأجورا . ليس يمكن أن يحكم العقل والمنطق بغير هذا ، وها هو ذا البحث العلمى يكشفه الآن يوما فيوما ، أفلا يكون مما يلفت النظر بعد ذلك أن يقرأ الانسان العلوم والآداب اليونانية فلا يجد فيها صدى لعلوم وآداب مصرية ، ولا ذكرا لعلماء وكتاب مصريين ... ! !

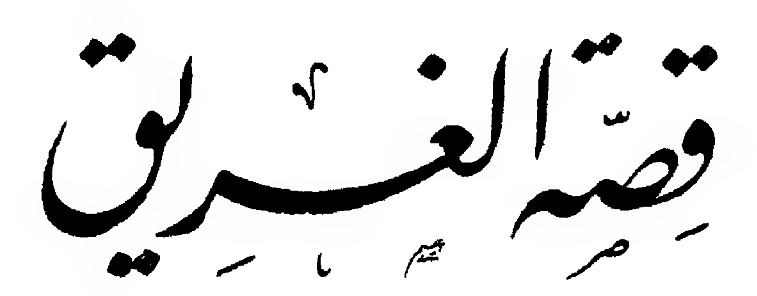
(لوحة رقم ٢٠)



عصابة من الذهب للملك توت عنخ أمون



علبة من الذهب تعلوها مرآة
(من مخلفات الملك توت عنخ أمون)


قصة الغريق

بعـد أن أشرنا فى البحث السابق إلى « قصـة الغريق » المصرية وما اقتبسه هومير منها ، يحسن أن ننشر هنا ترجمة عربية لهذه القصة .

كان الذى عثر على هذه القصة هو الأستاذ جولنيشيف[1] المصرولوجى الروسى كما تقدم . وقد عثر عليها فى محفوظات الدير الامبراطورى فى بتروغراد فى سنة ١٨٨٠ . ولم يعرف أحد إلى الآن كيف وصلت إلى هذا الدير ، ولكنها وجدت فى محفوظاته فى ملف من البردى لم يكن قد فتح ، فلمـا فتحه جولنيشيف وجده مكتوبا بالخط الديموطيقى المصرى فترجمه إلى اللغة الفرنسية وأذاع خبره فى مؤتمر عقد للمستشرقين فى برلين سنة ١٨٨١ ، ثم طبع الترجمة ونشرها من غير أن ينشر النص الديموطيقى . وفى سنة ١٨٩١ عاد فترجمه مرة ثانيـة ، إلى اللغة الفرنسية أيضا ، ولكنه فى هذه المرة نشر الترجمة الجديدة ونشر معها النص الديموطيقى .

وهذه القصة هى إحدى القصص القليلة التى وجدت سليمة وكاملة . ويرى العلماء فى اللغة المصرية القديمة أنها وضعت فى عهد الأسرة الثانية عشرة .

وقد أخذ مورى بالترجمة الثانيـة التى وضـعها جولنيشيف . وكان ماسپيرو قد أخذ بها هو أيضا فنقلها فى الطبعتين الأوليين من كتابه "القصص الشعبية لمصر القـديمة" — (Les Contes Populaires de l'Anc. Eg.) — ولكنه لمـا طبع الطبعة الثالثـة من كتابه هـذا ، كان قـد قرأ النص الديموطيقى الذى نشره جولنيشيف فوضع ترجمة نشرها فيه . وهى لا تختلف عن ترجمة جولنيشيف إلا فى مواضع قليلة وألفاظ قليلة . وهذه هى القصة .

---

(١) (M. Woldemar Golénicheff) .

***

قال الخادم الماهر :

ليطب قلبك يا رئيسى، فقد وصلنا إلى الوطن، وأخذ الرجال المطرقة، ودقوا الوتد، وجعلوا مؤخر السفينة حيال الشاطئ، وهتفوا، وصلوا للآلهة، وأخذوا يتعانقون.

وقد عاد بحارتنا فى صحة جيدة، ولم ينقص منا جندى واحد .

لقد وصلنا فى رحلتنا إلى آخر بلاد واوات (١) ومررنا بسانمويت (٢) وعدنا الآن فى سلام، ووصلنا إلى وطننا .

ألق لى سمعك يا رئيسى، فلست رجل حيلة . اغسل جسمك، وصب الماء على أصابعك، وصل، ثم أفض بما فى قلبك للملك . واحرص على رباطة جأشك حينما تتكلم، فانه إن كان لسان الرجل منقذه فقد يكون كلامه قاضيا عليه بأن يغطى وجهه (٣) .

افعل ما يرشدك إليه قلبك، وليكن ما تقوله أداة سلام لك .

سأقص عليك بالحق ما وقع لى أنا نفسى . كنت قاصدا إلى مناجم الملك فركبت البحر فى سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا (٤) ومعى مائة وخمسون من نخبة البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء، وعرفوا الأرض، وكان فى قلوبهم من البأس أكثر مما فى قلوب الأسود . ثم كانوا

---

(١) يقول ماسپيرو إن بلاد واوات هى التى كانت واقعة فيما وراء الشلال الثانى من بلاد النوبة .

(٢) سانمويت اسم يطلق على جزيرة فى النيل تسمى الآن بيجه، وهى واقعة أمام جزيرة فيله عند الشلال الأول .

(٣) كانت العادة جارية بتغطية وجه المجرم المحكوم عليه بالعقاب، فالكاتب يريد أن يقول إن كلام الرجل قد يجعله من المجرمين الذين يقضى عليهم بتغطية وجوههم .

(٤) إن كان المقصود بالذراع هنا الذراع الملكى فطوله ٥٢ سنتيمترا، ويكون طول السفينة حوالى ٧٨ مترا وعرضها ٢١ مترا . ويرى ماسپيرو أن هذين المقياسين مبالغ فيهما لأن السفن التى أرسلتها الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت لم يكن طول الواحدة منها يتجاوز ٢٢ مترا، ولم يكن عدد الرجال فى كل واحدة منها يزيد على ٥٠ رجلا . ويظهر أن هذه المبالغة فى حجم السفينة وفى عدد رجالها مقصودة لأن الأمر أمر قصة خرافية يجب أن يصاحبها التهويل .

إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالاعصار قبل ثورانه[١] . وبينما نحن فى البحر هبت علينا العاصفة بغتة، وكنا قريبين من الأرض فدفعت بنا الرياح نحوها، وأثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة منى قطعة من الخشب فألقيت بنفسى عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا فى السفينة ولم ينج منهم أحد .

وقذفت بى موجة إلى جزيرة[٢]، فقضيت فيها ثلاثة أيام لا رفيق لى فيها غير قلبى . ونمت فى غابة تشبه المخبأ فكان ظلها يحيط بى . ثم مددت ساقىّ أبحث عن شىء أضعه فى فمى فوجدت تينا، وعنبا، وكل أنواع الكراث الجميلة، وبذورا، وشماما هو من الكثرة حتى لكأنما يصنع صنعا[٣] . ووجدت أسماكا وطيورا . وبالاجمال لم يكن شىء إلا وهو فى ذلك المكان . فأكلت حتى شبعت، ثم وضعت على الأرض بعض ما كانت يداى تمتلئان به، ثم حفرت حفرة وأشعلت نارا، وجعلت ألقى فى النار مما هنالك، قربانا يصل بواسطتها إلى الآلهة .

ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويا كدوى الرعد، فكشفت عن وجهى، فرأيت ثعبانا هائلا يتقدم نحوى[٤]، طوله ثلاثون ذراعا، ولحيته يزيد طولها على

(١) فى الترجمة التى وضعها ماسبيرو : « وكان هؤلاء البحارة قد تنبأوا بألا عاصفة ولا نكبة » بدل « ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالإعصار قبل ثورانه » .

(٢) فى ترجمة ماسبيرو : « ولكن العاصفة هبت ونحن فى البحر، وقبل أن ندرك الأرض . ثم اشتدت الريح فأثارت موجة ارتفعت إلى ثمانية أذرع، فنزعت لوحا من الخشب، وهلك كل الذين كانوا فى السفينة . أما أنا فانى وصلت إلى جزيرة بعد أن دفعتنى موجة إليها » . (٣) كلمات « هو من الكثرة حتى لكأنما يصنع صنعا » ليست موجودة فى ترجمة ماسبيرو، وإنما الموجود فى مكانها « شماما من كل نوع » .

(٤) يلاحظ هنا أن هذا الثعبان لم يظهر إلا بعد أن أحرق السائح القربان فى النار، مع أن السائح كان قد مكث قبل ذلك ثلاثة أيام . فكأنما إحراق القربان هو الذى دعا الثعبان إلى الظهور، مثل ذلك كمثل الأعمال السحرية التى لابد فيها من إحراق البخور لأجل الاتصال بالقوى الخفية . وفى ترجمة ماسبيرو :

« ولم أشعر بعد ذلك إلا وقد سمعت دويا، فقلت فى نفسى « هو ذا دوى موجة من أمواج البحر » ثم خفقت الأشجار، وارتجت الأرض، فكشفت عن وجهى فرأيت ثعبانا يتقدم نحوى » .

وقول السائح « كشفت عن وجهى » معناه أنه لم يدع شيئا يحجب نظره إلى الأمام . أو لعل السائح كان قد غطى وجهه قبل ذلك، ولكن ليس فى سياق القصة ما يدل على أنه كان قد فعل .

ذراعين[١]، وجسمه مرصع بالذهب، ولونه كلون اللازورد . ثم وقف هـذا الثعبان أمامى، وفتح فمه فى وجهى ، بينما كنت قد انطرحت على بطنى، ثم تكلم فقال :

« من أتى بك؟ من أتى بك ؟ أيها الصغير[٢] من أتى بك ؟ إن أنت تأخرت عن أن تقـول لى من أتى بك إلى هـذه الجزيرة فسأعرفك من أنت[٣] . فإما أن ألقيك فى النار فتختفى فيها، أو تقول لى ما لم أسمعه ولم أعرفه قبل رؤيتك » .

ثم حملنى فى فمه ، ونقلنى إلى المكان الذى يقيم فيه، من غير أن يصيبنى أذى . وكذلك انتقلت سليما معافى لم ينقص منى شىء .

ثم قال لى مرة أخرى :

« من أتى بك؟ من أتى بك؟ أيها الصغير من أتى بك إلى هـذه الجزيرة التى تغوص شواطئها فى الأمواج ؟ » .

وكنت إذ ذاك منبطحا على بطنى و يداى مرسلتان أمامه فأجبته قائلا :

« أردت السفر إلى المناجم بأمر من الملك فركبت سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا ، ومعى فيها مائة وخمسون من نخبة البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء وعرفوا الأرض ، وكان فى قلوبهم من البأس أكثر مما فى قلوب الأسود . ثم كانوا إلى جانب ذلك يتنبأون بالعاصفة قبل هبوبها وبالإعصار قبل ثورانه . وكان كل واحد منهـم أقوى من أخيـه قلبا وذراعا .

---

(١) كان من المألوف عند المصريين أن يجعلوا للآلهة لحى ، وأن يرسموا الملوك بلحى مستعارة متى أرادوا تصويرهم فى صورة الآلهة . فالمفهوم من قول السائح هنا إن الثعبان ذو لحية يزيد طولها على ذراعين أن هذا الثعبان إله .

(٢) فى ترجمة ماسپيرو توجد كلمة « التابع » بدل كلمة « الصغير » .

(٣) علق ماسپيرو على هذه الجملة فقال إنها تتردّد كثيرا فى النصوص المصرية القديمة ، و إن المراد بها « سأعرفك بعجزك عن مقاومة قدرتى » . ونقول نحن إن هـذا التعبير لا يزال مستعملا فى مصر بهذا المعنى إلى اليوم .

ولم يكن بينهم جبان . وبينما نحن فى البحر هبت علينا العاصفة بغأة ، وكنا قريبين من الأرض فدفعت بنا الرياح نحوها وأثارت أمواجا كانت ترتفع إلى ثمانية أذرع . ورأيت على مقربة منى قطعة من الخشب فألقيت بنفسي عليها وركبتها . ومات كل الذين بقوا فى السفينة ولم ينج منهم أحد . وقد انقضت على ثلاثة أيام ، والآن هاءنذا قريب منك ، وأنا الذى دفعتنى موجة إلى هذه الجزيرة » .

فقال الثعبان :

«لا تخف شيئا، لا تخف شيئا أيها الصغير، ولا تدع الحزن ينتشر على وجهك. لقد وصلت إلىّ لأنه كتب لك أن تصل إلى هذه الجزيرة السعيدة [1] التى فيها كل شيء، والتى هى مملوءة بالأشياء الطيبة . ستقيم هنا شهرا بعد شهر إلى أن تمضي أربعة أشهر، ثم تأتى سفينة فيها بحارة عرفتهم، وستسافر معهم، وستموت فى مدينتك .

« إن مما يوجب ارتياحى أن أطلع رجلا عانى الآلام مثلك على ما هنا . فسأخبرك إذن بما فى هذه الجزيرة لا أنقص منه ولا أزيد .

« إننى أعيش فى هذه الجزيرة بين أخوتى وأبنائى . وعددنا خمسة وسبعون ثعبانا . وعدا ذلك توجد فتاة جاءتنى من طريق السحر، وذلك أن نجمة سقطت، فخرج منها الذين كانوا فى نارها ، وظهرت الفتاة من غير أن أكون مع الكائنات التى خرجت من النار أو بينها، وإلا فلو أننى كنت مع هذه الكائنات أو بينها لمت . وقد وجدت الفتاة بعد ذلك ميتة وحدها [2] .

(١) فى ترجمة ماسبيرو أن هذه الجزيرة تسمى « جزيرة الأرواح السعيدة » .

(٢) يعلق ماسبيرو على حكاية هذه النجمة فيرجح أن المقصود بها شهاب من الشهب التى تظهر فى الجو أو صاعقة . ويقول إن هذه هى الإشارة الوحيدة التى وجدت فى النصوص القديمة لمثل هذا المعنى .

ويقول ماسبيرو أيضا إن النص الديموطيق مبهم فى هذه النقطة وإن جولنيشيف ترجمه على أن الفتاة ميتة لأن نار الشهاب أو الصاعقة أحرقتها . ولكنه هو — أى ماسبيرو — يرى أن النص معناه أن الفتاة حية وأن الثعبان لا يعرف كيف ولدت ، وقد رأى هذا الثعبان الشهاب حينما سقط ثم رأى النار التى اضطرمت بعد سقوطه فلم يقترب منها بل انتظر حتى خمدت ثم اقترب فوجد الفتاة بين الجثث من غير أن يعرف كيف جاءت .

«وبعد، فأقول لك إنك إن كنت شجاعا وكان قلبك قويا فستضم إلى صدرك أولادك، وستعانق امرأتك، وسترى دارك، وذلك خير من كل شيء. ستصل إلى بلادك، وستكون فيها بين إخوانك».

وحينئذ انبطحت أرضا على بطنى وقلت:

«دونك الآن ما أريد أن أفضى به إليك. سأصف أرواحك[١] لفرعون، وسأخبره بمجدك، وسأجلب لك زيوتا مقدّسة، وطيبا، ودهانا، وصندوقا لذخائرك المقدّسة، وبخورا للمعابد مما يعجب كل إله. وسأقص على فرعون ما أتيح لى أن أراه هنا، وسيعبدك الناس فى مدينتك بمحضر أعيان الأرض جميعا[٢]. وسأذبح لك ثيرانا ثم أحرقها فى النار. وسأخنق لك طيورا[٣]. وسأحضر لك سفنا مملوءة بكنوز من مصر، كما يفعل الناس لإله محب لهم فى بلاد بعيدة لا يعرفونها».

فضحك منى ومن كلامى، ثم قال لى:

«ليس عندك مُرٌّ كثير[٤]، وكل ما لديك بخور. أما أنا فانى ملك بلاد بونت، وعندى مر. والشيء القليل وحده فى هذه الجزيرة هو الزيت المقدّس[٥]. على أنك متى فارقت هذه الجزيرة فلن تراها لأنها ستتحوّل إلى أمواج».

---

(١) كانت الأساطير تقول إن لكل إله سبعة أرواح.

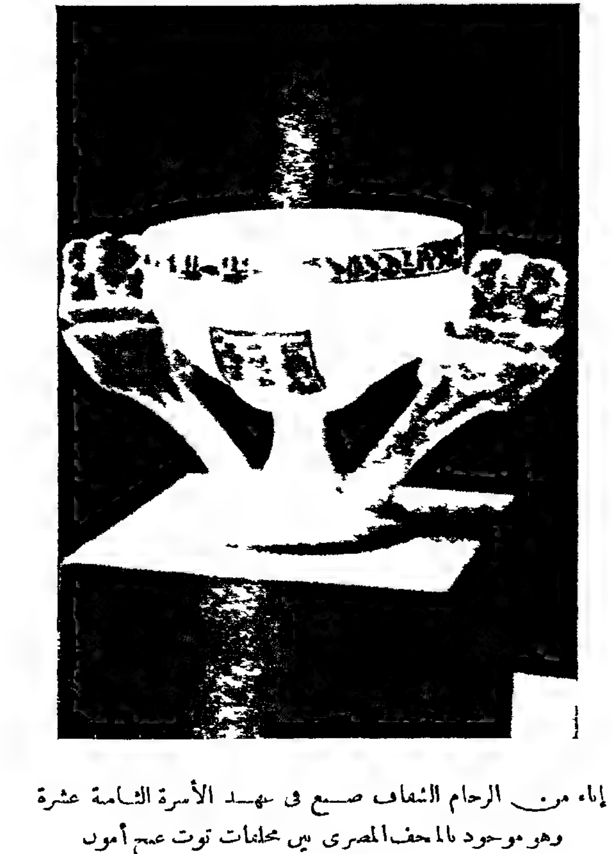
(٢) المراد بالأرض جميعا مصر. ويلوح أن المراد بقوله «وسيعبدك الناس فى مدينتك» أن السائح يعد الثعبان بأن تكون له عبادة فى مصر ومدينة يعبد فيها كما كان رع يعبد فى هليوپوليس وبتاح فى ممفيس وتوت فى الأشمونين وأمون فى طيبه ... الخ.

(٣) المراد بقوله «وسأخنق لك طيورا» أنه سيقدّم له قرابين من الطيور.

(٤) معروف أن نبات المر إذا أحرق نشر رائحة زكية. وقد كان المصريون يجلبونه من بلاد بونت (التى يقال إنها بلاد الصومال كما يقال إنها جنوب بلاد العرب) ليقدّموا منه هدايا للآلهة.

(٥) ترجم ماسبيرو «الزيت المقدّس» على أنه «طيب التهليل». وقال إنه يسمى «هاكانو» ولم يعرف العلماء شيئا عن تركيبه ولكنهم يعرفون أنه واحد من زيوت سبعة كانت تقدّم للآلهة، وفى الحفلات الجنائزية.

(لوحة رقم ٢١)



إناء من الرخام الشفاف صنع في عهد الأسرة الثامنة عشرة
وهو موجود بالمتحف المصري بين مخلفات توت عنخ أمون



إناء من المرمر
(من مخلفات توت عنخ أمون)

فلمـا جاءت السفينة، كما كان الثعبان قـد أخبرنى، صعدت فوق شجرة عالية وجعلت أرقب الذين فيهـا . ثم ذهبت إلى الثعبان وأبلغتـه الخبر فوجدته يعرفه، وحينئذ قال لى :

«صحة جيدة، صحة جيدة أيها الصغير حتى تصل إلى دارك. سترى أولادك . وليكن اسمك مذكورا بالخير فى مدينتك . تلك هى أمانىّ لك » .

فانبطحت على بطنى أمامه، وأرسلت يدىّ، فأعطانى من الهدايا مرا، وزيتا مقـدّسا، ودهانا، وصندوقا، وفلفـلا، ومسحوقا، وكحلا، وسروا، وبخـورا، وذيول حيتان، وأسنان فيلة، وكلابا سـلوقية، وقرودا، وغير ذلك من كل ما هو ثمين[1] . فحملت هـذه الهدايا إلى السفينة، ثم انبطحت على بطنى وعبدت الثعبان، فقـال لى :

« ستصل إلى بلدك بعد شهرين، وستضم أولادك إلى صدرك، وبعد ذلك تمضى إلى قبرك لتجدّد شبابك »[2] .

فسرت إلى الشاطئ حيث السفينة، ودعوت الجنود الذين فيها، وصليت على الشاطئ لسيد الجزيرة وللذين يقيمون فيها .

ولمـا عدنا إلى مدينة الملك جنحت السفينة وارتطم مقدّمها بالساحل . ووصلنا إلى قصر الملك فى الشهر الثانى، كما كان الثعبان قد تنبأ . فمثلت أمام الملك وقدّمت له الهدايا التى جلبتها من الجزيرة، فشكرنى أمام أعيان الأرض جميعا . ثم أدخلت خدمة الملك وصرت متصلا بكبار حاشيته .

---

(١) علق ماسپيرو على هذه الأنواع من الهدايا فقال إنها هى بعينها التى جلبتها من بلاد بونت الحملة البحرية التى أرسلتها بعد ذلك الملكة حتشبسوت، بحيث لا يوجد بين هذه وتلك إلا اختلاف قليل .

(٢) الظاهر أن قوله « تمضى إلى قبرك لتجدّد شبابك » محمـول على أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموت ليس فناء للانسان وإنمـا هو انتقال من حيـاة إلى أخرى . وكانوا يعتقدون أيضـا أن الرجل الصالح يبعث فى الحياة الأخرى شابا . وقد تقدّم هذا كله فى البحث الخاص بعقيدة الحساب بعد الموت .

والآن نخفض نظرك لى ، فقد عدت إلى أرض مصر، بعد أن رأيت أشياء كثيرة ، ومرت بى محن كثيرة . اصغ إلىّ فان الإصغاء نافع . لقد قال لى فرعون « كن خادما بصيرا فطنا ياصديقى » ، فمن هو الذى يسق الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبحه فيه» (١) .

انتهت القصة من بدايتها إلى نهايتها كما وجدت مكتوبة . والذى كتبها هو الكاتب « أمونى — أماناوو » ذو الأصابع الماهرة، له الحياة والصحة والقوة .



هذه هى قصة الغريق ، ويفهم من مقدّمتها أنها رفعت من مرؤوس إلى رئيسه . ويقول الكاتب « ليطب قلبك يا رئيسى فقد وصلنا إلى الوطن» ثم يقول « اغسل جسمك ، وصب الماء على أصابعك ، وصل ، ثم أفض بما فى قلبك للملك . واحرص على رباطة جأشك حينما تتكلم ، فانه إن كان لسان الرجل منقذه ، فقد يكون قاضيا عليه بأن يغطى وجهه» . فهل يفهم من ذلك أن الرئيس الذى رفعت إليه القصة كان مع مرؤوسه فى الرحلة التى يشير إليها فى قوله « لقد وصلنا فى رحلتنا إلى آخربلاد واوات ومررنا بسانمويت وعدنا الآن فى سلام » ؟ أو هذا الرئيس لم يكن فى الرحلة ثم لما عاد المرؤوس وجب أن يقدّم إليه تقريرا عما فعله ، كما يقدّم الآن كل قائد بحرى تقريرا إلى وزير البحرية عن رحلة أمر بها فأداها وعاد منها ؟

ليس فى القصة جواب على هذا . وكل ما يفهم من المقدّمة أن الرئيس الذى قدّمت القصة إليه كان عليه أن يقابل الملك ، وأن يتحدّث إليه فى أمر قد تكون

(١) علق ماسپيرو على قول الكاتب « فمن هو الذى يسق الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبحه فيه » فقال إن هذه الجملة تقع فى الأذن كما يقع المثل فلعلها كانت مثلا مصريا . أما معناها فهو أن الرجل الذى يسق طيره فى بكور النهار يدل بذلك على أنه لا ينوى أن يذبحه فى هذا النهار نفسه ، واذن يكون للطير الذى سق أن يطمئن فى نهاره كما يكون لكل رجل ناله خير من سيد قادر أن يطمئن إلى هذا الخير وأن لا يتوقع من ورائه شرا عاجلا من هذا السيد نفسه .

فيه مؤاخذة له ، ولذلك يوصيه الكاتب بأن يتطهر ويتشجع ويحرص على اجتناب الزلل فى الكلام . ويضيف الكاتب إلى ذلك فى ختام قصته كلمة يطمئنه بها ، وهى قوله «لقد قال لى فرعون «كن خادما بصيرا فطنا يا صديق . فمن هو الذى يسق الطير فى بكور اليوم الذى ينوى أن يذبحه فيه» .

أما القصة نفسها فهى من القصص الشعبية، ومن الطبيعى أن تظهر فيها صور من الأساطير والعادات الدينية القديمة، لأنها بغير ذلك تكون غريبة عن زمانها وبيئتها. ولكن من الخطأ أن يظن أنها وضعت للتعبير عن فكرة دينية معينة .

وقد كانت عامة المصريين تقبل على هذا النوع من القصص ، كما تقبل عليه الان . ولذلك وجد فى قصص عدة، بعضها يقص سياحات فى سوريا[1] ، وبعضها يقص رحلات فى البحر الأبيض المتوسط[2] ، وبعضها يقص رحلات فى النوبة[3] ، ثم قصتنا هذه تقص رحلة فى البحر الأحمر .

وقبل أن تعرف هذه القصص كان الاعتقاد عاما بأن المصريين القدماء كانوا يكرهون ركوب البحر والخروج من بلادهم ، وكان الكتاب اليونانيون والرومانيون هم الذين أنشأوا هذا الاعتقاد ، لأنهم ادعوا هذه الدعوى ثم غالوا فيها فزعموا أن المصريين كانوا يستأجرون بحارة فينيقيين لسفنهم كلما أرادوا أن تشق سفينة لهم عرض البحر أو أن يقاتلوا أعداء لهم فى البحر . فلما عرفت هذه القصص، كان فيها وفى النقوش التى وجدت فى المعابد، تكذيب كاف لتلك الدعوى . إذ السائح الغريق هنا مصرى ، والأبطال فى قصص الرحلات الأخرى مصريون جميعا ، وهم يقصون حوادث لا يختلف اثنان فى أنها مصرية ، بروحها وأساطيرها وما تشتمل عليه من العادات والتقاليد .

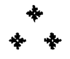
---

(١) منها قصة «سينوهيت» التى وقعت حوادثها فى زمن الأسرة الثانية عشرة .

(٢) منها قصة «أوناموتو» ورحلته إلى بيلوس .

(٣) منها قصص مختلفة لأمراء ايلفنتين و رحلاتهم فى النوبة .

وقد كان عجيبا حقا أن تقع مصر على البحر الأبيض من ناحية والبحر الأحمر من ناحية أخرى، ثم يكره أهلها ركوب الماء . وكان عجيبا أيضا أن تستهدف مصر لغزوات جيرانها الطامعين فى خيراتها، فى مدى أربعة آلاف سنة أو تزيد، ثم يجهل أهلها بلاد هؤلاء الجيران . نعم كان هذا عجيبا، ولكن الكتاب اليونانيين والرومانيين قالوه، وأكدوه ، إلى أن كذبتهم النقوش التى فكت رموزها ثم جاءت القصص فهدمت زعمهم من أساسه ودلت على أن الرحلات فى البحار وفى البلاد المجاورة كانت بعض ما شغف به المصريون .



وتنتهى القصة بالعبارة الآتية :

« انتهت القصة من بدايتها إلى نهايتها كما وجدت مكتوبة . والذى كتبها هو الكاتب « أمونى — أماناوو » ذو الأصابع الماهرة، له الحياة والصحة والقوة» .

فهل « أمونى — أماناوو » هذا هو واضع القصة ، أو هو نساخ وجدها مكتوبة فنسخها ؟

إن قوله « كما وجدت مكتوبة» قد يشير إلى أنه ليس سوى نساخ ، ولكن قوله « والذى كتبها هو أمونى — أماناوو » قد يكون معناه أن هذا الأخير هو الذى وضعها وأن النساخ شخص آخر لم يذكر اسمه .



والقصة ساذجة كما رأيت، ولعلها كانت فى لغتها الأصلية تكسب قوة من حسن انتقاء الألفاظ والبراعة فى التعبير . ولكن هذه القوة تضيع كلها فى الترجمة، وخاصة إذا كان المترجم قصة وضعت منذ أربعة آلاف سنة، لعصر غير عصرنا ، وبيئة غير بيئتنا ، وتقاليد غير تقاليدنا، وعقلية غير عقليتنا . إذ مما لاشك فيه أن العصر والبيئة والتقاليد والعقلية تضفى على الكتابة قوة خاصة تبقى ببقائها ، فاذا

زالت، صارت الكتابه، التى كانت تشبه الشجرة الحية المورقة ذات الزهر اليانع، كأنها خشب جاف لا ورق فيه ولا زهر ولا حياة .

وللكاتب مع ذلك عذر فى سذاجة قصته، هو أنه كان يكتب فى وقت كان العقل الإنسانى فيه يخطو خطواته الأولى فى سبيل التفتح، ومن الظلم أن يطلب من كاتب هذا شأنه أن يكون ككاتب يكتب فى وقتنا هذا .

على أن الفكرة الأساسية فى القصة، وهى الرحلة فى البحر ثم الإشراف على الغرق، ثم النجاة إلى جزيرة أو أرض ذات عجائب، ثم العودة إلى الوطن بعد مكابدة هذه العجائب، نقول إن هذه الفكرة انتقلت بعد ذلك إلى الأدب العربى على يد كاتب مصرى كان هو الذى وضع قصة «السندباد البحرى» فى قصص «ألف ليلة وليلة» . فمصرى إذن هو الذى وضع فى الأدب المصرى القديم «قصة الغريق»، ومصرى أيضا هو الذى وضع بعد ذلك فى الأدب العربى قصة «السندباد البحرى» .

ولم تقف الفكرة عند هذين الأدبين، بل انتقلت إلى الأدب الانجليزى فى قصص تعرف باسم «روبنصون كروزو»[1] .



ويلاحظ فى أسلوب الكاتب المصرى أنه قص قصة السفر والإشراف على الغرق والنجاة إلى الجزيرة، ثم لما طلب الثعبان من السائح أن يخبره من أين جاء وكيف جاء، وشرع هذا السائح يجيب، قص القصة نفسها، بألفاظها، مرة ثانية، فقال :

« أردت السفر إلى المناجم بأمر من الملك فركبت سفينة طولها مائة وخمسون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا، ومعى فيها مائة وخمسون من نخبة البحارة فى مصر . وكان هؤلاء البحارة قد عرفوا السماء، وعرفوا الأرض ... ... الخ » .

---

(١) (Robin Son Crusoe)

وهذا هو بعينه ولفظه ما كان قد قصه من قبل، لا يختلف عنه إلا فى كلمات قليلة . وكان أولى لو أنه استغنى عن هذا التكرار المبتذل بجملة موجزة يقول فيها إنه أجاب الثعبان فأخبره بكل ما كان من أمره . غير أن هـذا التكرار الذى يراه كتاب اليوم مبتـذلا ، كان سائغا منذ أربعـة آلاف عام . وقد استعمل أكثر من مرة فى قصة « الملك خوفو والسحرة »[١] ، وفى قصص أخرى . ولم يكن هذا الأسلوب مستعملا فى مصر وحدها ، بل كان مستعملا فى غيرها من البلاد أيضا ، وقد جاءت التوراة بعد « قصـة الغريق » بأكثر من ألف سـنة فلم يسـتطع الذين كتبوها أن يتخلصوا من أسلوب التكرار ، ونسوق هنا أمثلة تدل عليه .

ففى الأصحاح السادس عشر من «سفر القضاة» ، حكاية عن شمشون ودليلة ، ما يأتى :

« وكان بعـد ذلك أنه (شمشون) أحب امرأة فى وادى سورق تسمى دليلة . فصـعد إليها أقطاب الفلسطينيين وقالوا لها تملقيه وانظرى بمـاذا قوته العظيمة و بمـاذا نتمكن منه لكى نوثقه لإذلاله ... ... فقالت دليلة لشمشون أخبرنى بمـاذا قوتك العظيمة و بمـاذا توثق لإذلالك » .

فهنا كررت على لسان دليلة لشـمشون نفس الألفـاظ التى قالهـا أقطاب الفلسطينيين لدليلة . ثم استمر كاتب السفر فقال :

« فقال لها شمشون إذا أوثقونى بسبعة أوتار طرية لم تجف أضعف وأصير كواحد من الناس . فاصعد لهـا أقطاب الفلسطينيين سبعة أوتار طرية لم تجف فأوثقته بها والكمين لابث عندها فى الحجرة . فقالت له الفلسطينيون عليك ياشمشـون . فقطع الأوتار ... ... فقالت دليلة لشمشون قد ختلتنى وكلمتنى بالكذب فأخبرنى الآن بمـاذا توثق . فقال لهـا اذا أوثقونى بحبال جديدة لم تستعمل أضـعف وأصير كواحد من الناس . فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها وقالت له الفلسطينيون عليك ياشمشون . والكمين لابث فى الحجرة . فقطعها عن ذراعيه كخيط . فقالت له دليلة حتى الآن ختلتنى وكلمتنى بالكذب فأخبرنى بمـاذا توثق . فقال لها اذا ضفرت سبع خصل رأسى مع السـدى . فمكنتها بالوتد وقالت له الفلسطينيون عليك

---

(١) موضوع هذه القصة أن الملك خوفو دعا أولاده وطلب أن يقص عليـه كل واحد منهم أعجب ما عرفه أو سمع به من أعمال السحر والحكمة فأطاعوا وقصوا أشياء كثيرة .

ياشمشون . فانتبــه من نومه وقلع وتد النسج والسدى . فقالت كيف تقــول أحبك وقلبك ليس معى . هوذا ثلاث مرات فدختلتنى ولم تخبرنى بمــاذا قوتك العظيمة ... ... الخ » .

ففى هذه الأسطر القليلة من القصة كرر شمشون غير مرة قوله «أضعف وأصير كواحد من الناس » . وكررت دليلة غير مرة أيضا قولها « فدختلتنى وكلمتنى بالكذب فأخبرنى بمــاذا توثق » ثم قولهــا « بمــاذا قوتك العظيمة » ثم قولهــا « الفلسطينيون عليك ياشمشون » .

وفى الأصحاح الخامس من سفر استير ما يأتى :

« وفى اليــوم الثالث لبست استير ثيابا ملكية ... ... والملك جالس على كرسى ملكه فى بيت الملك مقابل داخل البيت . فلما رأى الملك استير الملكة واقفة فى الدار نالت نعمة فى عينيه . فمد الملك لاستير قضيب الذهب بيــده فدنت استير ولمست رأس القضيب . فقال لهــا الملك مالك يا أســتير الملكة ما هى طلبتك . إلى نصف المملكة تعطى لك . فقالت استير إن حسن عند الملك فليأت الملك وهامان إلى الوليمة التى عملتها له . فقال الملك أسرعوا بهامان . ليفعل كلام استير . فأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى عملتها استير . فقال الملك لاســتير عند شرب الخمر ما هو سؤلك فيعطى لك وما هى طلبتك . إلى نصف المملكة تقضى . فأجابت استير وقالت إن سؤلى وطلبتى إن وجدت نعمة فى عينى الملك وإذا حسن عند الملك أن يعطى سؤلى وتقضى طلبتى أن يأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى أعملها لهما وغدا أفعل حسب أمر الملك » .

ففى هذه الأسطر من تكرار الألفاظ ما يستطيع القارئ أن يتبينه بسهولة .

وفى الأصحاح السابع من هذا السفر نفسه ما يأتى :

« فجاء الملك وهامان ليشربا عنــد استير الملكة . فقال الملك لاستير فى اليوم الثــانى أيضا عند شرب الخمــر ما هو سؤلك يا اســتير الملكة فيعطى لك وما هى طلبتك . ولو إلى نصف المملكة تقضى . فأجابت استير الملكة وقالت إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك أيها الملك وإذا حسن عند الملك فلتعط لى نفسى بسؤلى وشعبى بطلبتى ... ... الخ » .

وهنا أيضا تكرار لنفس الألفاظ التى مرت فى الأصحاح الخامس . وقصــص التوراة مشحونة بكثير من هذا النوع من التكرار .

والذى يوازن أسلوب الكاتب المصرى فى التكرار بأسلوب التوراة يحكم للاول بأنه لم يلجأ إلى التكرار إلا فى موضع واحد من قصته بينما أسلوب التوراة يكثر منه فى كثير من المواضع حتى لتكاد كلمات بعينها تتكرر كلما مضت أسطر تعدّ على الأصابع .

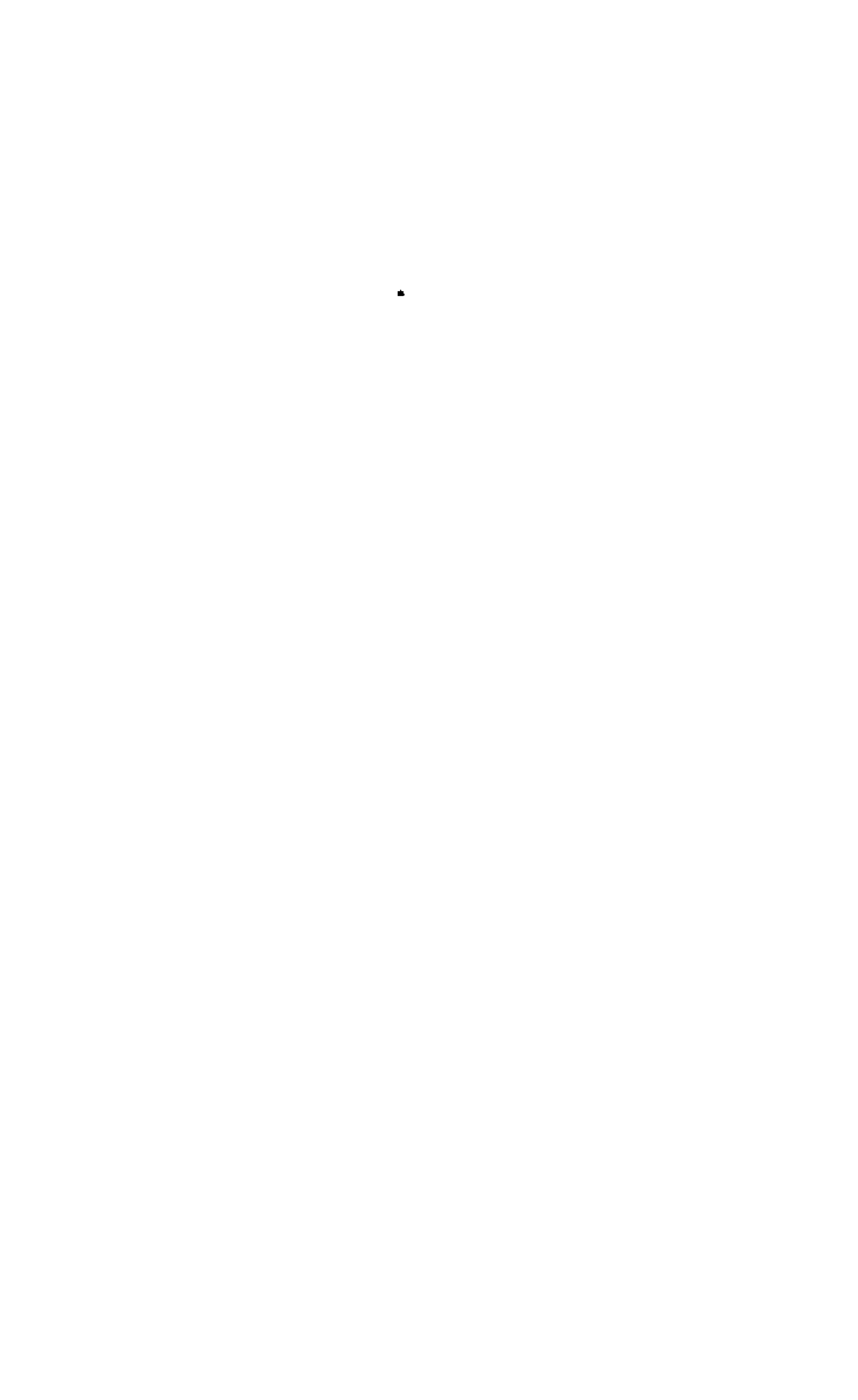
(لوحة رقم ٢٢)



إناء مصنوع من المرمر على شكل تيس (من مخلفات توت عنخ آمون)



مروحة مثبتة على قاعدة من الذهب . ويرى فى المروحة رسم ملك مصر يحمل فى عربته
على أعدائه (من مخلفات توت عنخ آمون)



رسائل سياسية وغير سياسية
في عهد الأسرة الثامنة عشرة
بين ملوك مصر والملوك المجاورين لهم
ثم بين ملوك مصر وحكام فلسطين وسوريا

فى سنة ١٨٧٧ كان جماعة من أهالى قرية الحاج قنديل يحفرون فى تل العمارنة ، أو قرية بنى عامر ، ليبحثوا عن طوب وحجارة لمساكنهم . وكان أهل هذه القرية وأهل القرى المجاورة لها قد ألفوا من أزمنة بعيدة أن يلتمسوا فى تل العمارنة هذا ما يريدونه من سماد لحقولهم وأدوات لمبانيهم . فبينما كان أصحابنا هؤلاء يهدمون جدارا سميكا وينقضونه حجرا حجرا اذا بفؤوسهم تعثر فى جوانبه على قوالب من الطوب سليمة ، فتناول واحد منهم قالبا ونظفه من التراب المتراكم عليه ، فما أشدّ مادهش إذ رأى عليه نقوشا تملأ جانبيه وتنتظمها صفوف لا عوج فيها ولا انقطاع . فعرض الأمر على زملائه فنظفوا هم أيضا قوالب أخرى فظهر لهم فيها مثل ما ظهر لزميلهم من النقوش ، وظهر إلى جانب ذلك أن من الطوب ما هو أسود ومنه ما هو أصفر ومنه ما هو أحمر . فلم يبق لديهم شك فى أنهم عثروا على لقية من اللقى الأثرية التى يزدحم بها جوف الأرض فى مصر . فعادوا يحفرون ، ولكن بحذر واحتياط فى هذه المرة ، فوجدوا حفرتين عميقتين صفت فيهما قوالب من ذلك الطوب الملون المنقوش ، وكانت حميرهم تنتظرهم فلم يحملوا عليها مواد البناء التى جاءوا فى طلبها ، بل حملوا تلك القوالب وعادوا إلى قريتهم غانمين فرحين .

ولم تمض على ذلك أيام حتى كانت هذه القوالب قد انتقلت من أيدى أصحابنا هؤلاء إلى أيدى تجار الآثار فى اخميم والأقصر والقاهرة . ثم وصل خبرها إلى مدير مصلحة الآثار المصرية حينذاك مسيو جريبو و إلى مدير المدرسة الفرنسية فى القاهرة مسيو نورمان ، فاشتريا بعضا منها وأخذا يفحصان النقوش التى عليها ، فلم يستطيعا قراءتها ولكنهما أدركا أنها تشبه الخط المسمارى ، خط الكتابة البابلية القديمة ، ولم يفهما كيف يمكن أن يوجد مستودع لكتابات بهذا الخط فى مصر . ثم أرسلا ما اشترياه من الطوب إلى عالمين خبيرين بالخط المسمارى هما الأستاذ

أو بير فى باريس والأستاذ سايس فى لندن، فلم يجد هذان العالمـان مناصا من القول بأن الكتابة بابليـة . ولكن الخبر لم يكد يذاع حتى قوبل بالدهشة فى جميع الدوائر العلمية، ثم تحولت الدهشة إلى ريبة ، والريبة إلى سخرية وإنكار، وخرج العلمـاء من هـذا كله بأن قالوا إن مازحا غشاشا أراد أن يضحك منهـم ومن الناس كافة فصنع الطوب ونقش عليـه ما نقش ثم وضعه فى تل العمارنة ليداعب به الفلاحين المصريين أولا، وتجار العاديات المصرية ثانيا، والعلماء أخيرا .

وهكذا أنكر العلمـاء طوب تل العمارنة ، وأنكروا أن يوجد طوب بابلى فى مصر على صورة من الصور .

ولكن قوالب هذا الطوب كانت كثيرة، وقد أخذت كثرتها هـذه تظهر شيئا فشيئا ، فلم يكن بد من أن يبدو غريبا أن يكون ذلك المـازح الغشاش الذى نقش الطوب ودفنه فى خرائب تل العمارنة كلف نفسه كل هذه المشقة لغير غرض سوى الغش والمزاح .

وعندئذ أخذ الشك يعلق بذلك الإنكار . ثم ازداد الشك حينما قيل إن قوالب الطوب ليست خمسين أو ستين بل قد يبلغ عددها بضعة ألوف (سيأتى أن عددها الصحيح كان ستمائة تلف منها فى أيدى العلماء ثلثمائة) . وحينئذ اشترت متاحف مصر ولندن و برلين وڤينا قليلا منها ، واشترى بقيتها طبيب كان معروفا فى الاسكندرية يسمى دانينـوس باشا وجامع آثار قديمة كان يسمى جراف . وعرف متحف برلين قيمة هـذه القوالب ، وعلم أن جراف ودانينوس باشـا لا يكرهان أن يبيعـا ما لديهما فاشتراه منهما . وأكب العلماء على قوالب الطوب يحاولون قراءة ما فيها، ففى أبريل سـنة ١٨٨٨ قرأ سايس الذى تقدّم ذكره أسمـاء لملوك بابليين وحكام سوريين . وقفى على أثره عالم ألمـانى من كبار العلماء فى المصرولوجيا هو أدولف إرمان الذى ذكرناه فى بحوث سابقة فقرأ اسم الفرعون امينوفيس الثالث والفرعون امينوفيس الرابع مكتوبين بالخط المسمارى . ثم تضافر أربعة من العلماء هم الأستاذ

أبيل[1] والأستاذ ونكلير[2] فى برلين ، والأستاذ بيزولد[3] والأستاذ بودج[4] فى لندن ، على طبع صورة النقوش التى على الطوب و إذاعتها فى جميع الدوائر العلمية لتكون فى متناول كل من يعرف شيئا من الخط المسمارى . واستطاع عالم فرنسى بعد ذلك هو الأستاذ هاليفى[5] أن يضع ترجمة لمجموعة كبيرة من هذه النقوش باللغة الفرنسية ، فكانت ترجمة يتخللها النقص فى مواضع والخطأ فى مواضع ، ولكنها كانت أول محاولة أعطت فكرة عامة عن القوالب وما فيها ، وحينئذ عرف أن هذه القوالب تحوى رسائل سياسية بين فراعنة مصر من جانب وملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا من جانب آخر ، ووضح فى الوقت نفسه أن هذه الرسائل أقدم مكاتبات سياسية يعرفها العالم ، وأن فيها من البيانات ما يكشف عن العلاقات التى كانت بين مصر وجيرانها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة أى فى حدود ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، فهى لهذا تعدّ فى الطبقة الأولى بين الوثائق التاريخية .



والآن يحسن بنا ، قبل المضى إلى الأمام فى درس هذه الرسائل السياسة ، أن نقول ما هوتل العمارنة الذى وجد فيه ذلك الطوب .

فتل العمارنة هو اسم يطلق على خرائب تقوم بالقرب منها الآن قرية صغيرة تسمى قرية بنى عامر على الشاطئ الشرقى من النيل فى الطرف الشمالى من مديرية أسيوط بين ملوى وديروط . وهذه الخرائب هى بقايا مدينة قديمة كان الملك امينوفيس الرابع قد أسسها وسماها « خوتاتون » — أى افق قرص الشمس —

---

(١) (Abel) .

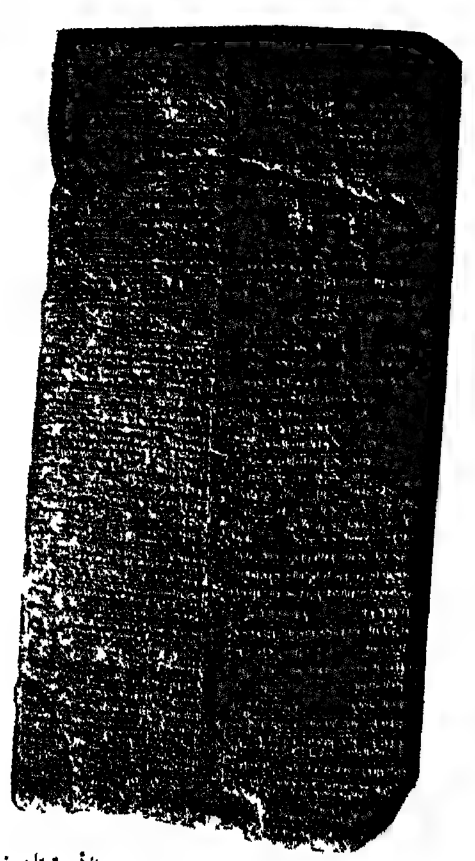
(٢) (Winckler) .

(٣) (Bezold) .

(٤) (Budge) .

(٥) (Halévy) .

وانتقل من طيبة إليها وجعلها عاصمة الامبراطورية المصرية[١]، بعد أن ثار على عبادة المعبود أمون وأقفل معابده وشتت كهنته ودعا إلى عبادة «اتون» — أى قرص الشمس — وسمى نفســه «إيخون اتون» أى «قرص الشمس مغتبط» ويسميه كثير من ــاب التاريخ المصرى «اخناتون» على سبيل التخفيف .



رسالة من رسائل تل العمارنة . وهى تحتوى على تفصيلات مهر الأميرة تادوخيبا بنت دوشراتا ملك ميتانى وقد تزوّجها الملك أمينوفيس الثالث

(١) كانت مصر فى ذلك العهد امبراطورية تمتد من الشلال الرابع فى السودان إلى ما وراء الفرات وإلى المنطقة التى تعرف الآن باسم لواء الأسكندرونة فى آسيا الصغرى، ثم إلى أرخبيــل إيجيه فى البحر الأبيض المتوسط . وقد وجدت فى بعض القصور فى جزيرة كريت وفى بلاد اليونان أختام باسم الملكة تى يى =

(لوحة رقم ٢٣)



تمثال نصفي للملكة نفرتيتي زوجة الملك أمينوفيس الرابع أو أخناتون . وهذا التمثال موجود في متحف القاهرة وهو غير التمثال الموجود للملكة في متحف برلين



وليس المقام هنا مقام شرح هذه الثورة والأسباب التى دعت إليها و إنما يكفى أن نقول إنها أول ثورة كبيرة على الكهنة وعلى المعتقدات الدينيـة التى كانت فاشية فى ذلك الوقت، و إن من أكبر الأسباب التى حملت امينوفيس الرابع عليها رؤيته نفوذ الكهنة يطغى على نفوذ الفراعنـة و رؤيته الأموال التى تجبى للكهنة باسم المعابد والمعبودات تطغى على الأموال التى تجبى لخزانة الدولة . و يضاف إلى ذلك أن صيرورة مصر امبراطورية يمتـد حكمها إلى شعوب مختلفة فى النوبة والسودان من ناحية وفى فلسطين وسوريا وسواحل الفرات وآسيا الصغرى من ناحيـة ثانية وفى الجزر المنتشرة فى الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط من ناحيـة ثالثة، هذه الامبراطورية لا يلائمها أن تتعدد فيها المعتقدات الدينية وتتعدد المعبودات ، بل الذى يلائمها و يوحد هواها جميعا هو أن يكون لها معتقد دينى واحد ومعبود واحد، ولم يكن هذا المعبود فى نظر امينوفيس الرابع غير الشمس لأنها ترسل النور والحرارة والحياة إلى جميع أنحاء العالم فهى لهذا جديرة بأن تكون معبودا للشعوب جميعا .

ولمـا أنشأ امينوفيس الرابع أو اخناتون مدينـة خوتاتون ونقل إليهـا عاصمة الملك أنشأ فيها القصور والمعـابد ثم انتقل اليها معه رجال الدولة فبنوا فيها هم أيضا قصورا لأنفسهم، ولم تمض سنوات تعد على الأصابع حتى صارت خوتاتون تضارع طيبة فى عظمتها وجمالهـا . وكانت فى طيبـة دار تحفظ فيها المراسلات الخارجية فبنيت فى خوتاتون دار لهـذا الغرض ملحقة بقصر الملك ونقلت إليها المراسلات التى كانت محفوظة فى طيبة .

= والدة امينوفيس الرابع وزوجة أبيه الملك امينوفيس الثالث ففتح ذلك بابا للقول بأن حكم مصر امتد فى ذلك العهد إلى كريت و إلى سواحل اليونان، ولكن هـذا القول لا يزال محتاجا إلى أدلة أخرى و إن يكن من المؤكد أن نفوذ مصر الأدبى والتجارى كان شائعا إذ ذاك فى كريت وفى اليونان .

وهذه البـلاد التى ذكرناها هنا هى التى كانت مصر تحكمها حكما مباشرا، وعدا ذلك كانت توجد بلاد أخرى فى آسيا الصغرى ترتبط مع مصر بمعاهدات تشبه معاهدات الحماية .

وهـذه الدار هى بعينها التى أدّى الاتفاق بمعاول الفـلاحين من أهالى قرية الحاج قنديل إلى أن تعمل فيها فى سنة ١٨٧٧ ، وذلك الجدار السميك الذى عثر به أولئك الفلاحون وجعلوا ينقضونه حجرا حجرا ليأخذوا منه ما يصلح لمبانيهم لم يكن شيئا سوى سـور قصر الملك محيطا بالقصر و بالدار ، وذلك الطوب الذى عثروا عليه وأدركوا بغريزتهم أنه لقية أثرية لم يكن شيئا غير كتب كتبها ملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين إلى فراعنة مصر .

و بعبارة أخرى إن المنطقة التى وجد فيها الطوب كانت دارا مخصصة لمحفوظات وزارة الخارجية المصرية . وسيأتى أن الرسائل التى اشتمل عليها هذا الطوب دلت على أنه كان لهـذه الدار موظفون يتولون إدارتها وتنظيم الرسائل فيها بحيث يسهل عليهـم الرجوع إلى ما يريدون الرجـوع إليه فيها . وكان من هؤلاء الموظفين مترجمون يعرفون اللغـة البابلية وخطها المسمارى ومترجمون آخرون يعرفون لغات أخرى ليكونوا جميعا مستعدين لترجمة أية رسالة تتلقاها وزارة الخارجيـة المصرية وللاجابة عليها .

ومتى عرفنا هذا لا يسعنا إلا أن نأسف لأن الطوب الموجود الآن — وهو كما قلنا موزع بين متاحف مصر و برلين ولنـدن و باريس وڤينا — ليس سـوى نصف الطوب الذى عثر عليه الفلاحون فى تل العمارنة . أما نصفه الآخر فقد هلك فى أيدى العلماء حينما كانوا يرفضون أن يعترفوا له بقيمة أثرية وكانوا يقولون إنه تزوير مزوّر ومزح مازح . فقـد كان عدد القوالب التى وجدها الفلاحون يقرب من ستمائة فلم يبق منها غير ما يقرب من ثلثمائة . والله وحده يعلم أية خسارة خسرها التاريخ بهلاك هذه القوالب . والله وحده يعلم أيضا أية فائدة كان التاريخ يستفيدها لو أن محفوظات وزارة الخارجيـة الفرعونية وجدت سـليمة كلها ولم تعـد عليها عوادى التدمير منذ هجرت مدينة خوتاتون أى منذ ٣٤ قرنا .

*
* *

ترجم علماء اللغــة البابلية القديمة جميع الرسائل التى احتواها طوب تل العمارنة فبان فى الحال أنها ليست رسائل متفرقة بغير نظام ولا تتابع بل هى رسائل متتابعة كانت منظمة فى مستودعها على أساس هذا التتابع . فمنها ٦ رسائل من ملك بابل و ٩ من ملك ألازيا [١] ، و ٤ من ملك ميتانى [٢] ، و ٤٦ من حاكم من حكام ســوريا يسمى ريب أدى [٣] ، ونحو مائة رسالة أخرى من حاكم لمدينة اورشليم (القدس الآن) يسمى أراد هيبا [٤] ، وحاكم لمدينة فى سوريا يسمى أزيرو [٥] ، ومن غيرهما من الحكام فى سوريا وفلسطين . وهذه الرسائل كلها موجهة إلى فرعونين اثنين هما أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع . ويقــدّر العلماء المــدّة التى كتبت فيها هــذه الرسائل بخمس عشرة سنة أو عشرين سنة [٦] .

ويرى من هــذا البيان أن ملوك بابل وملوك آسـيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين كانوا فى ذلك الوقت يكاتبون فراعنة مصر بالخط المسمارى البابلى لا بالخط المصرى . وأنهم كانوا جميعا يستخدمون فى كتابتهم قوالب الطوب لا الورق الذى كان المصريون يكتبون عليــه . ومعنى هذا أن الرسول الذى كان كل واحد من أولئــك الملوك والحكام يرسله برسالة إلى مصر كان يســير بحمولة من الطوب ثقيلة ولكنه متى عاد بالجواب بعد ذلك لم يكن يحمل إلا ورقة مطوية فى قمطر .

ويحسن بنا هنا أن نقول إن مملكة بابل كانت قــد غزت سوريا قبــل أن تغزوها مصر بأجيال ولهذا انتشرت فيها العادات البابلية واللغة البابلية والخط البابلى ،

(١) ألازيا (Alasya) هى مملكة كانت توجد فى المنطقة الشمالية من ســوريا بين الساحل ونهــر أورونت وهو يسمى الآن نهر العاصى .

(٢) ميتانى (Mitanni) هى مملكة كانت واقعة فى شمالى مملكة ألازيا وهى فى المنطقة التى يوجد فيها الآن لواء الاسكندرونة .

(٣) Rib — Addi .

(٤) Arad—Hiba .

(٥) Azirou .

(٦) كتاب (Causeries d'Egypte) لماسبيرو ص ٣

فلما غزاها المصريون بعد ذلك — أى بعد طرد الهكسوس — اكتفوا بأن تخضع لهم وأن تؤدّى لهم الجزية ، ولم يحاولوا أن يفرضوا عليها لغتهم ولاعاداتهم ولا تقاليدهم ولاملابسهم ، بل تركوا لأهلها وللمالك المجاورة لهم أن يأخذوا من حضارتهم ما يريدون ويتركوا ما يريدون . وبعبارة أخرى إنهم تركوا حضارتهم تؤثر فيهم وفى غيرهم تأثيرها الطبيعى من غير أن يحملوهم على اقتباسها كرها . وقد أثرت فيهم هذه الحضارة مع الزمن تأثيرا عميقا ، ولكنها فى الوقت الذى كتبت فيه الرسائل التى نحن فى صددها هنا لم تكن قد حملتهم بعد على استبدال الكتابة المصرية بالكتابة البابلية ، واستبدال الكتابة على الورق بالكتابة على الطوب ، على الرغم مما فى ذلك من اليسر والسهولة .

وإنما اقتبست شعوب سوريا وآسيا الصغرى الكتابة على ورق البردى المصرى بعد ذلك بنحو مائة وعشرين سنة أى فى عهد رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين .

وكل من يقرأ تواريخ الأمم التى عاصرت الحضارة المصرية فى نشأتها ، أو التى ظهرت بعد دخول المدنية المصرية فى سنّ الشيخوخة ، ثم يزن مسلك هذه الأمم مع الشعوب المغلوبة لها بمسلك المصريين هذا مع الشعوب المغلوبة لهم ، لا يسعه إلا أن يعترف بأن الحكم المصرى كان حكم سياسة ولين بينما كان حكم الأمم الأخرى حكم قسوة تبلغ حدّ الوحشية . فالأشوريون مثلا ، وهم لم يظهر لهم سلطان إلا بعد دخول الحضارة المصرية فى سن الشيخوخة ، لم يكونوا يعدون للأسرى فى الحرب غير القتل مع التمثيل ، وكان من المألوف عندهم أن يعلقوا الأسرى عشرات عشرات فى خوازيق فى ميدان القتال على مرأى من أعدائهم ليوقعوا الرعب فى قلوبهم ، فى حين كان المصريون يمتنعون عن قتل الأسير[1] ، ولم يعرف عنهم أنهم قتلوا

---

(١) كتب فى هذا الموضوع جول بابيه (Jules Baillet) فى كتابه "النظام الفرعونى فى علاقاته بتطور التهذيب النفسى فى مصر".
(Le Régime Pharaonique dans ses rapports avec l'évolution de la Morale en Eg.) فى ص ١٥٩ و ١٦٠ و ١٧٠ من الجزء الأول ، فذكر أن العرف كان جاريا عند الشعوب كلها بأن للمنتصر أن يذبح الأسرى وينهب أموالهم ، بل كان جاريا بأن له أن يتصرف =

أسرى إلا فى حالات قليلة، ولم يعرف قط أنهم استعملوا فى القتل خوازيق أو أى نوع آخر من أنواع التعذيب والتمثيل .

وقد يقال هنا إن جدران المعابد المصرية تزدحم بصور الملوك المصريين والأسرى راكعون أمامهم، وهم قابضون على رؤوسهم متأهبون لضربهم، فنقول جوابا على ذلك إن هذا التصوير لم يكن المراد منه قتل الأسرى قربانا للمعبودات،

= كما يشاء فى أرواح أهالى البلاد المغزوّة وأموالهم . ولم يخرج على هذا العرف إلا المصريون، لأنهم امتازوا وحدهم — ولا سيما بعد تقدّم مدنيتهم — بمعاملة الأسرى وأهالى المدن المغزوّة معاملة إذا قيست بالعرف الذى كان جاريا كان فيها كثير من الرأفة والرفق . فهم لم يحرقوا المدن المغزوّة ولم يسلموا رجالها ونساءها وأطفالها للسيف، كما كان غيرهم يفعلون . كلا ولم يذبحوا الأسرى ولم يمثلوا بهم بل كان كل الذى فعلوه أن ساقوا هؤلاء الأسرى إلى مصر واستخدموهم، كما كانوا يستخدمون العمال المصريين فى أعمال البناء والصناعة والمناجم وأشباهها .

قال بابيه : « لم يعرف عن المصريين أنهم استخدموا التعذيب أو التفنن فى القسوة فى معاملة المغلوبين فى الحروب، كما كانت تفعل الشعوب الأسيوية . فليس فى تاريخهم شىء عن الأسرى الذين يغرزون غرزا فى الخوازيق وهم أحياء، ولا عن سمل عيونهم، ولا عن كسر أنوفهم، ولا عن صلم آذانهم، ولا عن قطع شفاههم وألسنتهم وأرجلهم وأيديهم، كلا ولا عن قتل النساء والأطفال أو حرقهم، ولا عن سلخ جلود الملوك والرؤساء وهم أحياء، ولا عن صلبهم، ولا عن ربطهم وهم أحياء بين ألواح من الخشب ثم شقهم بالمنشار » .

وقد صدق بابيه فليس فى تاريخ المصريين شىء من هذا، ولكنك تقرأ تاريخ أشور نازيربابال، وسالامانازار الثالث، وتيجلافالازار الثالث، وسارجون، وسناخريب، وأشوربانابال، من ملوك أشور، فتجد الكثير من هذه الفظائع فى معاملتهم للأسرى والمغلوبين فى الحروب .

ولقد قلنا إن المصريين قتلوا بعض الأسرى فى حالات قليلة . فمن أبرز هذه الحالات أن الملك أمينوفيس الثانى أسر كثيرا من أمراء سوريا (٥٠٠ أمير و٢٤٠ امرأة من نسائهم على ما يقول برستيد ص ٣٣٤ من الترجمة الفرنسية) الذين كانوا قد ثاروا عليه بعد موت أبيه تحوتمس الثالث، فعاد بهم إلى مصر، وعلق سبعة منهم فى مقدّم سفينته حين وصوله إلى طيبة، ثم قتل ستة من هؤلاء السبعة أمام المعبود أمون فى معبد الكرنك، وعلق رؤوسهم وأيديهم على جدران المعبد، ثم أرسل بالسابع إلى مدينة ناباتا (عاصمة النوبة) فجرى عليه فيها مثل ما جرى على زملائه .

=

ولا التمثيل بهم على نحو ما كان الأشوريون يفعلون، بل كان المراد منه التحدث بما فعله هؤلاء الملوك من قهر أعدائهم وإخضاعهم لسطانهم . وهذا شيء، وقتل الأسرى والتمثيل بهم شئ آخر .

= وقد علق بابيه على هذا الحادث فقال (ص ١٦١ من كتابه الذى مر ذكره) يجب أن يلاحظ أن هؤلاء الأمراء السبعة كانوا أسيويين وأن العادة كانت جارية فى آسيا بقتل الأسرى، بل بما هو أشنع من قتلهم .

ثم قال بابيه : على أن العلماء ليسوا متفقين جميعا على قراءة النص الخاص بهذا الموضوع ، لأن منهم من يقرأه بما يفهم منه أن أمينوفيس الثانى لم يعلق الأمراء فى سفينته أحياء، بل علق جثثهم التى كان رجاله قد التقطوها من ميدان القتال . فهو إذن لم يذبحهم ، وإنما قطع رؤوس جثثهم وعلقها على جدران الكرنك .

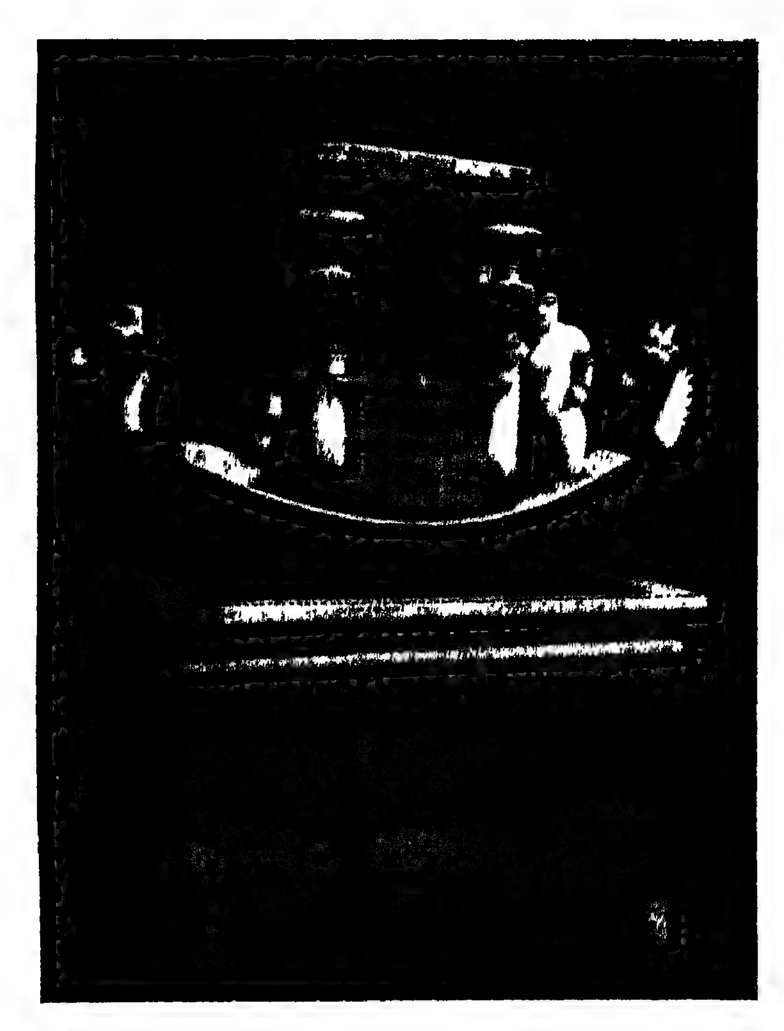
ومن هذا الرأى أيضا أرثر ويجل (Arthur Weigall) فى كتابه " تاريخ مصر " ص ١٢٧ من الترجمة الفرنسية التى مر ذكرها . وهنا يضع ويجل موازنة تلفت النظر فيقول إن التوراة تقص علينا فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر صموئيل الثانى قصة سبعة من الأمراء سلمهم الملك داود للجبعونيين ، فقتلوهم وصلبوهم قربانا لله كى تذهب بقتلهم مجاعة كانت فاشية ويحل محلها الرخاء . وقال ويجل : «إن هذا كان بعد عهد أمينوفيس الثانى بأكثر من ٤٠٠ سنة» .

ونذكر نحن هنا نص ما قالته التوراة فى ذلك . قالت :

« وكان جوع فى أيام داود ثلاث سنين سنة بعد سنة ، فطلب داود وجه الرب فقال الرب هو لأجل شاول، ولأجل بيت الدماء لأنه قتل الجبعونيين . فدعا الملك الجبعونيين وقال لهم ... ... ماذا أفعل لكم؟ وبماذا أكفر؟ فتباركوا نصيب الرب ... ... فقالوا للملك الرجل الذى أفنانا والذى تآمر علينا ليبيدنا لكى لانقيم فى كل تخوم إسرائيل ، فلنعط سبعة رجال من بنيه فنصلبهم للرب فى جبعة شاول مختار الرب . فقال الملك : أنا أعطى ... ... فأخذ الملك إبنى رصفة ... ... وبنى ميكال ابنة شاول الخمسة ... ... وسلمهم إلى يد الجبعونيين فصلبوهم على الجبل أمام الرب فسقط السبعة معا وقتلوا فى أيام الحصاد فى أولها فى ابتداء حصاد الشعير ... ... وبعد ذلك استجاب الله من أجل الأرض » .

ويقول ويجل فى هذه الموازنة إن أمينوفيس قتل السبعة الأمراء فى نفس هذه المنطقة التى كان فيها الجبعونيون، ثم حمل جثثهم إلى مصر . ويستمر ويجل بعد ذلك فيقول : =

(لوحة رقم ٢٤)



صورة مركب مصنوعة من المرمر ومطعمة بحجارة ملونة . وفى مقدمها ومؤخرها رأسان طبيعيان لحيوانين حديثى السن ثبتا فى المرمر (من مخلفات توت عنخ أمون)

*
* *

والآن نأخذ فى درس تلك الرسائل فنبدأ بالقاء نظرة عامة عليها ثم نشفع هــذه النظرة بتعريب بعض منها .

وجدت على أحد قوالب الطوب كلمــات « مكان المحفوظات من القصر الملكى » .
و وجدت فى إحدى الرسائل كلمــة يطلب كاتبهــا من فــرعون مصر أن يرجــع إلى الرسائل المحفوظــة فى مكاتبــه . فهاتان الإشارتانــ دليــل قاطع على أن المســتودع الذى وجدت فيه قوالب الطوب كان دارا لمحفوظات وزارة الخارجية المصرية .

ووجد على هامش من هوامش أحد القوالب تأشير بالخط المصرى مؤداه أن دار المحفوظات هــذه كانت فى طيبــة ثم لـا هجرها الملك أمينوفيس وطلق عبادة المعبود أمون وأنشأ مدينة خوتاتون ونقل إليها عاصمة الملك ودوائر الحكومة، نقل إليها أيضا المحفوظات الســياسية وجعل مقرّها فى دار داخلة فى قصره فى العــاصمة الجـــديدة .

ووجد فى أحد القوالب خاتم منقوش باسم «تيتو — نو، رجل، شاماس — نيكى» فهاهنا رجلان أحدهما « تيتو — نو »، والثانى « شاماس — نيكى » والثانى رجل الأوّل أى تابع له . ويرى العلماء أن الاسم الأوّل مصرى لأنه يشبه الأسماء المصرية من جميع الوجوه، والثانى بابلى لأنه يشبه الأسماء البابلية من جميع الوجوه (١) .

= « إن مصر لم تكن تعرف ذبح الآدميين قربانا للآلهة . ولكن هــذا النوع من القربان كان معروفا فى سوريا و بلاد أخرى ، فاذا صح أن الأمراء السبعة الذين جاء ذكرهم فى عهد أمينوفيس الثانى قد ذبحوا قربانا دينيا فيجب أن نرى فى ذلك مثلا من أمثلة تأثير سوريا فى الروح المصرى » .

(١) كتاب (Au Temps des Pharaons) ص ٤ ه

وعثر فلندرز بترى حينما نقب فى تل العمارنة فى سنة ١٨٩١ على اسم آخر مكتوب بالحبر على قطعة من الحجر باللغة المصرية هكذا : « الكاتب الملكى رع أبيني » ويظن بترى ، ويؤيده العلماء فى ظنه ، أن هذا الكاتب الملكى كان مديرا لدار المحفوظات أو كان على الأقل رئيسا لإدارة من الادارات فى دار المحفوظات « وأن شاماس — نيكى » ومساعده « تيتو — نو » كانا مرءوسين له .

وعثر بترى أيضا على بقايا طوب مكتوب ، فلما درسها ودرسها معه العلماء فى اللغة البابلية ، إذا هى معجم وضع ليتعلم فيه من يريد تعلم اللغة البابلية والخط المسمارى من المصريين . أو لعل هذا المعجم وضع ليرجع إليه الموظفون المصريون فى وزارة الخارجية كلما أشكلت عليهم كلمة . ووجدت على هامش قطعة من قطع هذا الطوب الكلمات الآتية « بأمر ملك مصر » فالمعنى المتبادر إلى الذهن من ذلك أن ملك مصر هو الذى أمر بوضع المعجم .

وقوالب الطوب التى فيها هذا المعجم ينقسم سطحها إلى ثلاث خانات عمودية متساوية ، الأولى فيها الكلمة باللغة المصرية ، والثانية فيها أمامها الكلمة باللغة البابلية ، والثالثة فيها أيضا نطق الكلمة فى اللغة البابلية مكتوبا باللغة المصرية . ثم تتوالى الكلمات فى الخانات الثلاث على هذا النظام .

ويقول هنا بترى إن هذا المعجم يدل على أن ملك مصر لم يكن يكتفى من الموظفين المصريين بأن يترجموا له الكلمات البابلية ، بل كان يطلب منهم فوق ذلك أن يحذقوا هذه اللغة فى نطقها وفى جميع خصائصها .

ويظهر أن ملوك مصر كانوا فى بعض الأوقات يحبون أن يعرف ملوك آسيا أن فى استطاعتهم أن يردوا عليهم بلغتهم ، ولهذا وجد كتاب طويل كتبه أمنيوفيس الثالث باللغة البابلية والخط المسمارى على قوالب من الطوب يرد به على كتاب جاءه من ملك بابل .

*
* *

وتنقسم رسـائل تل العمارنة إلى قسمين : أولهما قسم الرسائل الواردة من ملوك مستقلين ولكنهم مرتبطون مع مصر بروابط التحالف أو روابط الصداقة، وهى روابط يختفى خلفها فى كثير من الأحيان معنى الحمـاية . وأصحاب هذه الرسائل هم ملوك كاردونياش[1] وأشور[2] وميتانى ونحارينا .

والثـانى قسم الرسائل الواردة من حكام البـلاد المحكومة بمصر حكما مبـاشرا فى فلسطين وسـوريا . وبعضها وارد من مـدن فى سـوريا كانت متمتعة بالحـكم الذاتى، وكان نظام الحكم فيها جمهوريا .

ومن هـذا التقسيم يتضح، كما يقول مورى، أن سياسة الحماية المستترة بستار المحالفـة ليست اختراع العصر الحـديث بل هى سياسة كان المصريون يعـرفونها ويجرون عليها فى علاقاتهم مع بعض الأمم المجاورة لهم . ونضيف نحن أنه يتضح من هذا التقسيم أيضا، كما يتضح من الرسائل التى سيأتى تعريبها، أن نظام الحكم الذاتى ونظام الحكم الجمهورى، اللذين يعتقد كثير من الباحثين أنهما ابتداع المدنية اليونانية، ليسا من ابتداع هذه المدنية ، وإنمـا هما نظامان عرفهـما المصريون وطبقوهما على بعض المدن الخاضـعة لحكمهم فى سوريا ، قبـل أن توجد المدنيـة اليونانية بنحو ٨٠٠ سنة .

ونأخذ الآن فى درس رسائل القسم الأول وتعريب بعض منها . والمصادر التى اعتمدنا عليها فى ترجمة الرسائل كلها هى :

(أولا) مجموعات من مجلة (Journal Asiatique) فى سنى ١٨٩١ و ١٨٩٢ و ١٨٩٣ و ١٨٩٤ و ١٨٩٩

---

(١) (Kardounyash) هو الاسم الذى كانت تعرف به مملكة بابل فى ذلك الوقت .

(٢) أشور مملكة كانت على نهر الدجلة .

(ثانيـا) كتاب (Au Temps des Pharaons) لمورى من ص ٩٤ إلى ص ٨٧

(ثالثـا) الترجمة الفرنسـية لكتاب (A History of Egypt) لبرستيد من ص ٣٩٠ إلى ص ٤٠٠

* * *

(١)

كتب ملك ألازيا :

« إلى ملك مصر، وأخى، أقول : أنا ملك ألازيا، أخوك، صحتى جيـدة، وإنى أبعث بأفضل تحياتى إليك، وإلى أقاربك، وإلى خادماتك، وإلى أبنائك، وإلى زوجاتك . وأبعث أيضا بتهنئاتى لك على عرباتك[1] العديدة وخيولك كما أبعث بتمنياتى لبلادك مصر » .

وكتب ملك ميتانى :

« إلى أمينوفيس، ملك مصر العظيم، وأخى، وصهرى الذى أحبه ويحبنى أقول : أنا دوشراتا ملك ميتانى العظيم، وأخوك، وحموك الذى يحبك . صحتى جيدة، وإنى أبعث بتحياتى إليك أنت أخى وصهرى، وإلى أقاربك وزوجاتك وأبنائك ورجالك » .

ومن هذا الكتاب، ومن كلمة «حموك» التى فيه، يعرف أن أمينوفيس الثالث والد أمينوفيس الرابع الذى وجه اليه هذا الكتاب، كان قد تزوج من بنت دوشراتا ملك ميتانى .

وكتب ملك أشور :

« إلى أمينوفيس الرابع أخى أقول : أنا أشوروباليت ملك أشور، وأخوك الملك، أدعو بالسلام لك، ولأقاربك، ولبلادك » .

ويلاحظ فى هـذه الكتب الثلاثة أنها مكتوبة بأسلوب واحد وألفاظ تكاد تكون واحدة على الرغم من أن أصحابها مختلفون وأنها كتبت فى أوقات مختلفة وبلاد

(١) المقصود بالعربات هنا العربات الحربية وكانت ذات شهرة واسعة .

مختلفة . ففيها كلها تلقيب بالأخوة وإخبار بصحة الملك صاحب الكتاب ثم إهداء تحيات أو دعوات إلى ملك مصر وأقاربه وزوجاته وأبنائه . ويزيد ملك ألازيا فيهدى التحيات إلى خادماته .

وهذه الوحدة فى الأسلوب بين كتب مختلفة من ملوك مختلفين تدل على أنه كانت توجد فى ذلك الوقت قواعد وتقاليد معينة لمكاتبات الملوك، وأن هذه القواعد والتقاليد كانت تراعى بدقة ؛ وهى تسمى فى العرف الحديث «بروتوكولا» وان كانت قواعد اليوم وتقاليده غير قواعد الأمس وتقاليده .

ويؤيد وجود هذه القواعد والتقاليد فى المكاتبات أن من بين رسائل تل العمارنة صورة رسالة كتبها الملك أمينوفيس الثالث إلى ملك كاردونياش يجرى فيها على الأسلوب نفسه والنسق نفسه .



قطعتان من أرض قصر الملك امينوفيس الثالث والملكة تى بى فى طيبة وهما تمثلان طيرا من الأوز بين أزهار اللوتس

ولا يفوتنا بعد ذلك أن نوجه النظر إلى أن هؤلاء الملوك جميعا كانوا شرقيين وأنهم مع ذلك كانت تقاليدهم فى المكاتبات تسمح لهم، أو تقضى عليهم، بأن يبعث كل واحد منهم بتحياته إلى زوجات الملك الذى يكتب اليه . وقد لا يلفت النظر

كثيرا أن يبعث الملك دوشراتا بتحياته إلى زوجات الملك أمينوفيس الثالث بسبب المصاهرة التى كانت بين الاثنين، ثم لأن بنت الملك دوشراتا كانت إحدى الزوجات اللواتى يذكرهنّ فى كتابه . ولكن الذى يلفت النظر حقا هو أن ملك ألازيا يهدى هو الآخر، تحياته إلى زوجات ملك مصر، وهـذا لا يكون إلا إذا قلنا إن « البروتوكول » كان يسمح بهذه التحيات .

ولا حاجة لأن نقول بعد ذلك إن هذا النوع من « البروتوكول » اختفى من الشرق وانتقل إلى الغرب .

(٢)

وكتب الملك بورنار بورياش ملك كاردونياش إلى ملك مصر فابتدأ بديباجة كالتى رأيناها فى الكتب السابقة ثم قال :

« لقد انحرفت صحتى منذ اليوم الذى جاء فيه رسول أخى . ولم يشجعنى أخى فى طول المدة التى بقيت صحتى فيها منحرفة . ولهذا استأت من أخى وقلت : ألم يسمع أخى أنى مريض . لماذا لم يبعث لى رسولا ولم يظهر اهتماما بى .

« وقد أجاب رسول أخى على ذلك بقوله : إن مصر ليست قريبة لكى يسمع أخوك بمرضك ويرسل إليك رسولا يستعلم أخبارك .

وفى الواقع انى استفهمت بعد ذلك من رسولى فقال لى : « إنها رحلة طويلة جدّا » . فمـذ سمعت ذلك لم يبق فى نفسى استياء من أخى » .

ففى هـذه الرسالة نرى ملك بابل يتحرّق شوقا إلى كلمة طيبة تأتيه فى مرضه من ملك مصر، ولا يكاد يصبر على هذا الشوق إلا بعد أن يعلم أن الشقة بين البلدين بعيدة وأن ملك مصر معذور لهـذا السبب إذا هـو لم يرسل إليه يستعلم أخباره . وفى هـذه الرسالة نوع من الجهل يستوقف النظر هو أن ملك بابل لم يكن يعرف بعد ما بين بلاده ومصر إلا بعد أن سأل فى ذلك رسول مصر ثم رسوله .

وأسلوب الكتابة فى هذا يلفت النظر لأنه يكرر كلمة «أخى» ست مرات فى سبعة أسطر فهو يشبه أسلوب التوراة الذى أشرنا إليه فى تعليقنا على «قصة الغريق» .

(لوحة رقم ٢٥)



كرسى عرش الملك توت عنخ أمون مصنوع من الخشب المذهب . وقد رسمت على مسنده الملكة واقفة أمام الملك

(٣)

وكتب دوشراتا ملك ميتانى الذى تقدم ذكره إلى أمينوفيس الرابع يصف له الحزن الذى استولى عليه حينما جاءه الخبر بوفاة أمينوفيس الثالث، فقال :

« حينما أشرف والدك على الموت ... فى ذلك اليوم بكيت وسقطت مريضا وأشرفت على الموت ... ولكنى علمت بعد ذلك بأن أكبر أنجال الملك أمينوفيس والملكة تى يى جلس على العرش ... وقد قلت حينئذ أن أمينوفيس لم يمت ... » .

هذا الكتاب مبتور لم توجد منه غير الكلمات التى عربناها هنا، ولكن الباقى منه كاف للدلالة على المعنى المقصود منه .

والقارئ يذكر من غير شك أن دوشراتا كان حما الملك أمينوفيس الثالث . فهو هنا يعبر عن الحزن الذى استولى عليه حينما بلغه موت زوج ابنته .

ويذكر الملك دوشراتا فى كتابه هذا الملكة تى يى زوجة أمينوفيس الثالث، وأمر هذه الملكة مشهور فى كتب التاريخ لأنها كانت ذات نفوذ كبير على زوجها وكان لها أثر ظاهر فى سياسة الامبراطورية المصرية، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنها بنت الملك دوشراتا التى تزوج بها أمينوفيس الثالث ، وأنها لذلك تكون سورية الأصل . وبنوا على هذا زعما آخر هو أن الثورة الدينية التى ثارها أمينوفيس الرابع على عبادة أمون كانت بتأثير أمه تى يى فى نفسه ، وإذن تكون هذه الثورة راجعة فى كثير منها إلى عوامل سورية .

ولكن ماسبيرو أثبت من مومياء الملكة تى يى[١]، ومن تابوتها، ومن النقوش التى وجدت عليه، ثم من قبر والد هذه الملكة، أن هذا القول خطأ وأن تى يى مصرية، لم تكن من الدم الملكى بل كانت من عامة الشعب، فأحبها الملك وجعلها زوجته الأولى، وهى أم أمينوفيس الرابع .

وقول دوشراتا « إن أمينوفيس لم يمت » لأنه يحيا فى ابنه، هو من الأقوال التى ما زالت إلى وقتنا هذا متداولة بين الكتاب .

(١) كتاب (Causeries d'Egypte) ص ١٤٨

(٤)

هـذا الكتاب الذى نعرض له هنا لم يعرف كاتبه لأن ديباجته مبتورة ولكن الباقى منه ذو أهمية سياسية . وهو موجه إلى أمينوفيس الرابع . وهذا نصه :

« ... والآن يامليكى وقـد جلست على عرش أبيك فلنتبادل ، أنا وأنت ، الصداقة الدائمة كما كنت أتبادل مع أبيك الهدايا . فاقبل هذه الأمنية التى كنت قد وجهتها إلى أبيك ، ولنعمل معا على تحقيقها بيننا » .

فكاتب هذا الكتاب لابد أن يكون واحدا من ملوك البلاد المستقلة ، لا واحدا من حكام سوريا ، لأنه يطلب تبادل الصداقة . ولكنه مع ذلك يخاطب ملك مصر بقوله « يامليكى » رغبة منه فى استمالة قلبه . وهو يلح فى تبادل الصداقة والهدايا ويسمى هذا التبادل « أمنية » له . لأن صداقة مصر كانت فى ذلك الوقت أعز أمنية يسعى إليها الملوك .

ويغلب على الظن أن صاحب هـذا الكتاب هو ملك بابل لأن فى الكتب الآتية كتبا منه تتفق مع هذا الكتاب فى معناه .

(٥)

بهذا الكتاب الذى نعرض له الآن ندخل فى صميم المكاتبات السياسية ، ونرى كيف كان كل من ملك بابل وملك أشـور يتنافسان فى اكتساب عطف مصر والتحالف معها .

كتب بورنا بورياش ملك بابل الذى تقدّم ذكره إلى الملك أمينوفيس الرابع فقال بعد الديباجة :

« حينما كان والدى كوريجالزو حيا أرسل إليه ملك كنعان رسـولا قال له : « هيا فلندخل مدينـة كارميشات ، ولنحارب فرعون معا » . فبعث إليه أبى يقول : « لا تفكر فى الاتفاق معى . فان كنت تريد معاداة ملك مصر فابحث لك عن حليف غيرى . أما أنا فانى لا أسير فى هذا ولا أدمر بلاد ملك مصر لأنه حليفى » . وهكذا رفض والدى أن يصغى إلى ملك كنعان حبا فيك .

« والآن فان ملك أشور تابع لى . ولست فى حاجة لأن أقول لماذا هو يطلب صداقتك . فان كنت تحبنى فلا تعقد معه أية معاهدة واطرده بعيدا جدا » .

وإذن كان ملك أشـور وملك بابل يتسابقان إلى التحالف مع ملك مصر لأن كلا منهما كان يرى فيه أمانا لنفسه وعضدا لبلاده . ولم يكن ذلك فى عهد الملك بورنابورياش فقط، بل كان فى عهد أبيه من قبله أيضا، وكان أبوه هـذا يقول لمن يدعوه إلى معاداة ملك مصر : « ابحث لك عن حليف غيرى » .

ولعل القارئ يرى من فحوى هـذا الكتاب ما يؤيد الظن الذى ذهبنا إليـه إذ رجحنا أن يكون الكتاب السابق الذى لم يعرف صاحبه صادرا من ملك بابل .

وبعد هذا لابد من سؤال وهو : ماذا فعل ملك مصر فى هاتين اليدين اللتين مدتا إليه من ملك أشور وملك بابل ؟ .

إن من حسن الحظ أن فى استطاعتنا أن نجيب على هـذا السؤال لأن ما عثر عليه من محفوظات وزارة الخارجية المصرية يسمح لنا بالجواب .



قطعة من سقف غرفة فى قصر الملك أمينوفيس الثالث والملكة تى بى فى طيبة

والجواب أن أمينوفيس الرابع — أو أخناتون — حالف كلا من الملكين ، ولم يقبل أن يكون لواحد منهما على الآخر، وقد رضى الملكان بذلك .

(٦)

إلى هنا رأينا كيف كانت تكتب ديباجة الرسائل بين الملوك ، ثم رأينا نوعا من هذه الرسائل دل على أن ملوك البلاد المجاورة للامبراطورية المصرية كانوا يحرصون على أن ينالوا شرف الارتباط برباط المحالفة أو الصداقة مع ملك هذه الامبراطورية .
فالآن نخوض فى نوع آخر من الرسائل خاص بمصاهرة ملك مصر لأولئك الملوك وما كان لهذه المصاهرة من التأثير فى العلاقات السياسية .

كانت هذه المصاهرة تعتبر متممة لمعاهدات التحالف ، فكان ملك مصر يرى أن زواجه من بنت الملك المجاور له أو من أخته — وفى بعض الأوقات منهما معا — ضمان على أن هذا الملك لا يخرج عليه . وكان هذا الملك يرى من ناحيته أن هذا الزواج نفسه ضمان له على أن يبقى متمتعا برعاية ملك مصر . ولهذين السببين نجد ذكر المصاهرة يتردّد فى كثير من رسائل تل العمارنة .

وقد رأينا فيما تقدّم أن الملك أمينوفيس الثالث صاهر الملك دوشراتا ملك ميتانى بأن تزوج بنته وأخته ، فنضيف هنا إلى ذلك أن زواج هذه الأخت لم يكن سهلا على ما يظهر لأن أمينوفيس الثالث طلبها ست مرات حتى أعطيت له . ولسنا نعرف أيهما هى التى تزوّجها قبل الأخرى .

وكما تزوّج أمينوفيس الثالث أخت ملك ميتانى وبنته تزوّج أخت الملك « كاليماسن » ملك بابل فى عهده ، ثم طلب أن يتزوّج بنته وكانت تسمى « زوهارتى » وتردّد أبوها ودارت فى ذلك رسائل عدّة .

وليست هذه الرسائل موجودة كلها ولكن ما هو موجود منها يدل على باقيها . فقد وجدت رسالة من أمينوفيس الثالث إلى « كاليماسن» يقول فيها :



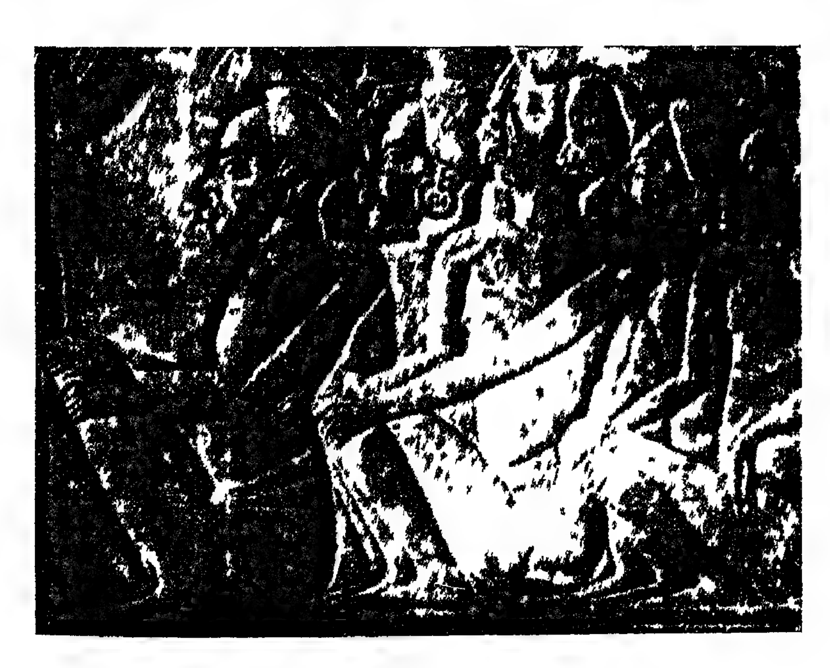
أسرى أسيويون فى مصر . وهم يعرفون بلحاهم وملابسهم الثقيلة . وفى مؤخرتهم أسيرة سورية تحمل طفلها على كتفها . وهم موثقو الأيدى . ويقودهم مصريون . وفى الصف الأدنى أسرى أسيويون أيضا . (أنظر صفحة ١٨٥)

« ... اطلعت على الأقوال التى بعثت بها إلى . إنك تقول لى : كيف تطلب بنتى للزواج منك على حين أن أختى التى أعطاك إياها والدى لا تزال عـندك ، وما من أحد رآها بعد أن زوّجت منك ، فليس معروفا هل هى الآن حية أم ماتت » .

وهناك رسالة من « كاليباسن » يرد بهـا على أمينوفيس فيـذكره بأنه كان قد أرسل رسولا يرى هل أخته لا تزال حية أم ماتت، وأمر أمينوفيس بادخاله قصره فأدخل إلى حيث نساء القصر مجتمعات وقيل له « ها هى سيدتك بين هؤلاء » فلم يميز الرسول واحدة منهنّ ولم يعرف من هى سيدته .

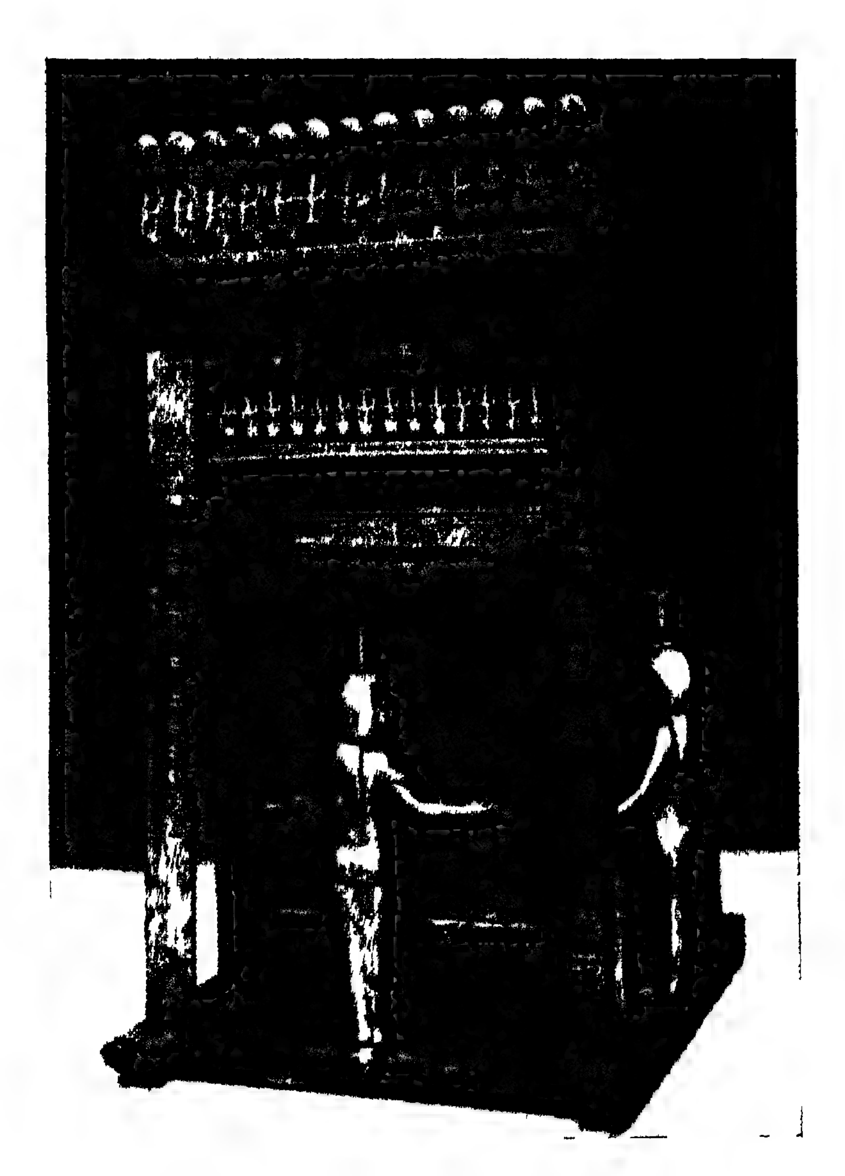
وعلى هذه الرسالة أجاب أمينوفيس الثالث فقال :

« .إنك لم ترسل رسولا كفؤا عرف أختك من قبل وحادثها ليمكن أن يعرفها الآن و يتحدّث معها . بل الرسل الذين جاءوا من عندك كانوا من طبقة وضيعة . و يكفى أن أضرب لك مثلا رسولك « راحارا » الذى هو راعى ماشية قليلة . وليس بين رسلك واحد كان قد اقترب من أبيك » .

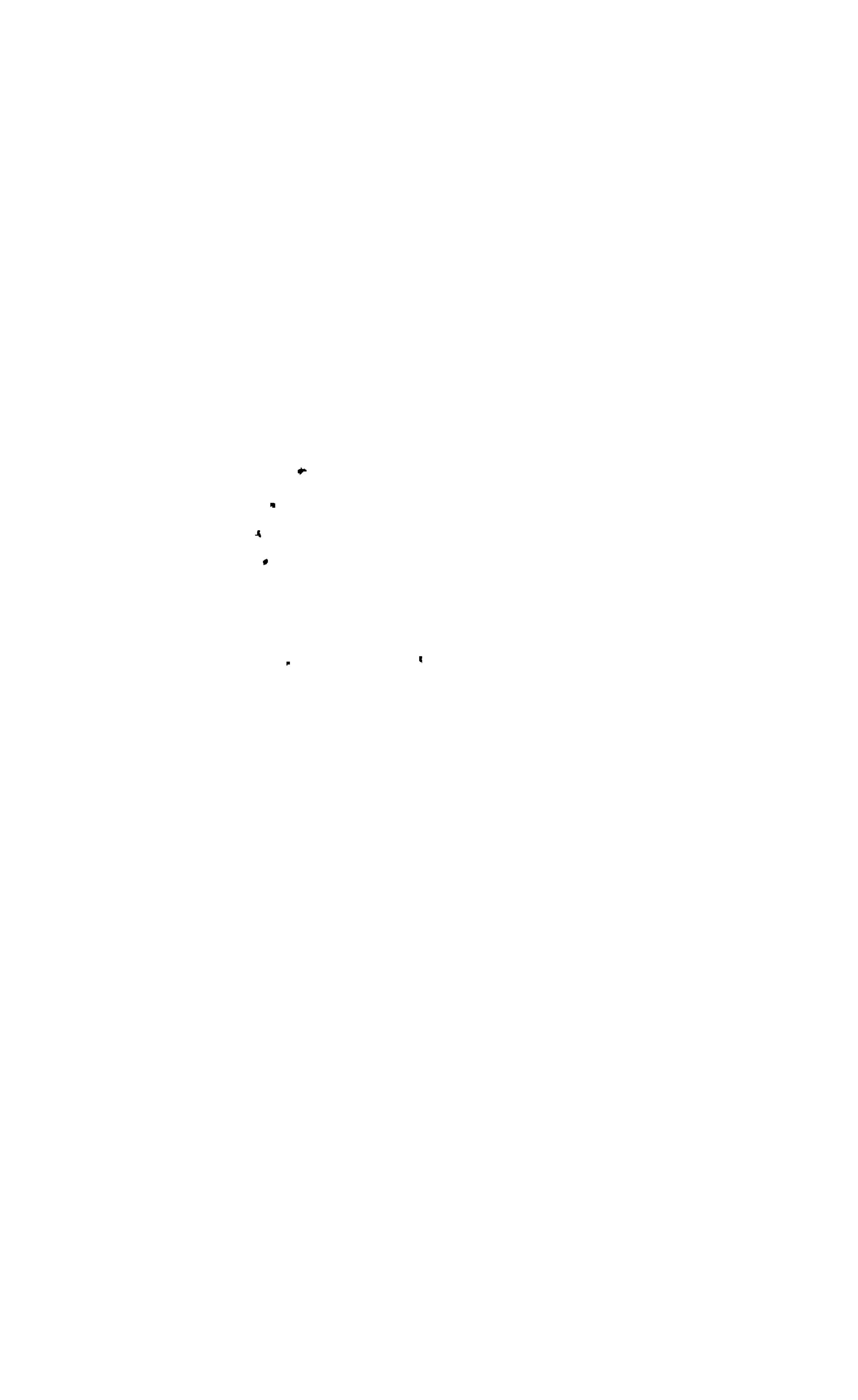


أسرى نوبيون فى مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة (اطرص ١٨٥)

(لوحة رقم ٢٦)



صندوق لحفظ أحشاء الميت مصنوع من الخشب المذهب وتحيط به المعبودات إيزيس ونفتيس ونيت وسلكت .
وهذه المعبودات مصنوعة من الخشب المذهب (من مخلفات توت عنخ أمون)



فرد كاليناسن فقال :

« إنها أية امرأة من بنات النبلاء هى التى رآها رسلى عندك . إذ من يقول لهم إنها أختى » .

فرد أمينوفيس فقال :

« هب أن أختك ماتت فلماذا أخفى موتها عنك » .

هذا ما فى رسائل تل العمارنة عن زواج أمينوفيس الثالث . أما ما فيها عن زواج ابنه أمينوفيس الرابع فهو أن أمينوفيس هذا طلب الأميرة «تادوخيبا» إحدى بنات الملك دوشراتا ، أى نفس الملك الذى كان أبوه قد تزوج من أخته ومن إحدى بناته ، فأجاب دوشراتا على عجل يقول :

« تطلب ابنتى؟ إنى أعطيك إياها » .

ولم يكن أمينوفيس الرابع قد تولى الملك حينما طلب هذا الطلب ، بل كان لا يزال أميرا وكان أبوه لا يزال حيا . والذى حمل هذا الطلب من مصر إلى مملكة ميتانى هو سفير مصرى يسمى « مانى » وحمل معه هدايا وكتابا من أمينوفيس الثالث يقول فيه :

« إن ما أبعث به إليك الآن من الهدايا ليس شيئا ... فان أنت أعطيت الفتاة التى أطلبها فسأبعث إليك بهدايا أكثر » .

وبعد أن قابل دوشراتا هذا السفير وقبل الهدايا التى حملها إليه كتب إلى أمينوفيس الرابع يقول :

« إن صداقة متينة تربطنى بوالدك ، فالآن ستكون محبتى لك ؛ أنت ولده ، أمتن » .

وفى إحدى الرسائل — أو بعبارة أخرى فى أحد قوالب الطوب المحفوظة الآن فى متحف برلين — بيان طويل بمهر الأميرة « تادوخيبا » هذه التى تزوجها أمينوفيس الرابع .

ويظهر أن دوشراتا كان يطمع فى هدايا جمة من وراء هـذا الزواج، وأنه لم يكتف بمـا جاءه منها، ولهذا جعل يشكو فى إحدى رسائله من أن الهدايا التى وعد بها لم تصل إليه .

(٧)

وكانت الأميرة التى يتزوّجها ملك مصر تخـرج من بلادها فى جمع كبير، بل فى جموع كبيرة، من النساء والخدم . وكان هؤلاء النساء والخدم يرافقونها إلى مصر ويقيمون معها حاشية لها مدة من الزمن . فقد وجد منقوشا على جعران من عهد أمينوفيس الثـالث أن ٣١٧ إمرأة رافقن « كيلاجيبا أميرة ميتانى » التى تزوّجها أمينوفيس الثالث .

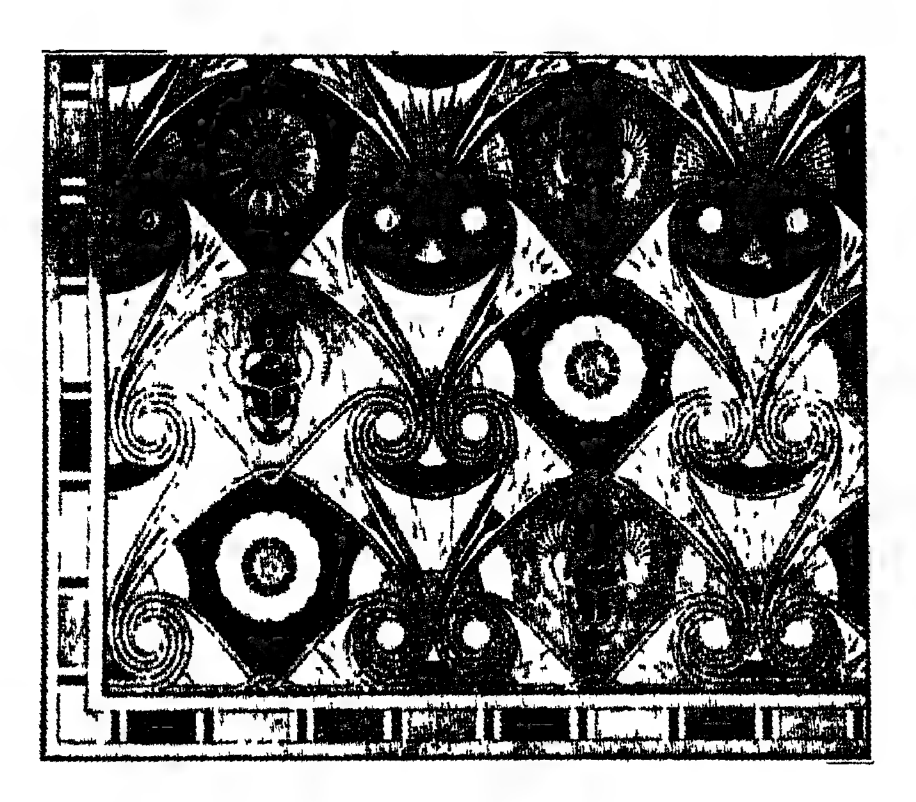
وقد مر أن أمينوفيس الثالث تزوّج أخت الملك دوشراتا وبنته، فالأميرة كيلاجيبا هذه هى إحدى هاتين الزوجتين .



قطعة من أرض القصر الذى بناه لنفسه الملك أخناتون (أمينوفيس الرابع) فى مدينة أخيتاتون (تل العمارنة)

وكان من العادات المألوفة فى ذلك الوقت أن تصنع جعارين باسم عروس الملك كلما تزوج . وكان نساء الأغنياء يتخذن من هذه الجعارين حليا لهنّ . ولهذا وجدت جعارين باسم الملكة تى يى حينما تزوّجها أمينوفيس الثالث . ووجدت جعارين باسم كيلاجيبا التى تقدّم ذكرها . ووجدت جعارين باسم غيرهما .

وليتصوّر القارئ بعد ذلك ٣١٧ امرأة قادمات مع كل عروس من بنات الملوك المجاورين لمصر تزف إلى فرعون . وإذا كان عدد القادمات من النساء ٣١٧ فكم يكون عدد القادمين من الرجال والغلمان لخدمتها وخدمتهن جميعا !؟ . وإذن ليتصوّر القارئ كيف يكون القصر أو تكون القصور التى يجب أن يقيم فيها هؤلاء الجموع مع أميرتهم !



سقف قبر لرجل من الكبراء يسمى راميس بالقرب من طيبة (الأسرة الثامنة عشرة)

وليس ريب فى أن أكثر هؤلاء النساء والرجال كانوا يعودون إلى بلادهم بعد أن يحضروا حفلة الزفاف وبعـد أن يقيموا بالقرب من أميرتهـم وقتا ما ، ولكن ليس ريب أيضا فى أن بعضا منهم كانوا يستوطنون مصر معها .

*
* *

رأينا فراعنة مصر يتزوجون بنات الملوك المجاورين لهم وأخواتهم ، فهل كان هؤلاء الملوك يتزوجون من بنات الفراعنـة وقريباتهم ليتم التبادل بين الفريقين ، أم لم يكن هذا التبادل موجودا ؟

هذا السؤال تجيب عليه رسالة كتبها ملك بابل إلى أمينوفيس الثالث وفيها يقول :

« حينما طلبت يد ابنتك أرسلت إلى تقول : « لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر إلى أجنبى »[1] فلما بلغتنى هذه الكلمات أرسلت إليك أقول : « إذا أنت بعثت بها إلى وأنت آسف فخير عندى أن لا تبعث بها » . إنك لا تنظر إلى بعين العطف الأخوى ، وأنت تعلم مع ذلك أنك حينما كاشفتنى برغبتك فى أن تعقد بينى و بينك رباط زواج أجبتك إلى ما تريد وأظهرت فى ذلك كل الطيبة التى يكنها أخ لأخيـه . والآن يا أخى ، وقد كاشفتك برغبتى فى رباط زواج بينى و بينك لماذا تأبى بنتك على ؟ لماذا ترفض أن تعطيها لى ؟ لو أننى كنت قـد رفضت إجابتك إلى رغبتك لكان الرفض من جانبك الآن مفهوما . ولكن بناتى كن رهن أمرك ، وأنا لم أرفض لك طلبا » .

وقد علق الأستاذ مورى على هذه الرسالة فقال إن الفراعنة كانوا يأبون بناتهم وأخواتهم على حلفائهم ملوك آسيا ، لأنهم كانوا يرون أن بنات « الدم المقدّس » أرفع من أن يهبطن إلى مضاجع هؤلاء الملوك .

---

(١) النص الفرنسى الذى لدينا لهذه الفقرة من هذا الكتاب هو :

Jamais la fille du roi d'Egypte n'a èté donnée à personne.

وتعريبها الحرفى هو :

« لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر إلى أحد » .

ولكننا وجدنا كلمتى « إلى أحد » هنا لا تدلان على المقصـود . إذ بنات ملوك مصر كن يتزوجن فى مصر فالقول بأنهن لم يعطين قط إلى أحد هو قول لا يمكن أن يكون مرادا للملك أمينوفيس الثالث . وإنما المراد أنهنّ لم يعطين لأحد من الأجانب . وسياق الرسالة كلها يجعل هـذا المراد متعينا . وأغلب الظن أن هنا خطأ فى الترجمة من اللغة البابلية .

⁂

ومما يظهر ظهورا جليا فى رسائل تل العمارنة أن الملوك المجاورين للامبراطورية المصرية كانوا يلحون على فرعون فى طلب هدايا من الذهب فيقولون مثلا : « إرسل لى ذهبا ... سأبعث إليك بمن يأتينى بالذهب من عندك ... لقد كان أبوك يرسل إلى أبى كثيرا من الذهب ... فيجب أن ترسل لى مثل ما كان أبوك يرسل إلى أبى » .

وكان من الأقوال الشائعة فى الممالك الأسيوية إذ ذاك « أن الذهب عند ملك مصر كثير كتراب الأرض » .

ومن الكتب التى كتبها الملك بورنابورياش إلى أمينوفيس الرابع كتاب يقول فيه :

« جاء الرسول الذى بعثت به إلىّ ومعه عشرون وزنة من ذهب غير نقى ، فلما وضعت فى البوتقة لم يخرج منها سوى خمس وزنات من ذهب نقى » .

ويظهر الملك بورنابورياش ألمه من ذلك ويطلب إرسال ذهب آخر . وفى كتاب آخر يقول الملك بورنابورياش :

« إن سبائك الذهب التى لم يفحصها أحى قبل إرسالها إلى ، بعثت بها لتذاب فى البوتقة فردّوها إلىّ ولم يقبلوها » .

وفى كثير من كتب الملك دوشراتا ، ملك ميتانى ، يتردّد أيضا الإلحاح فى طلب الذهب من ملك مصر .



إلى هنا فرغنا من الرسائل الخاصة بالملوك المجاورين للامبراطورية المصرية ، فنأخذ الآن فى درس الرسائل الخاصة بحكام فلسطين وسوريا .

كانت فلسطين وسوريا فى الوقت الذى كتبت فيه رسائل تل العمارنة جزءا من الإمبراطورية المصرية . ولم تكونا ولاية واحدة أو ولايتين بل كانتا ولايات عدة يحكم كل ولاية منها حاكم مولى من قبل فرعون فهو يحكم باسمه و يدفع له الجزية . وكان هذا الحاكم يسمى "خازانو" . و يذهب بعض العلماء الذين كتبوا فى هذا الموضوع إلى أن حملة هذا الاسم لم يكونوا مصريين بل كان الفراعنة يختارونهم من الأسر القديمة ذات النفوذ فى البلاد التى هم حكام عليها ، وكثيرا ما كان الفراعنة يفتحون المدن فيتقدم لهم حكامها بالطاعة والولاء فيقرونهم فى حكوماتهم .

ولكن الفراعنة كانوا يطلبون من هؤلاء الحكام أن يرسلوا أبناءهم إلى طيبة ليتعلموا فيها ثم ليكون وجودهم فى الحاشية الفرعونية ضمانا — إلى حد ما — على ولاء آبائهم . فاذا توفى هؤلاء الآباء خلفهم أبناؤهم الذين تربوا فى الحاشية الفرعونية . وعلى هؤلاء أن يرسلوا إلى مصر أبناءهم ليتربوا مثل تربيتهم .



سيدات مصريات فى حفلة . وترى المائدة وعليها أصناف المأكولات ، وفتاة تقدم لإحدى السيدات إناء صغيرا فيه شراب ، وإحدى السيدات تلتفت إلى جارتها وتقدم لها زهرا ذا رائحة زكية

(هذه اللوحة موجودة فى المتحف البريطانى بلندن)

(لوحة رقم ٢٧)



تمثال للملك رمسيس الثانى من الجرانيت الأسود
(بمتحف تورين)

وكان يوجد بجانب "الخازانو" مندوبون عن فرعون يراقبون سير الحكومات ويبلغون أوامر فرعون إليها . وهؤلاء المندوبون كانوا مصريين وكان اختصاص الواحد منهم يشمل فى بعض الأوقات عدة مدن وعدة حكومات . وكان فرعون يشير إليهم فى رسائله فيقول إنهم "عيون الملك وآذانه فى البلاد الأجنبية" . وهذا تعبير لا يزال مستعملا إلى اليوم (١) .

وكان هؤلاء المندوبون مرهوبى الجانب حتى كان أحد الحكام "الخازانو" يكتب إلى فرعون فيقول :

« ليسأل مولاى الملك جميع مندوبيه يعرف إلى أى حد أنا خادم له أمين » .

وكان غيره يكتب فيقول :

« ليسأل مولاى مندوبه يعرف هل ما أقوله صدق أم كذب » .

ولم تكن المدن كلها محكومة بهذا النوع من الحكم ، بل كانت توجد مدن لها حكم من نوع آخر، يشبه الحكم الجمهورى (٢) ومن هذه المدن مدينة "أراد" ومدينة "تونيبو" ولهذا سيأتى أن أعيان كل واحدة من هاتين المدينتين كانوا يخاطبون فرعون ويعرضون عليه فى رسائلهم ما يعرضونه من شؤون مدينتهم .

ولما كان الحكم الجمهورى لا يتحقق إلا بأن يكون هناك نوع من الاستقلال، كانت كل واحدة من هاتين المدينتين حاصلة فى عهد أمينوفيس الثالث وأمينوفيس

(١) ذكر فى حجر محفوظ فى متحف اللوفر يسمى « حجر انتيف » اسم ضابط بالقصر الملكى كان مناديا فوصف بأنه « لسان الملك » .

وفى أحجار أخرى وصف أشخاص أنفسهم بأنهم « عينا الملك » أو « عينا الملك فى الأرض كلها » أو « عينا الملك اللتان تنفذان إلى الأحشاء » .

ويقول المؤرخ اليونانى كزينفون (Xénéfon) إن ملوك الفرس كانوا يوفدون ضباطا يجولون فى الولايات الواقعة تحت حكمهم ويراقبون أعمال الولاة فيها ، وإن هؤلاء الضباط كانوا يسمون « عينا الملك وأذناه » .

وواضح أن المصريين هم أول من استعمل هذا النوع من التعبير .

(٢) كتاب (Au temps des Pharaons) لورى ص ٦١

الرابع — أى فى العهد الذى كتبت فيه رسائل تل العمارنة — على ما يسميه الانجليز الآن (Self government) أو الحكم الذاتى .

ولهـذا قلنا فى ما تقدم إن المصريين عرفوا نظام الحكم الجمهورى الذى يظن كثير من الناس أنه لم يعرف قبل المدنية اليونانية . نعم إنهم طبقوه فى بلاد أجنبية ولم يطبقوه فى مصر، ولكنهم عرفوه على كل حال . وهم قد عرفوا أيضا نظام الحكم الذاتى الذى يظن كثيرون أنه من اختراع العصور الحديثة .

ولست أنا الذى أقول هذا فأؤدى به شهادة لوطنى ، بل يقوله قبلى مورى ، فى كتابه الذى أشير اليه فى هامش الصفحة السابقة .



وأول ما يبرز فى رسائل الحكام (أى الخازانو) هو إظهار العبودية فى ألفاظ ومعان ليست مألوفة لأبناء العصور الحديثة . فواحد منهم يكتب :

«أنا خازانو مدينة ... ... خادمك ، وتراب قدميك ، والأرض التى تدوسها وخشب المقعد الذى تجلس عليـه ، وكرسى قدميك (١) ، وحافر جوادك . إننى أتمرغ سبع مرات بطنا لظهر فى تراب قدمى الملك ، مولاى ، وشمس السماء » .

وحاكم آخر يكتب : «أنا خادم الملك ، وكلب بيته . إننى أحفظ البلد هنا لمولاى الملك» .

وحاكم ثالث يسمى نفسه «خادم جواد فرعون» .

فى مثل هذه الألفاظ كان كثير من الحكام يكتبون . فملك مصر ليس سـيدا فقـط بل هو إله وشمس، والحاكم لا يتقدم إليـه بأقل من أن يكون تراب قدميه وحافر جياده والمتمرغ سبع مرات بطنا لظهر فى تراب قدميه .

ويحسن أن نقول هنا إن فرعون كان ملكا وسليل آلهـة فى آن واحد، وإن الشمس كانت أحد الآلهة المصرية ، فالمعبود رع هو الشمس، والمعبود أمون هو

(١) المراد بكرسى القدمين هنا الكرسى الصغير الذى يوضع أمام الكرسى العادى ليضع الجالس قدميه عليه . ويرى من ذلك أن هذا النوع من الكراسى كان مستعملا فى مصر فى ذلك الوقت .

الشمس، والمعبود أتون هو قرص الشمس ، والفراعنة كانوا أبناء الدم الشمسي، فليس مستغربا أن يخاطب الحاكم فرعون فيقول إنه إلهه وشمسه .

ويحسن أن نقول أيضا إن «بروتوكول» المقابلات لفرعون كان يجعل الناس طبقات . فمنهم من إذا أذن لهم بالدخول إلى مجلسه كانت تحيتهم له أن يخروا إلى الأرض أمامه . ومنهم من كانوا يحنون انحناء الركوع . ومنهم من كانوا يكتفون بأن يحنوا رؤوسهم . وكان أغلب حكام سوريا يندمجون فى الطبقتين الأولى والثانية .



ومن رسائل تل العمارنة رسالة كتبها حاكم صيدا فقال فيها :

« أخبر مولاى الملك أن عبدته التى جعلها وديعة فى يدى، وهى مدينة صيدا ، هادئة . وحينما وصل إلى الأمر الذى أرسله مولاى الملك امتلأ قلبي فرحا . وقد رفعت رأسي وفاض النور على وجهي وعيني حينما قدم أمر مولاى الملك ... إن خادمك يبعث إليك مائة ثور، و يبعث أيضا رقيقات . وهذا إخبار بذلك للملك مولاى وشمس السماء » .

فهذه الرسالة تدل على أن الجزية التى كان حكام سوريا يرسلونها إلى فرعون كانت تختلف باختلاف البلدان . فهى لبعض منها مصنوعات من المعادن الكريمة كما يرى فى كثير من النقوش التى على الآثار المصرية، ولبعض آخر ثيران ورقيقات .

وكتب حاكم آخر فقال :

« أرسل إلى مولاى الملك ، وشمس السماء، الرسول «هامايا» فها، نذا أقول : لقد أصغيت لأمر الملك بأعظم اهتمام ... وقد سرت أنا وجنودى وعرباتى و إخوتى إلى مقابلة رماته فى المكان الذى عينه الملك » .

فيؤخذ من هذا أنه كان على الحاكم واجب نحو كل رسول لفرعون يجتاز أرضه ، وهذا الواجب أن يرافقه فى أرضه بجنوده لأجل مساعدته ، اذا دعا الأمر إلى مساعدة .

أما إذا كان فرعون نفســه هو الذى يجتاز أرضا فى سوريا فان ما يفعله حاكم هذه الأرض يظهر من الرسالة الآتية :

« حينما علمت أن الملك عائد بجنوده العديدين إلى بلاده أرسلت إلى جيشه العظيم كثيرا من الماشية وكما من الزيت » .

فاذا كان الحاكم فقيرا أو كانت بلاده فقيرة فانه يقــدم ما يقدر عليه ثم يعتــذر فيقـــول :

« ليبعث مولاى الملك من يأخذ الزيت . فليس عندى خيول ولا عربات أسير بها إلى مقابلة الملك ، وقد أرسلت ابنى إلى بلاد مولاى الملك » .

ويلاحظ فى هــذه الرسالة ، كما يلاحظ فى الرسائل الأخرى ، وكما يلاحظ فى رسائل ملوك بابل وأشور وألازيا وميتانى التى مرت ، أن أصحابها قلما يستعملون ضمير الغائب حينما يشيرون إلى فرعون ، بل هم يكررون فى كل مناسبة كلمة «الملك» أو كلمتى « مولاى الملك » أو كلمة « أخى » .



وكانت الخصومات بين حكام سوريا قائمة قاعدة فكان بعضهم يعتــدى على أراضى البعض الآخر ورجاله ، وحينئذ كان كل من المعتدى والمعتدى عليه يسارع فيشكو إلى فرعون ويطلب منه نجدة .

كتب أحدهم فقال :

« ليعلم مولاى الملك أن النهابين آثاروا هذه المدن ضدّى ... إننى الآن أشبه طائرا فى فخ أو فى قفص ... ليرسل لى مولاى رماة مصريين » .

ولم تكن النجدات التى يطلبها هؤلاء الحكام كثــيرة ، فحاكم « مجدو »(١) يطلب راميين اثنين ، وحاكم « تير »(٢) يطلب عشرين ، وحاكم « ببلوس » يطلب أربعــة ومعهم عشرون عربة . ولا تزيد أعظم نجدة طلبها واحد منهم على مائتين .

(١) Mageddo (٢) Tyr

ويقول مورى هنا إن هذه الطلبات تدل على أن ملوك مصر لم تكن لهم فى سوريا حاميات مصرية . ويخالفه فى ذلك برستيد فيذكر أنهم كانت لهم حاميات . وربما كان الصواب أن الحاميات كانت موجودة ولكنها لم تكن فى كل مدينة ولا عند كل حاكم ، بل كانت فى أماكن قليلة متباعدة ، فلم يكن من السهل أن يلجأ الحكام إليها كلما اختصموا وهم فى كل يوم يختصمون ، وكان من الضرورى مع ذلك أن يلجأوا إلى فرعون لأن الحاميات لم يكن لها أن تنصر واحدا منهم على آخر بغير أمر منه . وفى بعض رسائل تل العمارنة ما يؤيد رأينا هذا .

وعلى كل حال فان الشواهد تدل على أن قلة الحاميات المصرية فى سوريا كانت نقطة من نقط الضعف فى الحكم المصرى . وأن هذه القلة كانت السبب فى احتياج الفراعنة إلى سوق الجيوش من وقت إلى وقت لاطفاء ثورة أو لرد هجوم على الحدود او لغير ذلك من الأعمال الحربية .



والآن ننتقل إلى مأساة تدل عليها رسائل تل العمارنة وهى انحلال الأطراف الأسيوية من الأمبراطورية المصرية فى عهد أخناتون بسبب انصرافه إلى ثورته الدينية وانقسام البلاد من جراء هذه الثورة .

حينما صعد أمينوفيس الرابع إلى العرش كانت مملكة فى آسيا الصغرى تسمى مملكة خيتاس أو مملكة الحيثيين قد امتد سلطانها بجانب الممالك المحالفة لمصر . ولكن ملك هذه المملكة — ويسمى « سبلل » — كان يسعى إلى اكتساب صداقة مصر فأرسل إلى أمينوفيس الرابع حين توليه العرش رسالة يهنئه بها . ثم لما انتقل أمينوفيس إلى عاصمته الجديدة أخيتاتون وسمى نفسه أخناتون أرسل اليه سبلل رسالة أخرى يسأله فيها لماذا قطع مراسلته .

فهذا السؤال من الملك سبلل يحملنا على الظن بأن اشتغال أخناتون بثورته الدينية لم يكن يدع له وقتا للاهتمام بعلاقاته مع الملوك .

وعلى أثر هذه الثورة أو بعدها بقليل شرعت قبائل من الحيثيين تغير على الحدود السورية ، وشرع بعض حكام سوريا يتآمرون مع الحيثيين . وكان من هؤلاء الحكام حاكم لمدينة عمورية يسمى « عزيرو » فأغار باتفاقه مع الحيثيين على الأراضى المجاورة له وقتل ثلاثة من الحكام . ثم لما علم أن خبره وصل إلى أخناتون أراد أن يخدعه فكتب إليه رسالة يتبرأ فيها من تهمة الخيانة ويؤكد أنه لا يزال وفيا لفرعون ويعتذر بأنه لم يفعل غير أن دافع عن نفسه ويقول :

« إن أعيان مدينة « سومورى »(١) هم الذين لم يتركونى فى سلام . فأنا لم أقترف وزرا فى حق مولاى » .

وفى رسائل تل العمارنة جواب على هذه الرسالة ليس من أخناتون بل من شخص آخر (لم يوجد اسمه) يبتدئ فى مخاطبة عزيرو بقوله :

« باسم الملك مولاك ، إلى حاكم مدينة عمورية » .

ومن هذه الكلمات يرى أن أخناتون لم يجب بنفسه بل كلف شخصا من المقربين إليه أن يجيب باسمه ، ويرى أيضا أن هذا الجواب كتب من صورتين إحداهما أرسلت إلى عزيرو والثانية حفظت فى وزارة الخارجية الفرعونية وهى التى توجد الآن بين أيدينا .

وفى هذا الجواب يقول الكاتب :

« لا شك أنك لست مع الملك مولاك . فان أردت أن تخضع للملك فستكون مكافأتك عند الملك عظيمة . أما إذا بقيت على ما أنت عليه فالعصيان فى قلبك وسموت أنت وأهلك .

« إخضع للملك مولاى لنعيش ... ... إنى أقول لك : أترك قمة هذا الجبل(٢) وامض إلى مقابلة الملك مولاك ، أو أرسل ابنك إلى الملك . أليس لك ابن يمكن أن يذهب اليه ؟ ... اعلم أن الملك قوى كالشمس فى السماء وأن جنوده وعرباته عديدة فى البلاد العالية والبلاد الواطئة(٣) ومن مشرق الشمس إلى مغربها » .

---

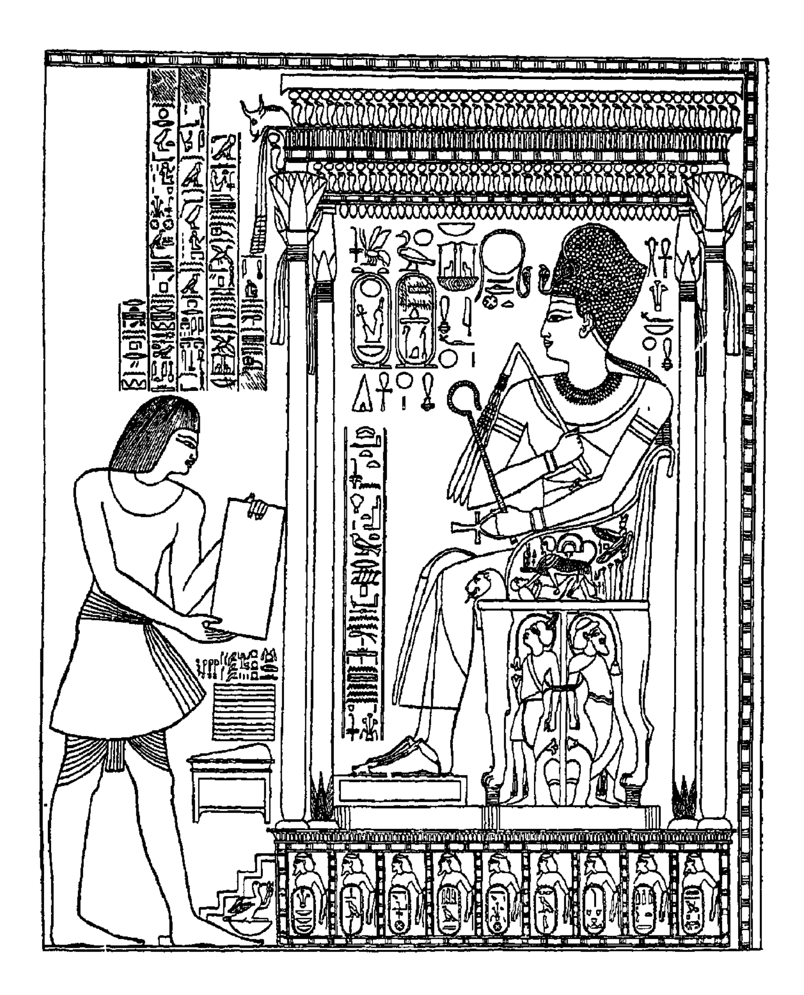
(١) لم نجد لهذه المدينة (Soumoury) موقعا فى الخرائط القديمة التى بين أيدينا ولعلها سامراء .

(٢) يظهر من هذا أن عزيرو كان قد احتمى فى قمة جبل .

(٣) لعل المراد بالبلاد العالية الجبال وبالبلاد الواطئة السهول .

(لوحـــة رقـــم ٢٨)

الملك أمينوفيس الثالث



الملك أمينوفيس الثالث جالسا على عرشه وفى يده الصولجان والكرباج وقد تقدّم له وزيره ببيان الجزيات التى جاءت من بلاد كوش (النوبة) ونحارينا وبلاد أسيوية أخرى خاضعة لمصر . ويلاحظ أن العرش الذى يجلس عليه أمينوفيس الثالث مرسوم على جانبه أسيران أسيويان مشدودان بحبل وفى أسفل قاعدته تسعة أسرى أسيويين شــدّ كل منهم إلى حبل خلفه وكتب اسم بلده على صدره . وهذه الرسوم كلها تشير إلى البلاد التى كانت تحكمها مصر فى آسيا والتى كانت تؤدى الجزية لأمينوفيس الثالث .

وكان عزيرو ذا دهاء ومكر فلما تلقى هذا الجواب لم يرد عليه بالرفض بل كتب إلى فرعون يقول إنه سيقدم إليه مع ابنه . ثم مضت أيام ولم يقدم ، فكتب يقول إنه قادم . ثم مضت أيام أخرى ولم يقدم ، فكتب يقول إنه تحرك للقـدوم ، ولكنه أضاف إلى ذلك أن الحيثيين يهاجمون مدينـة «تونيبو» وتساءل من يدافع عنها فى غيابه . قال :

« إننى أنا وابنى خادمان وفيان للملك فسنسافر أنا وابنى فى الحال... لكن مولاى الملك على ثقة من أننى أسارع إلى إطاعة أوامره ، ولكن الملك كلفنى أن أدافع عن أراضيه وها هو ملك الحيثيين قد صار فى أرض نوحاسى وفى مدينة تونيبو ... إنى خائف على بلاد مولاى » .



فتاتان مصريتان ترقصان وتضربان بعض الآلات الموسيقية فى حفلة بينما سيدة من سيدات الحفلة جالسة وفتاة تقدّم لها شرابا

وبينما كان عزيرو يكتب هـذا كان أعيان مدينة تونيبو يكتبون إلى فرعون رسالة بعـد رسالة مستصرخين مستغيثين، لأن عزيرو يداهمهـم ويضيق الخناق عليهم باتفاقه مع الحيثيين . قال هؤلاء الأعيان فى إحدى رسائلهم :

«إلى مولانا ملك مصر . نحن أهل تونيبو عبيدك ندعو لك بالسعادة الكاملة ونسقط على قدميك .

«مولانا . إن خادمتك مدينة تونيبو تقول : من هو الذى كان يستطيع فيما مضى أن ينهب تونيبو من غير أن يجازيه «مناخبيريا»(١) بمثل ما فعل فيها .

«إن آلهة سيدنا ملك مصر وتماثيله موجودة فى تونيبو . ليسأل مولانا فى ذلك من هم لديه من الشيوخ يعرف هل الذى نقوله هنا صحيح أولا ... إذا لم تدركنا جنود مولانا ملك مصر وعرباته قبل ضياع الوقت فان عزيرو يعاملنا كما عامل مدينة «نى» . وحينئذ لا نبكى وحدنا بل يبكى ملك مصر معنا من جرائم عزيرو . لأن عزيرو سيدير يومئذ ذراعه ضد مولانا ومتى دخل مدينة سومورى فسيفعل بنا ما يشاء» .

وفى رسالة أخرى قال أعيان تونيبو :

« من هو الذى ميز تونيبو ورفع قدرها ؟ أليس هو أمينوفيس الثالث ؟ ... لقـد أرسلنا من قبل عشرين رسالة إلى مولانا الملك وبقى رسلنا عند مولانا .

« والآن فان مدينتك تونيبو تبكى، ودموعها تجرى، وليس من ينصرنا .

«لقد كتبنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم يأتنا رد واحد من عند مولانا» .

وسقطت مدينة تونيبو من غير أن يتحرك أخناتون لينجدها . وزحف عزيرو بعد ذلك على ببلوس مع الحيثيين فكتب حاكمها إلى أخناتون رسالة بعد رسالة . وثار حكام آخرون وتحالفوا مع الحيثيين فدارت المعارك بين الحيثيين وهؤلاء المتآمرين من جانب، ومع الحكام الباقين على الولاء لمصر من جانب آخر، ففاز الأولون وانهزم الأخيرون، وفقدت مصر كل أملاكها فى سوريا وأكثر أملاكها فى فلسطين دون أن ينهض أخناتون للدفاع عنها . ثم لما نهض بعد ضياع الفرصة لم يقدر مدى ما وقع فأرسل قوة صغيرة فلم تكد تظهر فى الميدان حتى انهزمت .

(١) يرجح برستيد أن يكون اسم «مناخبيريا» هذا لقبا لتحوتمس الثالث .

لوحة صيد الأسود

اللوحة رقـــم ٢ (ص ١٦)

لوحة من حجر الشيست تمثل خروج جماعة من المصريين لصيد الأسود و بعض الحيوانات المتوحشة الأخرى ، وهـذه اللوحة موجودة فى المتحف البريطانى . وهى ترجع إلى ما قبل عصر الأسر .

والمعنى المستفاد من هـذه اللوحة أن المصريين كانوا قد بدأوا فى ذلك العهد يتألفون جماعات لكل جماعة شارة خاصة ، ولهذا يرى أمام هؤلاء الصيادين رجال منهم يحملون شارات . ومن هـذه الشارات الصقر الذى صار بعـد ذلك المعبود حوريس . و يستدل العلماء بهذا ، و بغيره ، على أن كثيرا من المعبودات المصرية كانت فى أول أمرها شارات تميز بها الجماعات فى بدء تكوينها .

قبيلة من كنعان

تفد إلى مصر فى عهد الأسرة الثانية عشرة

اللوحة رقم ٨ (ص ٥٨)

فى السنة السادسة من حكم سنوسريت الثانى (الأسرة الثانية عشره) ، أى فى نحو سنة ١٩٠٠ ق م ، وفدت إلى مصر قبيلة من أرض كنعان مؤلفة من ٣٧ شخصا بين رجال ونساء وأطفال ، ووصلت إلى إقليم الغزالة ، وهناك استقبلها موظف مصرى اسمه « خيتى » ثم قادها إلى حاكم الاقليم الأمير « خنومهوتبو » فأحسن مقابلتها وأقطعها أرضا تقيم فيها وأمر فصور الرسامون هذا الحادث، فى بعض المقابر الموجودة الآن فى قرية تعرف بقرية بنى حسن ، فى ثلاث صور هى التى نقلناها فى اللوحه رقم ٨ فى ص (٥٨)

ففى الصورة الأولى رئيس القبيلة القادمة يمسك تيسا صغيرا ليقدّمه هدية للأمير . وأمامه موظفان مصريان يقودانه وأحدهما هو الذى يتولى تقديمه . واسم هذا الرئيس « إيبشا » . والموظف الأوّل يمسك فى يده لوحة صغيرة مكتوب فيها :

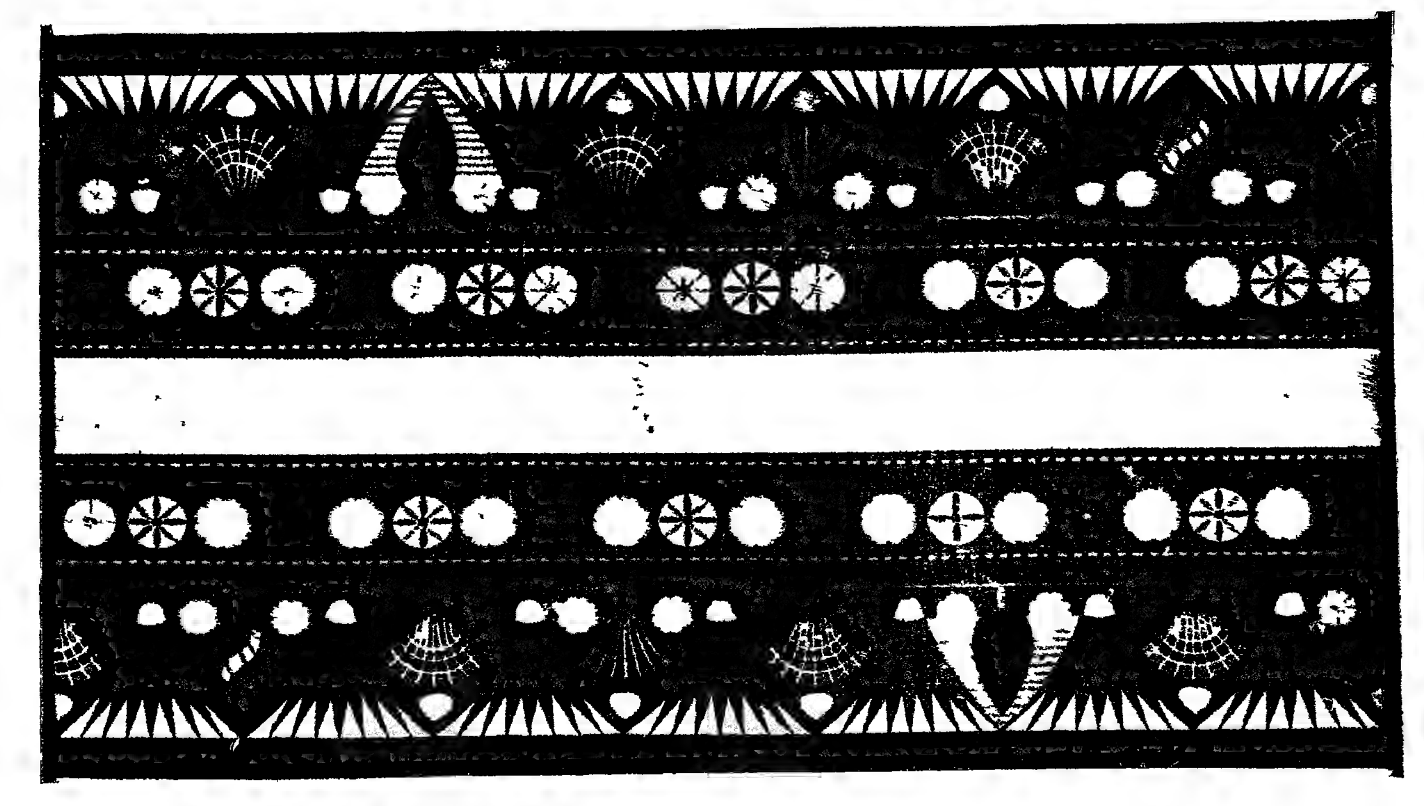
«جماعة من الآمو عددهم ٣٧ جاءوا يقدّمون للأمير مسحوق الأنتيموان من البلاد الجرداء» . والمراد «بالآمو» الأسيويون البدو . والمراد «بالبلاد الجرداء» الصحراء .

وفى الصورة الثانية بعض رجال القبيلة يحملون قسيا وسهاما ومعهم تيس ثان وحمار يحمل أمتعة وصبيين .

وفى الصورة الثالثة أربع نساء يتقدّمهن صبى يحمل سهما . ومن خلفهن حمار يحمل أمتعة ورجل يحمل آلة موسيقية يوقع عليها وهو ماش ثم رجل آخر يحمل قوسا وسهما .

وقد كان شامبوليون الشاب أوّل من أذاع هذه الصور الثلاث بعد أن نقلها من مقابر بنى حسن، وذهب إلى أن هذه القبيلة التى وفدت إلى مصر من اليونانيين

(لوحة رقم ٢٩)



زينة السقف فى قبر « بيرى — نا — نوفرهر » فى عهد الأسرة الثامنة عشرة . والذى يلاحظ فيها أنها زينة قبر وأن صاحب القبر واحد من الأمراء، ربما كان غنيا ولكنه لم يكن ملكا . وفى هذا دليل على أن المصريين كانوا مولعين بتزيين بيوتهم بالرسوم الفنية الجميلة، وأن حياتهم فى هذا العهد كانت حياة تأنق ورخاء

الأقدمين . ولكن بعض العلماء خالفوه فى ذلك وذهبوا إلى أن هـذه القبيلة قـد تكون هى بعينها قبيلة النبى يعقوب وأولاده الذين قدموا إلى مصر، أو على الأقل قبيلة من القبائل الاسرائيلية . غير أن هذه الآراء كلها لا تخرج عن التخمين لأنها لا تستند إلى دليل .

وأغلب ظننا أن وفود هذه القبيلة لم يكن الحادث الفذ الذى حدث من هذا النوع بل كانت له أشـباه تتجدّد بتجدّد السـنين والشهور ، لأن القبائل الأسيوية التى كانت ضاربة على حدود مصر الشرقيـة فى سيناء وكنعان كانت تفـد على مصر كلمـا عضها الجوع لتلتمس العيش والمأوى. فوفود تلك القبيلة لم يكن إلا واحدا من حوادث متعـدّدة متجدّدة، ولكنـه عرف لأن الأمير « خنومهوتبو » أمر بتصويره على جدران القبور أما الحوادث الأخرى فلم تعرف لأنها لم تصوّر .

فى سوق البيع والشراء

اللوحة رقم ٩ (ص ٦٨)

كان من العادات الجارية فى مصر أن تقام فى كثير من المدن ، أسواق عامة للبيع والشراء، يوما فى كل أسبوع ، عدا الأسواق المستمرة كل يوم فى الدكاكين ومحلات التجارة والصناعة . وكانت لهذه الأسواق أمكنة معينة فى كل مدينة، فاذا أوشكت الشمس على الشروق خف أهل القرى المجاورة إلى مكان السوق ومعهم السلع التى يريدون بيعها أو المبادلة بها . وكان البيع يجرى فى أغلب الحالات ، بطريق المبادلة عينا بعين .

وكان باعة الخراف والأوز والماعز والثيران يتوسطون السوق ، أما باعة البقول والخضر والأسماك والطيور والغزلان والقلل والأوانى الفخارية وأصحاب الصناعات الصغيرة فكانوا يجلسون فى جوانب السوق .

والصورة التى فى هذه اللوحة تمثل بعض مناظر السوق وما كان يجرى فيها . ففى المنظر الأيمن من الصف الأعلى يرى رجل جالس وأمامه إناء كبير يحتوى على حقاق فيها طيب وأشياء ذات روائح زكية وقد وقف أمامه رجلان وشرع أحدهما يساومه فعرض عليه حذاء يمسكه فى يده اليمنى وقال له : « دونك زوجا من الحذاء المتين » . ولكن بائع الطيب لم تعجبه هذه المبادلة لأنه لم يكن راغبا فى الحذاء فطلب عقدا كان مع المشترى فى يده اليسرى وشرع يفحصه ثم أخذ بيده حقا من حقاق الطيب وقال للمشترى : « هذا هو الزكى الجميل حينا تصب منه نقط قليلة » .

وفى المنظر الثانى بائع سمك وقفت أمامه امرأة تحمل صندوقا صغيرا فيه ما تريد أن تبادل به السمك . وهى تطلب من البائع خفض الثمن الذى يحدّده .

وفى المنظر الثالث امرأة فى يديها حقان وقد دفعت باحدهما تحت أنف رجل جالس وشرعت تقول له : « إليك هذه الرائحة الجميلة التى تجعلك شهوة للنفوس » .

وأما الصف الثانى ففى المنظر الأيمن منـه يرى بائع جالسا وأمامه سلة كبيرة فى جانب منها بصل وفى الجانب الآخر قمح، وقد وقف أمامه رجلان، فالأول منهما يمد إليـه يده بعقد من الزجاج و يقول له : « إليك عقـدا جميلا يعجبك ولا شـك فى أنه هو الذى تريده » . أما الثـانى فيمسك فى يده اليمنى مروحة و فى يده اليسرى منفاخا و يقول للبائع : « إليك مروحة ومنفاخا » . و يرد البائع على أول الرجلين فيتناول العقد الذى قدمه له و يقول : « هات لأرى ماذا يساوى » .

وفى المنظر الثانى رجلان يتناقشان فى ثمن سـنانير يمسكها واحد منهما فى يده اليمنى وسوار يمسكه فى يده اليسرى .

وفى المنظر الثالث امرأة تساوم بائع عقود مختلفة ومعها علبة تحمل فيها ما تريد أن تبادل به فى هذه المساومة .

على هذا النحو كانت تجرى المبادلات فى أغلب الحالات . فاذا كان المبيع شيئا غالى الثمن كالثور وجب أن يكون العوض أشـياء كثيرة مختلفـة تدوّن فى ورقة . وقـد وجدت أوراق من هذا النوع بيع فيها ثور أو حمار بعوض من أسرة وعصى وعسل وزيت ومعادن وملابس .

*
* *

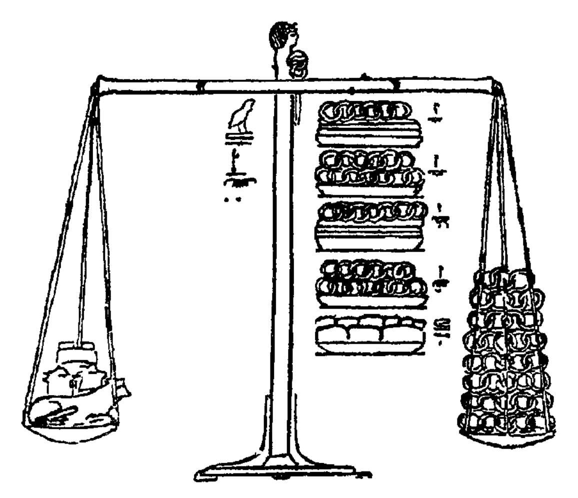
على أنه يجب أن لا يفهـم من ذلك أن الوحدات المعـدنية ، من الذهب والفضة والنحاس، لم تكن موجودة، ولم تكن تستعمل لتقدير السلع فى المعاملات . كلا بل كانت هذه الوحدات موجودة، ولكنها كانت قليلة الاستعمال . وقد وجد عقـد بيع فى عهـد الأسرة الرابعـة (أى فى نحو سنة ٢٧٠٠ ق م بحساب التاريخ القصير) باع به صاحب بيت بيتـه بثمن قدره « ١٠ شات » (Sha أو Shat)

ويرى موى فى كتابه : (Histoire Ancienne de l'Orient) ص ٧٦٣ المطبوع فى سنة ١٩٣٦ [١] أن « شا أو شات » هذه معناها «قطعة من المعدن» ، وهذا المعدن قد يكون الذهب أو الفضة أو البرنز .

ولم تظهر هذه الكلمة بعد ظهورها فى ذلك العقد، إلا فى عصر الدولة الحديثة، إذ كانت تقدر بها السلع وأجرة العبيد . وحينئذ كانت قطعة الشات تعادل $\frac{1}{12}$ من وحدة معدنية أخرى تسمى «دبن» وبعض العلماء يقرأ هذا الاسم «تابنو» .

وكانت قطعة الدبن تعادل ٩١ جراما تقريبا . وكانت تصنع على شكل حلقات من الذهب أو الفضة أو البرنز أو النحاس . ولكن كانت حلقات الفضة قليلة لأن هذا المعدن نفسه كان قليلا .

وكانت وحدات المعادن تصنع أيضا على شكل سبائك لها رؤوس حيوانات . وكانت تسمى حينئذ « بيكونيا» (Pecunia) . وهذه السبائك كانت تستعمل لوزن الحلقات المعدنية .



ميزان الذهب وغيره من المعادن . وفى إحدى الكفتين سبائك لها رؤوس حيوانات وتسمى « بكونيا » وفى الكفة الثانية حلقات توزن . فكأن سبائك «البيكونيا» موازين لوزن الحلقات التى يجرى بها التعامل

(١) هذا الكتاب هو آخر ما طبع من كتب مورى قبل وفاته .

(لوحة رقم ٣٠)



راقصات موسيقيات من بنات طيبة (قبر ناخت) وإحداهن تنفخ فى الناى والثانية تضرب على آلة تشبه « العود » المعروف الآن والثالثة تضرب على قيثارة

وكان لوزن المعادن ميزان خاص دقيق وجدت صـورته على جدران معبـد الدير البحرى وهو الذى تجـد صورته فى الصفحة السابقة، وتجد فى إحدى كفتيه سبائك من البيكونيا توزن بها حلقات معدنية موضوعة فى الكفة الأخرى .

فيرى من ذلك أن اسـتعمال الوحدات المعدنيـة أساسا للتعامل ، كما تستعمل النقود الآن ، كان معروفا منذ الأسرة الرابعة ، ولكنه كان قليلا كما قلنا لأن الفلاح صاحب السلعة كان يخشى دائما أن يقع غش فى نوع المعـدن ، أو فى مقـداره ، أو فى وزنه . ولهذا كان التعامل به يقتضى قبـل كل شيء فحص النوع والمقـدار والوزن ، وهذه كلها عمليات قد يقوم فى كل منها بين البائع والمشترى كثير من الخـلاف .

واستمر الحـال على هذا إلى أن حكم دارا ملك الفرس مصر، وكان قـد صنع فى بلاده نقودا نقش اسمه عليها وسماها « الداريات » نسبة اليه، فأدخلها فى مصر وأوجب التعامل بها .

حصـاد القمح وتخزينـه

اللوحة رقم ١٥ (ص ١١٤)

فى الصف الأعلى : الفلاحون يقطعون القمح بالمناجل، بينما واحد منهم ينفخ فى المزمار لتسليتهم وتشجيعهم على العمل، وبينما زميل لهـذا الأخير واقف أمامه يغنى على نغمات المزمار . وهناك فلاح آخر يحمـل قربة فيها شراب ليسقى من يريد الشرب . ومن وقت إلى آخر يريد رئيسهم الواقف فى أقصى اليسار أن يحثهم على العمل فيقول : « من منكم يتم عمله فى وقته ويستطيع أن يقول هاءنذا أقول لك ولرفاقى إنكم جميعا كسالى » .

ويقدم حامل القربة شرابه للظمآنين قائلا : « أليس هذا الشراب لذيذا » .
فيرد عليه الشارب قائلا : « نعم إن جعة السيد ألذ من فطيرة الذرة » .

وفى الصف الثانى : الفـلاحون يسوقون الحمير ليحملوا عليها أحمال القمح . بينما اثنان من العمال يجهزان الأحمال .

وهنا يغنى الفلاحون أغنية جديدة موجهة إلى الحمـير فيقولون : « الابتعاد عن الصف جزاؤه الربط بالحبل، والتمرغ فى الأرض جزاؤه الضرب . هيا إذن » .

وفى الصف الثالث : الحمير وقد حملت الأحمال وسارت بها . وترى فى أقصى اليمين حمارة محمـلة وبنتها تسير أمامها . وفى أقصى اليسار حمار يأبى القدم ليحمل حمله فيجره الفلاح من قدمه .

(لوحة رقم ٣١)



الملك سيتى الأول يقدم تمثال إلهة الحق والعدل « معات » للإله أوزريس
(معبد سيتى الأول بأبيدوس)

شيـخ البـلد

اللوحة رقم ١٧ (ص ١٣٢)

تمثال كا آبيرو المعروف باسم شيخ البلد . والسبب فى تسميته بهذا الاسم أن العمال المصريين لما عثروا عليه وأخرجوه من التراب وجدوه شـديد الشبه بشيخ بلدهم فصاحوا يقولون ها هو ذا شيخ البلد . وسمع العـالم الأثرى الذى كان يدير الحفر صياحهم هذا فرأى أن يطلق عليه اسم شيخ البلد .

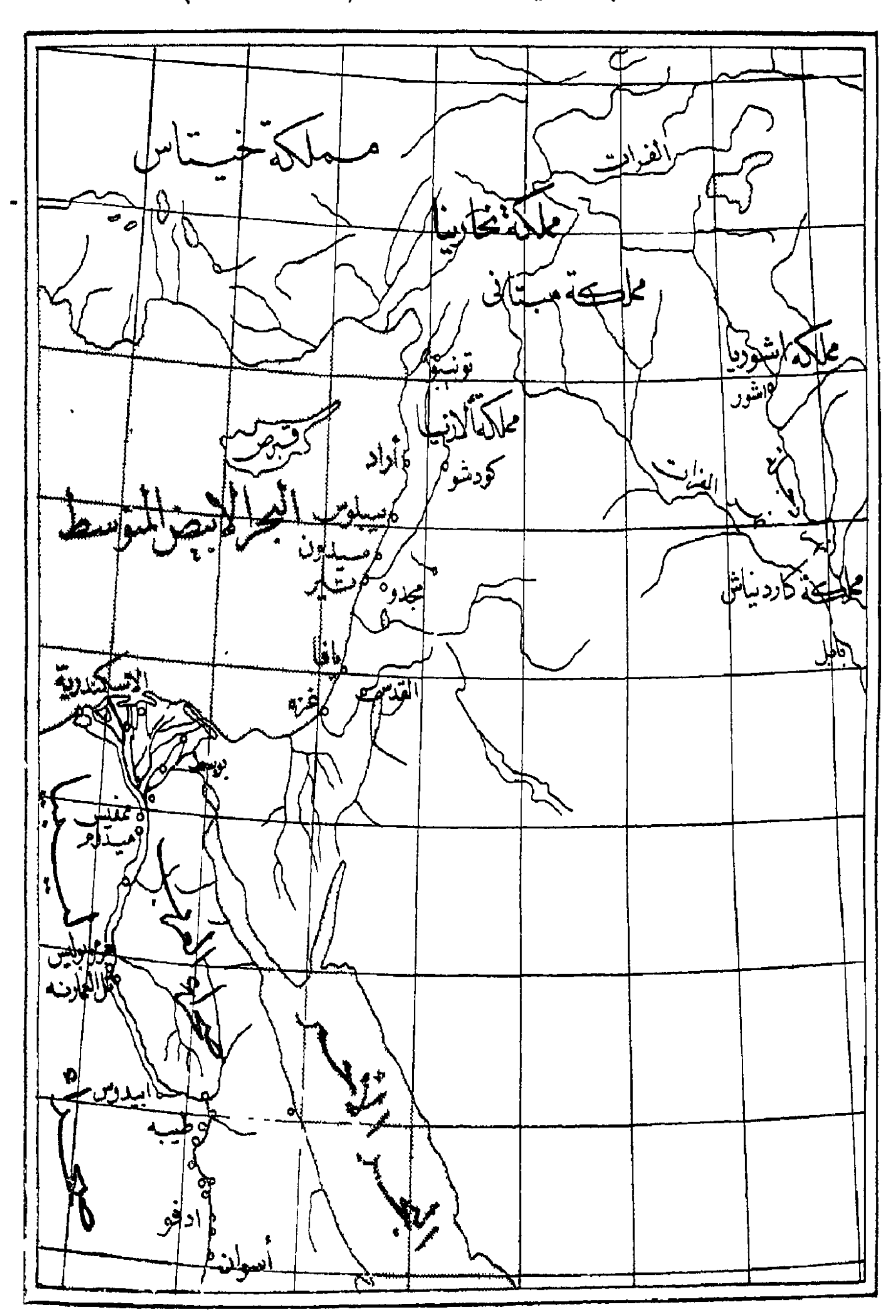
والتمثال مصنوع من الخشب ولذلك اسـتطاع الصانع المصرى أن يظهر فيه براعة ممتازة وأن يصور دقائق الوجه والنظرات والجسم تصويرا رائعا . وقد كتب عنه ما سپيرو فى ص ٨٧ من كتابه :

Histoire Gènerale de l'Art.

فقـال :

« لو أن معرضا فتح فى مكان ما لتعرض فيه روائع الفن فى العالم كله ، لكان هـذا التمثال واحدا من التماثيل التى أبعث بها إليه تمجيدا للفن المصرى » .

خريطة الامبراطورية المصرية فى آسيا (أنظر ص ٢٢١)

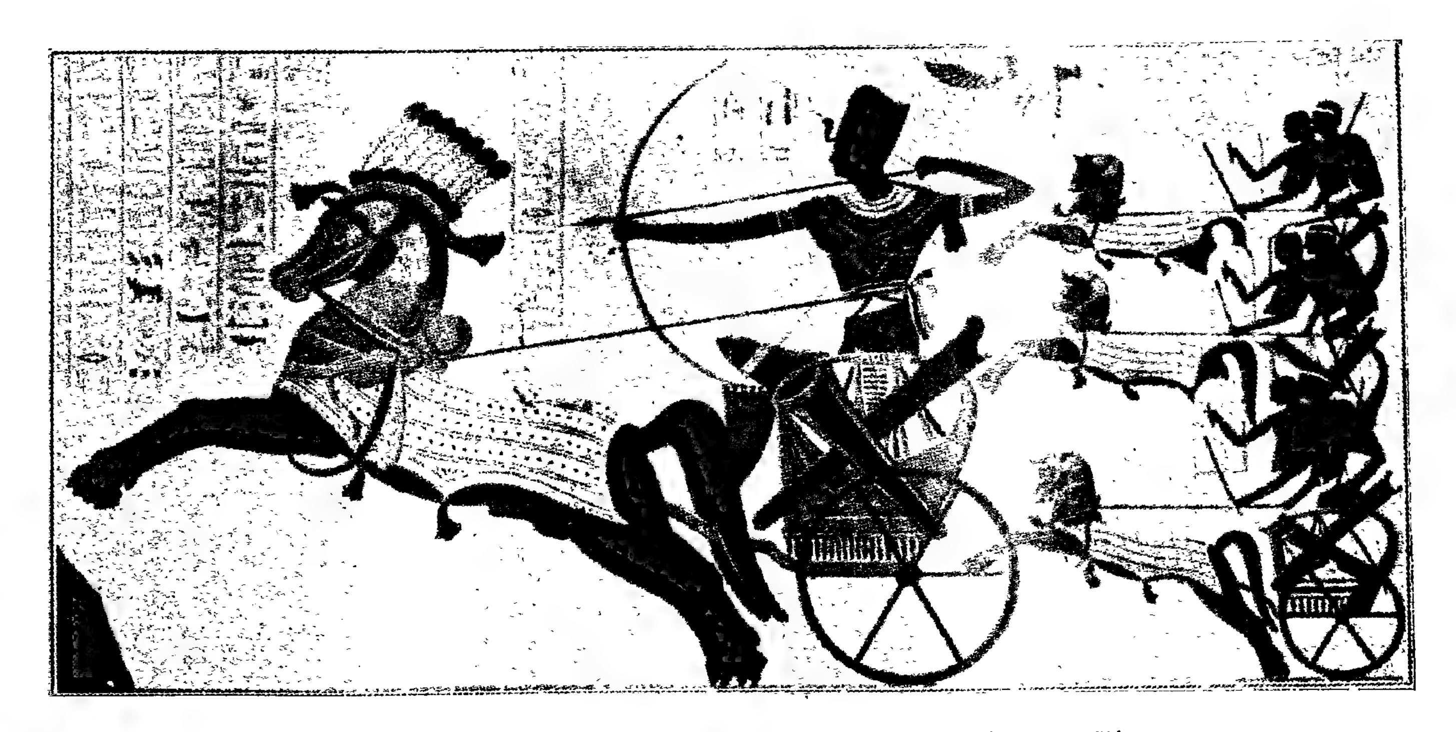


الإمبراطورية المصرية فى آسيا

يجمع العلماء على أن الإمبراطورية التى أنشأتها مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة هى أولى الإمبراطوريات فى العالم كله . وكانت تمتد من الشلال الرابع فى النوبة، أو من خلفه بقليل ، إلى ما وراء نهر الفرات . وكانت تدخل تحت حمايتها مملكة ألازيا ومملكة ميتانى ومملكة نحارينا . ثم كانت مملكة أشوريا ومملكة كاردنياش (أو مملكة الكلدان) تعيشان فى ظل الصداقة معها وتقديم الهدايا لفرعون . ثم كانت هذه الإمبراطورية تبسط جناحها على الجزر المنتشرة فى الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط الذى كان يسمى البحر الأخضر الكبير . وكانت مملكة خيتاس، وأهلها هم الذين تسميهم التوراة الحيثيين ، هى التى عقدت مع رمسيس الثانى معاهدة صداقة وتحالف بعد حرب طويلة . والخريطة المرسومة فى الصفحة السابقة هى الجزء الأسيوى من الإمبراطورية المصرية، وهذا الجزء هو الذى تبادل ملوكه وحكامه رسائل تل العمارنة مع أمينوفيس الثالث وأمينوفيس الرابع .



(لوحة رقم ٣٢)



الملك رمسيس الثانى على عربته الحربية يطلق سهمه فى ساحة الوغى ومن خلفه ثلاث عربات

(وهذه الصورة موجودة فى معبد أبى سنبل)



ملحق للتقـويم المصـرى

قالنـا فى البحث الذى عقـدناه للتقويم المصرى إنه كان يوجد فرق مقـداره ٦ ساعات وبضع دقائق فى السنة بين هذا التقويم ودورة الشعرى اليمـانية ، وإن هذا الفرق القليل كان يحدث أثره على ممر السنين . ثم قلنا :

« ولم يخف هذا الفرق على المصريين ، بل أدركوه وعرفوا أنه ربع يوم فى السنة ، ولكنهم تركوا التقـويم على ما هو عليـه واكتفوا بأن يسجلوا الفرق كلمـا حانت فرصة لتسجيله » .

فنضيف هنا إلى ذلك أن عالمـا اسمه ويل (R. Wiell) اسـتطاع أن يجمـع أخيرا من أوراق البردى وجدران المعابد نصوصا تثبت أن الكهنة ورجال الحكومة المصريين كانوا يصلحون التقويم بمـا يزيل منـه ذلك الفـرق القليل ويجعله ثابتا غير متغير .

وهـذه النصوص التى جمعها ويل تشتمل على أيام محدّدة لحفلات موسميـة زراعية طبقا للتقويم ، وأمام كل واحد منهـا اليوم المقابل له طبقا لدورة الشـعرى اليمانية . وقد دل البحث على أن الحساب فى هـذه الأيام الأخيرة صحيح ، ومنـه يستنتج أنهم كانوا يعدلون التقويم بمـا يزيل النقص منه .

وقد كتب فى ذلك مورى فى كتابه (Histoire de l' Orient) فى ص ١١٠ و ١١١ فذكر أن الاعتقاد كان سائدا « بأن المصريين سـكتوا على هـذا الاختلاف

المكدر بين السنة فى تقويمهم والسنة الفلكية » . ثم أشار مورى إلى النصوص التى جمعها ويل، وقال :

« فبين أيدينا ، منذ العهد الذى كانت فيه طيبة قاعدة للملك ، جداول بأعياد دينية مكتوبة على البردى أو منقوشة على المعابد ، وقد عينت فيها الأيام طبقا للتقويم الناقص وعين أمام كل واحد من هذه الأيام اليوم المقابل له تعيينا صحيحا ، بحسب دورة الشعرى اليمانية . فالكهنة ورجال الحكومة كانوا إذن يستعملون تقويما ثابتا قائما على هذه الدورة التى مدّتها ٣٦٥ يوما وربع يوم . وفى هذا التقويم الثابت كانت حفلات المواسم الزراعية تقع فى أيام ثابتة بالنسبة لفصول السنة الطبيعية ولنظام العالم . فكيف يمكن حساب هذا التقويم إلا بإضافة يوم سادس إلى الأيام الاضافية الخمسة كل أربع سنوات » .

ومما يستحق الذكر هنا — وقد ذكره مورى — أن العالم ميير(١) عرض للتقويم المصرى، فى كتاب له عن « تاريخ مصر » فذهب إلى أن من المستبعد أن يكون المصريون قد أغفلوا الفرق الذى بينه وبين دورة الشعرى اليمانية. ولكنه لم يستطع أن يقدم برهانا على قوله هذا . وجاراه فى ذلك العالم سيت(٢) وتوسع فيه ولكنه لم يقدم، هو أيضا، برهانا حاسما. فما كان يفترضه ميير افتراضا ويؤيده فيه سيت، صار الآن أمرا صحيحا تثبته النصوص .

وفى سنة ٢٣٨ ق . م أصدر بطليموس الثالث المسمى « ايفرجيت » أمرا يعرف عند العلماء « بالأمر الكانوبى » بتعديل التقويم . ويقضى هذا الأمر « بإضافة يوم كل أربع سنوات إلى الأيام الخمسة الأضافية ، لكى تجرى فصول السنة على قاعدة لا تتحول ولا تختلف بالنسبة لنظام العالم ، فيمتنع بذلك أن تجئ فى فصل الصيف مواعيد حفلات يجب أن تقام فى الشتاء بسبب تقدّم كوكب الشعرى اليمانية فى دورته يوما فى كل أربع سنوات ، ويمتنع أيضا أن تجئ

---

(١) (Ed. Meyer) عالم ألمانى من كبار المصرولوجيين ، وهو القائل بالتاريخ القصير ، وقد أخذه عنه فريق كبير من العلماء .

(٢) (K' Sethe) هو عالم ألمانى أيضا من كبار المصرولوچيين .

فى الشتاء مواعيد حفلات يجب أن تقام فى الصيف . وهذا ما حدث من قبل ولابد أن يحدث إذا بقيت السنة مكوّنة من ٣٦٠ يوما وخمسة أيام إضافية » .

فهذا الأمر الذى أصدره بطليموس الثالث هو تعديل للتقويم، ولكنه ليس جديدا ، بل هو تنفيذ لعرف قديم كان جاريا منذ العهد الطيبى ، وكان الكهنة ورجال الحكومة يدونونه فى سجلاتهم أو ينقشونه على جدران المعابد . ومن هذا كله يتضح أن يوليوس قيصر لما جاء إلى مصر وحمل التقويم منها إلى روما ، لم تفعل فيه روما غير ما كانت مصر نفسها قد فعلته من قبلها بأكثر من ألف سنة .

حاشية — أشرنا فى هذا الملحق إلى النصوص التى جمعها «ويل» فنذكر هنا عنوان كتابه الذى جمعها فيه وهو : Bases, méthodes et résultats de la chronologie égyptienne

ص ١١٢ و ١١٣ و ١٢٨ و ١٧٣

تصـــحيح

ذكر فى الصفحة ٤٣ ما يأتى :

« لمـا جرى النيل أخذت جموع من الإنسان تتجمع حوله . ولا يعرف الآن تاريخ صحيح لبدء هذا التجمع . ولكن من المباحث التى بحثها برستيد أنه حفر فى مدخل الدلتا حتى وصل إلى عمق ٢٠ مترا فى بعض النقط و ٣٠ مترا فى بعضها الآخر ... ... فحسب برستيد فوجد أن الإنسـان الذى عاش حيث وجدت تلك الجمجمـة وتلك الأوانى والقوالب يرجع إلى ١٦ ألف سـنة مضت . ولا يزال باب البحث فى هـذا الموضوع مفتوحا ولا تزال الكلمـة الأخيرة فيـه متروكة للمستقبل » .

فهنا سقط اسم كان يجب أن يذكر ، لأن صاحبه هو الذى تولى الحفر عنـد مدخل الدلتا وعثر على الجمجمة على عمق ٣٠ مترا . وصاحب هذا الاسم هو شوينفورت (Schweinfurth) . أما برستيد فقد درس نتائج هذا الحفر وحسب طبقات الطمى التى يكسو بها النيل أرض الدلتـا كل سنة ، فوجد أن الإنسان الذى عاش حيث وجدت تلك الجمجمة يرجع إلى ١٦ ألف سنة مضت .



فهرس الصور الداخلة فى المتن

الصـور التى فى هذا الكتاب نوعان : أوّلها الصور الداخلة فى المتن، والثانى اللوحات التى لا تدخل فى المتن والمطبوعة على ورق خاص . فالفهرس الذى نذكره هنا هو فهرس النوع الأوّل من الصور .

	صفحة
المعبود النيـل...	١٤
جندى سورى فى مشرب مصرى يشرب بواسطة غابة...	٢٠
جِجر بالرم...	٢٥
لوحة نعرمر . أحد وجهيها	٣٦
لوحة نعرمر . وجهها الثـانى	٣٧
البرج الذى نزع من معبـد دندرة ونقل إلى باريس	٧٥
شامپوليون الشاب كاشف الحروف الهيروغليفية...	٨٠
إيمانويل دى روچى	٨٦
لى بيج رينوف	٨٨
الملك سيتى الأوّل جالسا وأمامه مائدة القرابين ومن خلفه روحه المسمى « كا »...	٩٤
أوزريس الإله الأكبر لمحاكمة الأموات...	٩٨
الخط الديموطيق المصرى...	١٣٩
الخط الهيروغليفى المصرى أو الخط المقـدّس	١٤١
الخط الهيراطيق المصرى...	١٤٣
رسالة من رسائل تل العمارنة تحتوى على تفصيلات مهر الأميرة تادوخيبا بنت دوشراتا ملك ميتانى وقد تزوّجها الملك أمينوفيس الثـالث	١٧٨
قطعتان من أرض قصر الملك أمينوفيس الثالث والملكة تى يى فى طيبة وهما تمثلان طيرا من الأوز بين أزهار اللوتس	١٨٩
قطعة من سقف لغرفة فى قصر الملك أمينوفيس الثالث والملكة تى يى فى طيبة	١٩٣
أسرى أسيويون فى مصر...	١٩٥

صفحة

أسرى نوبيون فى مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ١٩٦

قطعة من أرض القصر الذى بناه لنفسه الملك أخناتون (أمينوفيس الرابع) فى مدينة أخيتاتون (تل العمارنة)... ... ... ١٩٨

سقف قبر لرجل من الكبراء اسمه راميس بالقرب من طيبة (الأسرة الثامنة عشرة) ١٩٩

سيدات مصريات فى حفلة . وترى المائدة وعليها أصناف المأكولات ، وفتاة تقدّم لإحدى السيدات إناء صغيرا فيه شراب ، وإحدى السيدات تلتفت إلى جارتها وتقدّم لها زهرا ذا رائحة زكية ٢٠٢

فتاتان مصريتان ترقصان وتضربان بعض الآلات الموسيقية فى حفلة ، بينما سيدة من سيدات الحفلة جالسة وفتاة تقدّم لها شرابا ٢٠٩

ميزان الذهب وغيره من المعادن ٢١٧

خريطة الامبراطورية المصرية فى آسيا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ٢٢٠

فهرس اللوحات الخارجة عن المتن

صفحة

لوحـــة رقـــم ١ : ١٠

أدوات مصنوعة من العظام وجدت فى حفائر مرمدة بنى سلامة ، وأدوات من النحاس وجدت فى مقابر نقادة ، وترجع إلى ما قبل عصر الأسر .

أوان من الفخار ترجع إلى حضارة البدارى .

آنية من الفخار ترجع إلى عصر ما قبـل الأسر وعليها رسوم طيور وأشخاص وسفينة تحمل شارة على ساريتها .

لوحـــة رقـــم ٢ : ١٦

صـيد الأســـود .

لوحـــة رقـــم ٣ : ٢٢

امرأتان تنسجان .

عمال يشتغلون فى تسوية الأحجار وتنظيفها بعد قطعها من الجبل .

لوحـــة رقـــم ٤ : ٣٢

حدّادان واقفان على منفاخين متصلين بموقد للنار يستعمل لصهر الحديد . وفى يد كل من الحدّادين حبلان يحرّك بهما منفاخه بينما زميل لهما يحرّك النار فى الموقد .

مصنع أحذية من الجلد . ويرى فيه أربعة من الرجال يعملون فى هذه الصناعة . وترى أيضا أحذية تم صنعها فعلقت فى أعلى المكان .

لوحـــة رقـــم ٥ : ٤٠

بعض الألعاب الرياضية للجنود المصريين .

رقص حربى يرقصه الجنود المصريون قبيل المعركة . وترى فى أيديهم القسى والسهام .

لوحـــة رقـــم ٦ : ٤٦

المشاة الخفيفة والمشاة الثقيلة من الجيش المصرى فى عهد الأسرة الحادية عشرة .

لوحـــة رقـــم ٧ : ٥٠

الكاهن رع — نوفر (فى عصر الأسرة الخامســة) ويعتبر تمثاله هذا من روائع الفن فى العهد المفيسى .

صفحة

لوحـــة رقـــم ٨ : ٥٨

قبيلة من كنعان تفد إلى مصر . رئيس القبيلة يتقدّمه موظفان مصريان .

بعض رجال القبيلة .

بعض سيدات القبيلة .

لوحـــة رقـــم ٩ : ٦٨

ســوق البيــع والشــراء .

لوحـــة رقـــم ١٠ : ٧٦

الملك خفرع ومن خلف رأسه حوريس فى شكل صقر يبسط جناحيه حول عنقه إشارة إلى أنه يحميه . وهذا التمثال مصنوع من حجر الديوريت الذى هو من أصلب الأحجار، حتى لقد قال العلماء إنهم لا يستطيعون أن يعرفوا أية آلات هى التى استخدمها المصريون فى نحته . وصنع هذا التمثال بهذه الدقة يعتبر دليلا على أن فن النحت بلغ الذروة فى العهد المنفيسى .

لوحـــة رقـــم ١١ : ٨٤

الكاتب المصرى وقد تربع ونشر ملفا من البردى وتأهب للقراءة أو الكتابة . وقد وجد هذا التمثال فى مقابر صقارة التى ترجع إلى عهد الأسرة الرابعة . وهو يوجد الآن بالمتحف المصرى . فلاحان يرويان حديقة بالشادوف الذى لا يزال مستعملا إلى الآن .

لوحـــة رقـــم ١٢ : ٩٠

الكاتب المصرى المحفوظ فى متحف اللوفر وقد نشر ملفا من البردى وأخذ القلم بين أصابعه وتأهب للكتابة .

لوحـــة رقـــم ١٣ : (ملونة بمثل ألوانها الأصلية) . ٩٦

الملكة نفـرتارى زوجة رمسيس الثانى ، ترى إلى اليسار جالســة فى قبرها تتسلى بلعب الشطرنج . وأمام القبر روحها المسمى « با » رأســه كرأسها وجسمه جسم طير . وأمام هذا الروح يوجد روحها الثانى المسمى « كا » وقد نفض يديه من لعب الشطرنج وخرج من القبر وركع ليصلى للشمس .

لوحـــة رقـــم ١٤ : (ملونة بمثل الألوان التى وجدت بها فى ورقة من البردى محفوظة فى المتحف المصرى) . ١٠٦

صفحة

صورة عقيـدة الحساب عنـد المصريين . ويرى فيها الميزان والإله أنوبيس يحرّره .
وفى إحدى الكفتين قلب الميت وفى الكفة الأخرى ريشـة الحق والعدل . ويرى
بجانب الميزان الإله توت وفى يده قلم وفى اليـد الأخرى لوح أو سجل وهو يقـدم
لأوزريس تقـريرا عن ميت تمت عملية وزن قلبه . وبجانبـه الوحش أمايت
فى جسم كلب ورأس حوت مسـتعدا لالتهام الروح الذى يصـدر الأمر بعقابه .
ويرى أوزريس جالسا على عرشه .

لوحـــة رقـــم ١٥ : ١١٤
حصاد القمح وتخزينه .

لوحـــة رقـــم ١٦ : ١٢٤
الملك أمينوفيس الثالث وزوجته الملكة تى يى .

لوحـــة رقـــم ١٧ : ١٣٢
شـــيخ البـــلد .

لوحـــة رقـــم ١٨ : ١٣٨
تمثال من حجـر الشيست للملك تحوتمس الثالث أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهو يلقب
بنابليون مصر .

لوحـــة رقـــم ١٩ : ١٤٨
ملك من ملوك مصر فى عصر الإمبراطورية المصرية جالسا على عرشه يستقبل مندوبين
من آسيا جاء كل منهم يحمل إليـه جزية من بلاده . ويرى موظف مصرى لابس
ملابس بيضاء يدخلهم على الملك ويقدمهم له واحدا بعد آخر .

لوحـــة رقـــم ٢٠ : ١٥٦
عصـابة من الذهب للملك توت عنخ أمون — علبة من الذهب تعـلوها مرآة
(من مخلفات الملك توت عنخ أمون) .

لوحـــة رقـــم ٢١ : ١٦٤
إناء من الرخام الشفاف صنع فى عهـد الأسرة الثـامنة عشرة، وهو موجود بالمتحف
المصرى بين مخلفات توت عنخ أمون .
إناء من المرمر (من مخلفات توت عنخ أمون) .

صفحة

لوحـــة رقـــم ٢٢ : ١٧٢

إناء مصنوع من المرمر على شكل تيس (من مخلفات توت عنخ أمون) — مروحة مثبتة على قاعدة من الذهب ، ويرى فى المروحة رسم ملك مصرى يحمل فى عربته على أعدائه (من مخلفات توت عنخ أمون) .

لوحـــة رقـــم ٢٣ : ١٧٨

تمثال نصفى للملكة نفرتيتى زوجة الملك أمينوفيس الرابع أو أخناتون . وهذا التمثال موجود فى متحف القاهرة وهو غير التمثال الموجود للملكة فى متحف برلين .

لوحـــة رقـــم ٢٤ (ملونة بمثل ألوانها الأصلية) : ١٨٤

صـــورة مركب مصنوعة من المرمر ومطعمة بحجارة ملونة . وفى مقدّمها ومؤخرها رأسان طبيعيان لحيوانين حديثى السنّ ثبتا فى المرمر (من مخلفات توت عنخ أمون) .

لوحـــة رقـــم ٢٥ (ملونة بمثل ألوانها الأصلية) : ١٩٠

كرسى الملك توت عنخ أمون مصـــنوع من الخشب المذهب . وقد رسمت على مســـنده الملكة واقفة أمام الملك .

لوحـــة رقـــم ٢٦ (ملونة بمثل ألوانها الأصلية) : ١٩٦

صـــندوق لحفظ أحشاء الميت مصـــنوع من الخشب المذهب وتحيط به المعبودات إيزيس ونفتيس ونيت وسلكت . وهـــذه المعبودات مصنوعة من الخشب المذهب (من مخلفات توت عنخ أمون) .

لوحـــة رقـــم ٢٧ : ٢٠٢

تمثال للملك رمسيس الثانى من الجرانيت الأسود .

لوحـــة رقـــم ٢٨ : ٢٠٨

الملك أمينوفيس الثـالث على عرشـــه وفى يده الصـــولجان والكرباج (وبعض العلمـاء يرى أن هذا الأخير مذبة وليس كرباجا) ، وقد تقدّم له وزيره ببيان الجزيات التى جاءت من بلاد كوش (النوبة) ونحارينا وبلاد أسيوية أخرى .

لوحـــة رقـــم ٢٩ : ٢١٢

زينة السقف فى قبر « نيزى — با — نوفرهر » فى عهـــد الأسرة الثـامنة عشرة . والذى يلاحظ فيها أنها زينة قبر وأن صاحبها واحد من الأمراء ، ربمـا كان غنيا ولكنه لم يكن ملكا .

صفحة

وفى هـذا دليل على أن المصريين كانوا مولعين بتزيين بيوتهم بالرسوم الفنية الجميلة ، وأن حياتهم فى هذا العهد كانت حياة تأنق ورخاء .

لوحـة رقـم ٣٠ (ملونة بمثل ألوانها الأصلية) : ٢١٦

راقصات موسيقيات من بنات طيبة : وإحداهن تنفخ فى الناى ، والثانية تضرب على آلة تشبه «العود» المعروف الآن ، والثالثة تضرب على قيثارة .

لوحـة رقـم ٣١ : ٢١٨

الملك سيتى الأوّل يقدّم تمثال إلهة الحق والعدل «معات» للإله أوزريس .

لوحـة رقـم ٣٢ : ٢٢٢

الملك رمسيس الثـانى على عربته الحربيـة يطلق سهمه فى ساحة الوغى ومن خلفه ثلاث عربات .

فهـــرس المـــواد

صفحة

تمهيـــد ... ... ٣ — ٣٢

كيف كتبت هذا الكتاب — نحن وتاريخنا القديم — كيف شاعت عن مصر القديمة خرافات مكذوبة عليها — المدنية المصرية لم تقم على هـذه الخرافات بل قامت على أسس علمية وخلقية سليمة — المصريون وعقائدهم الدينية — المصريون عرفوا التوحيد وعرفوا التثليث وقالوا فيه مثل ما يقوله فيه الآن علماء اللاهوت المسيحيون — خرافة ولادة النيل بين « سيين » و « ايلفنتين » وجريان شـطر منه إلى مصر والشطر الآخر إلى النوبة — هيرودوت لم يفهم المرأة المصرية — دعاوى أخرى لهيرودوت على المصريين غير صحيحة — المجتمع المصرى فى عهـد الأسرة الثامنة عشرة — خرافة الأيام السعيدة والأيام المشؤومة — نشيد النيل — خرافة عروس النيل والأدلة على كذبها .

المدنية المصرية، هل نبتت فى مصر أو طرأت عليها من الكلدان ؟ ٣٣ — ٥٧

العصر الحجرى فى مصر و بحوث العلماء فيه — أرض وادى النيل وأرض ما بين النهرين هما اللتان كانت الأسباب الطبيعية المجتمعة فيهما تجعلهما أصلح للحياة من غيرهما ولهذا ظهرت المدنية المصرية والمدنية الكلدانية حينما كانت كل أمم العالم الأخرى لا تزال على الحالة البدائية — وادى نهر الهندوس يشترك مع وادى النيل ووادى الفرات ودجلة فى هذه الميزة — الأمطار والغابات والأشجار والحيوانات فى صحراء أفريقيا الكبرى — تحوّل ذلك كله إلى أواسط أفريقيا ووجود نهر النيل — إنسان وادى النيـل فى عصر الحجـر غير المصـقول ثم فى عصر الحجـر المصقول — الإنسان فى مصر واستخلاص نباتات الشعـير والذرة والقمح من النباتات الوحشية — اختراع الكتابة المصرية — النيل هو الذى جمع المصريين حوله ثم رباهم وعلمهم حتى أخرجهم من حالة الوحشية إلى حالة المدنية — قصـة «أتباع حوريس» المنقوشة على معبد إدفو لا تصلح سندا للقائلين بغزو الكلدان لمصر — وجوه الشبه بين المدنية الكلدانية والمدنية المصرية ليست دليلا على هذا الغزو و إنما هى دليل على اتصال كل من هاتين المدنيتين بالأخرى — المصريون لم يتعلموا استعمال معدنى النحاس والذهب من الكلدانيين — المدنية المصرية بنت مصر لا بنت بلد آخر .

صفحة

التقويم المصرى ... ... ٥٩ — ٦٧

التقويم القمرى — المصريون يدركون ما فيه من العيوب فيضعون التقويم الشمسى — تقسيم السنة إلى ١٢ شهرا كل شهر منها ٣٠ يوما، ثم إضافة ٥ أيام إليها — تقسيم السنة إلى ثلاثة فصول كل فصل منها أربعة أشهر وتقسيم الشهر إلى ثلاثة أثلاث كل ثلث منها عشرة أيام — الخطأ فى هذا الحساب لم يكن سوى ٦ ساعات وبضع دقائق فى السنة بدل ما يقرب من أحد عشر يوما فى التقويم القمرى — ظهور هذا الخطأ على ممر السنين — أغلب الظن أن علماء هليوبوليس هم الذين وضعوا التقويم الشمسى — ما تركه لنا المصريون عن الفروق بين تقويمهم الذى تبلغ السنة فيه ٣٦٥ يوما وبين دورات كوكب الشعرى اليمانية والتواريخ التى يمكن الاهتداء بها إليها — التقويم المصرى كان موجودا فى المدة من سنة ٤٢٤١ إلى سنة ٤٢٣٨ ق. م. أى قبل حكم الملك منا بأكثر من ألف سنة — هذا التقويم هو الذى حمله يوليوس قيصر من مصر إلى روما وهو الذى أدخل عليه مجمع الكرادلة فى سنة ١٥٨٢ تعديلا طفيفا وسماه التقويم الجريجورى، وهو الذى يستعمله العالم الآن .

معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية ... ... ٦٩ — ٨٩

التوراة وتسلسل الأجيال — اعتقاد الكنيسة أن أقصى المدة من آدم إلى إبراهيم ثم من إبراهيم إلى عيسى لا يزيد على ٥٥٨٩ سنة — ديبوى يدرس البروج المصرية ويقول إن عمرها يبلغ ١٣ أو ١٥ ألف سنة — العلماء المرافقون لنابليون فى مصر يدرسون بروج دندرة وإسنا ويقولون إن معبدى إسنا يرجعان إلى ٧ آلاف سنة — نشوب المعركة بين أنصار الكنيسة وأنصار الآثار المصرية — برج دندرة ينقل إلى فرنسا فيحدث نقله دويا فى أوربا — شامبليون الشاب يثبت أن بروج دندرة وإسنا بنيت فى عهد الرومانيين وبذلك انتصرت الكنيسة — تجدد المعركة بعد ذلك على يد شامبليون الشاب نفسه — شامبليون فى إيطاليا — شامبليون فى مصر — الآثار المصرية تهدم عقيدة الكنيسة — إيمانويل دى روجى يخلف شامبليون وينتصر لقدم الآثار المصرية — لى بيج رينوف ينتصر لها أيضا فى انجلترا وابسيوس فى ألمانيا — الكنيسة تراجع نفسها فتنبذ عقيدتها وتفسر التوراة تفسيرا جديدا لتخرج من التصادم مع الآثار المصرية .

صفحة

عقيدة الحساب بعد الموت ... ... ٩١— ١٢٤

اعتقاد المصريين منذ أقدم العصور أن للانسان روحا يحيا بعد موت الجسم حياة أخرى — نوعان من الروح أحدهما يسمى « كا » والثانى يسمى « با » — قصة ساتنى وولده وزيارتهما للدار التى يحاسب فيها الأموات — رواية ديودور الصقلى عن محاسبة الأموات عند المصريين — ما فى نصوص الأهرام عن عقيدة الحساب — عبادة أوزريس وحساب الميت عن أعماله فى الدنيا — كتاب الموتى وعقيدة الحساب — الدفاع الانكارى الذى يدافع به الميت عن نفسه أمام محكمة أوزريس — تأثير هذه العقيدة فى نفوس المصريين — مصير الميت بعد محاسبته على أعماله فى الدنيا — كيف كان المصريون يتصورون الثواب والعقاب — الصيغ السحرية ومساسها بعقيدة الحساب — هذه الصيغ لم تفسد الإيمان الدينى — وصية ملك من ملوك الأسرة التاسعة لابنه الملك « مرى — كا — رع » — أمنية « با — هيرى » فى الوصول إلى النعيم الخالد — عظة الحكيم « بيكى » — ماذا عرفت المدنية الكلدانية من عقيدة الحساب — ماذا عرفت المدنية اليونانية منها — هومير حاول أن يقتبسها فقصر — الشاعر اليونانى بندار يواصل هذا الاقتباس ناقصا — الفيلسوف أفلاطون الذى تعلم فى مصر يسدّ هذا النقص .

المدنية اليونانية وأثر المدنية المصرية فيها — اقتباسات هومير من الأساطير والآداب المصرية ... ... ١٢٥ — ١٥٦

قارئ العلوم والآداب اليونانية لا يجد فيها ذكرا لعلوم أو آراء مقتبسة من مصر ولا يقف فيها على أسماء لعلماء مصريين ولا على نتاج كان لهم فى علم أو فن أو أدب — الاعتقاد بأن المدنية اليونانية ابتكرت كل علومها ولم تقتبس شيئا من المدنية المصرية لأن هذه المدنية لم تنتج شيئا — ولكن التاريخ الصادق يحدثنا باتصال اليونانيين بمصر اتصالا وثيقا حين نشوء مدنيتهم — المؤرخ اليونانى ديودور الصقلى يذكر أسماء العلماء اليونانيين الذين أقاموا فى مصر — الكاتب اليونانى بلوطرك يذكر العلماء اليونانيين الذين عاشوا فى مصر على أوثق اتصال بكهنتها ويذكر أسماء ثلاثة أساتذة مصريين تلقوا العلم عليهم — البحث منذ أربعين سنة فى هل الآداب والديانات

صفحة

اليونانية فيها أثر من الآداب والديانات المصرية — بحث فيكتور بيرار (Victor Berard) فى الياذة هومير وأوذيسته — قصة « الغريق » المصرية التى عثر عليها جولنيشيف وترجمها — جولنيشيف ومورى يظهران اقتباسات هومير من هـذه القصة فى الأوذيسة — اقتباس هومير من أسطورة إيزيس وأوزريس — بول فوكار أحد عشاق المدنية اليونانية يثبت أن ما عرف فى الديانة اليونانية باسم « عبادة إيلوزيس » ليس سوى عبادة إيزيس المصرية لابسة ثوبا يونانيا .

قصة الغريق ... ... ١٥٧ — ١٧١

كيف عثر جولنيشيف على هـذه القصة وترجمها إلى الفرنسية — القصة نفسها مترجمة إلى اللغة العربية — تعليقات على القصة — الفكرة فى هذه القصة هى الفكرة فى قصة السندباد البحرى فى قصص « ألف ليلة وليلة » العربية وفى قصص « رو بنصون كروزو » الانجليزية — أسلوب الكاتب المصرى وأسلوب التوراة .

رسائل سياسـية وغير سياسية فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، بين ملوك مصر والملوك المجاورين لهـم ، ثم بين ملوك مصر وحكام فلسطين وسـوريا ... ... ١٧٢ — ٢١٠

قوالب الطوب التى عثر عليها فى تل العمارنة — البحث يدل على أن هذه القوالب رسائل سياسية — أمينوفيس الرابع ومدينة خوتاتون — مسلك المصريين مع الأمم التى كانوا يفتحون بلادها — كيف كانوا يعاملون أسرى الحرب . وكيف كانت الأمم الأخرى تعامل الأسرى — نظرة عامة فى رسائل تل العمارنة — المصريون عرفوا سياسـة الحماية المستترة بستار المحالفة — المصريون عرفوا أيضا نظام الجمهورية قبل أن تعرفه المدنية اليونانية — كتب من ملك ألازيا وملك ميتانى وملك أشور إلى ملك مصر — كتاب من بورنا بور ياش ملك كاردنياش (بابل) إلى ملك مصر — كتاب من دوشراتا ملك ميتانى الى أمينوفيس الرابع — كتاب من ملك غير معروف (يظن أنه ملك بابل) إلى أمينوفيس الرابع — كتاب آخر من بورنا بور ياش ملك بابل إلى أمينوفيس الرابع — الرسائل الخاصة بمصاهرات ملوك مصر للملوك المجاورين لهم — رسائل بين أمينوفيس الثالث والملك كاليناسن

صفحة

حول زواج الأوّل بأخت الثانى — رسائل بين أمينوفيس الرابع ودوشراتا ملك ميتانى حول زواج الأوّل بنت الثانى — رسالة من ملك بابل إلى أمينوفيس الثالث يقول فيها إنه لما طلب هـذا الأخير مصاهرته أجابه إلى طلبه ولكنه لما طلب هو بعد ذلك أن يزوّجه ابنته رفض — إلحاح الملوك الأسيويين فى طلب الذهب من ملك مصر — كيف كانت العلاقات بين الفراعنة وحكام سوريا فى عهد الإمبراطورية المصرية — رسائل بعض هؤلاء الحكام إلى ملك مصر — رسالتان من حاكم صيدا ومن حكام آخرين — رسائل من حكام يطلبون نجدات من ملك مصر — رسائل خاصة بانفراط عقد الامبراطورية المصرية فى عهد اخناتون (أمينوفيس الرابع) بسبب انصرافه إلى ثورته الدينية على المعبود أمون .

ملحق للتقـويم المصرى ٢٢٣

نصوص عثر عليها أخيرا تدل على أن الكهنة ورجال الحكومة كانوا يدوّنون أيام المواسم الزراعية طبقا للتقويم وأمام كل واحد منها اليوم المعادل له طبقا لدورة الشعرى اليمانية — « الأمر الكانوبى » الذى أصدره بطليموس الثالث بتعديل التقويم على أساس اضافة يوم كل أربع سنوات إلى الخمسة الأيام الاضافية .

تصحيح ٢٢٧



كَمُلَ طبع المجلد الأوّل من كتاب "على هامش التاريخ المصرى القديم" بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ١٩ جمادى الثانية سنة ١٣٥٩ (٢٥ يوليه سنة ١٩٤٠) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصـرية

(مطبعـة دار الكتب المصرية ٣٤/١٩٣٩/١٥٠٠)